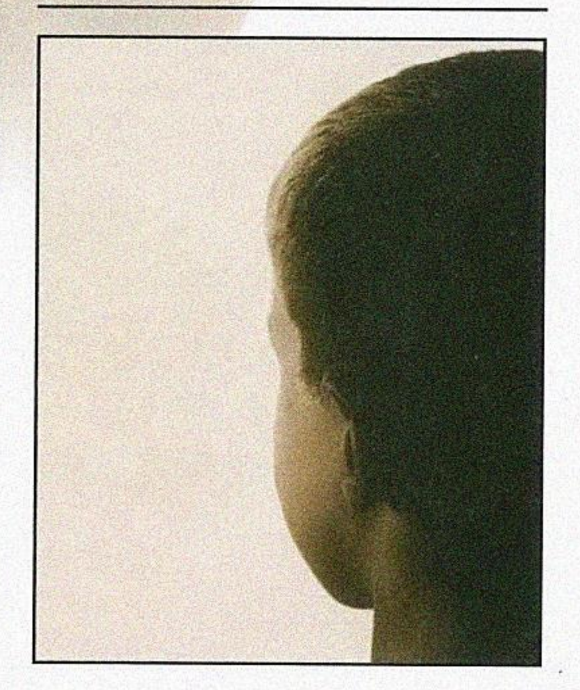
ج. م. كويتزي

أيام الصِبا

مذكرات



ترجمة: خالد الجبيلي



ج. م. كويتزي

أيام الصبا

«مذكرات»

ترجمة: خالد الجبيلي

* ج. م. كويتزي
* أيام الصبا
* ترجمة خالد الجبيلي

* الطبعة الأولى 2005
* موافقة وزارة الإعلام رقم 80772
* الناشـــــــــر: ورد للطباعـــة والنشـــر والتوزيــع
سوريـــة ـ دمشق ☎ 5141441
* الاستشارة الأدبية: حيدر حيدر
* الإشـــراف الفني: د. مجد حيدر
* التوزيـــــــــع: دار ورد ☎ 5141441 ص.ب 30249

العنوان الأصلي للكتاب:

Boyhood

Scenes from Provincial life

1

كانوا يعيشون في منطقة سكنية تقع خارج بلدة ووستر، بين خطّ السكة الحديدية والطريق السريع. ورغم خلو هذه المنطقة من أية شجرة كان يُطلق على شوارعها أسماء أشجار. وكان عنوان بيتهم: جادة شجرة الحور، رقم 12. وكانت جميع البيوت في هذه المنطقة جديدة ومتشابهة تماماً، وقد شُيِّدت على مساحات واسعة من الأراضي الطينية الحمراء الجرداء الخالية من أيَّة نبتة، وكان يفصل أحدها عن الآخر سياج من الأسلاك. وكانت كلّ باحة خلفية تضم مبنى صغيراً يحوي غرفة ودورة مياه. ورغم أن أحداً من قاطني هذه البيوت لم يكن لديه خادم، كانوا يسمُّون هذا المبنى الصغير «غرفة الخادم» و«دورة المياه الخاصة بالخادم». وكانوا يستخدمون غرفة الخادم لتخزين الأشياء: صحف، زجاجات فارغة، كرسي مكسور، وفرشة قديمة محشوة بالليف الهندي.

وفي الجهة الأخرى من الباحة الخلفية كان يوجد قن لايحتوي إلا على ثلاث دجاجات فقط، كان من المفترض أن تزودهم بالبيض. إلا أنَّ هذه الدجاجات لم تكن تبيض على الإطلاق. وكانت مياه الأمطار، التي لم تكن الأرض الطينية تتشربها، تشكّل بركاً في الباحة الخلفية، ويتحول قن الدجاج إلى مستنقع تنبعث منه روائح كريهة. وذات مرة ظهرت على سيقان تلك الدجاجات أورام كبيرة، وأصبحت أشبه بجلد الفيل، لذلك لم تكن تبيض بسبب هزالها

ومرضها. وذات يوم استشارت أمّه أختها التي تعيش في ستيلينبوش حول هذا الأمر، فقالت أختها: إن تلك الدجاجات لن تبيض، إلا إذا أزالت القشرة القرنية من تحت لسانها. وهكذا أخذت أمّه دجاجة تلو الأخرى، وثبتتها بين ركبتيها، وأخذت تضغط على أغبابها كي تفتح مناقيرها، وبطرف سكين حادة اقتلعت ألسنتها. وكانت الدجاجات تقوقىء وتصفق بأجنحتها محاولة الإفلات منها، وعيونها جاحظة. أما هو فأخذ يرتجف وأشاح بوجهه عنها. وها هو يتذكر أمّه وهي تصفق شرائح اللحم على طاولة المطبخ بقوة، وتقطعها إلى مكعّبات. يتذكر أصابعها الدامية.

كان أقرب حانوت يبعد عن بيتهم ميلاً على امتداد طريق تحفه أشجار الكالبتوس. ولم تكن أمّه تبارح هذا البيت المبني على شكل صندوق، ولم تكن تفعل شيئاً طوال النهار سوى الكنس والتنظيف. وفي كلّ مرّة تهب فيها الرياح كان يتسرب غبار طيني ناعم من تحت الأبواب، ومن خلال الشقوق في أطر النوافذ، ومن تحت الإفريز، وعبر وصلات السقف. وبعد أن تهب العاصفة طوال النهار كانت تتشكل طبقة كثيفة من الغبار على الجدار الأمامي.

وذات يوم اشتروا مكنسة كهربائية. وكانت أمّه تشغل المكنسة الكهربائية في كلّ صباح وتتنقل بها من غرفة إلى أخرى، تشفط الغبار إلى بطن المكنسة التي تصدر صوتاً صاخباً. كان يتقافز كعفريت أحمر، ويبتسم كما لو أنه كان يقفز فوق أحد الحواجز. عفريت: لماذا؟

كان يلعب بالمكنسة الكهربائية، ويمزّق أوراقاً إلى قصاصات صغيرة، ويراقبها بمتعة وهي تتطاير كما تتطاير أوراق الأشجار عندما تهب عليها الريح قبل أن يشفطها الأنبوب. وكان يوّجه أنبوب المكنسة نحو رتل من النمل، فتشفطه وتقوده إلى حتفه.

وكان يوجد في ووستر، التي تبعد تسعين ميلاً عن كيب تاون،

أسراب كبيرة من النمل والذباب وجحافل من البراغيث. وكان الوضع هنا أسوأ بكثير مما كان عليه في كيب تاون. وكنت ترى في المنطقة التي تعلو جوربه حلقات وحلقات حمراء من لسعات البراغيث، وقشور جروح لم يكن يكّف عن حكها وخدشها. لم يكن يغمض له جفن في بعض الليالي بسبب الحكّ والهرش. ولم يكن يعرف السبب الذي جعلهم يغادرون كيب تاون.

وكانت أمّه امرأة متململة ونزقة. ولم تكن تكّف عن القول: كم أتمنّى لو كان عندي حصان، كي أمتطيه في السهب على الأقل. حصان! كان أبوه يقول: وهل تريدين أن تصبحي السيدة غوديفا؟

لم تشتر حصاناً بل اشترت، وبدون سابق إنذار، دراجة عادية من الطراز النسائي. كانت مستعملة ومطلية باللون الأسود؛ وكانت ضخمة وثقيلة جداً إلى حد أنه لم يقوَ على تحريك الدواسات عندما حاول أن يجرّبها في الباحة الخلفية.

ولم تكن تعرف كيف تقود الدراجة. ولعلها لم تكن تعرف كيف تمتطي حصاناً أيضاً. فقد اشترت الدراجة ظناً منها أنها سهلة القيادة. لكنها لم تجد الآن أحداً يعلمها ركوب الدراجة.

أما أبوه فلم يكن بوسعه أن يخفي غبطته. وكان يقول: إنَّ النساء لا يركبن الدراجات. غير أن أمّه كانت تتشبث بموقفها المتحدي وتقول: لن أظل سجينة هذا البيت، بل سأكون حرّة.

خيّل إليه في البداية أن امتلاك أمّه دراجة شيء رائع. بل أخذ يتخيّل أنهم هم الثلاثة: هي وهو وأخوه، يمتطون الدراجة ويسيرون على امتداد جادة شجرة الحور. أما الآن، وبينما كان يستمع إلى النكات التي يطلقها أبوه، والتي كانت أمّه تتلقاها بصمت عنيد، بدأ يعتريه التردّد. فالنساء لا يركبن الدراجات: ماذا لو كان أبوه محقاً؟ فإذا لم تجد أمّه أحداً يريد أن يعلّمها، وإذا لم

يكن لدى أية ربّة بيت أخرى في منطقة حديقة ريونيون دراجة، فربما لا يجدر بالنساء أن يركبن دراجة.

وحاولت أمّه أن تتعلم قيادة الدراجة في الباحة الخلفية وحدها. فكانت تبقي ساقيها ممدودتين باستقامة على كِلا الجانبين، وتنزلق على المنحدر باتجاه قنّ الدجاج. وكانت الدراجة تنقلب وتتوقّف. وبسبب عدم وجود قضيب مستعرض في الدراجة لم تكن تسقط، بل كانت تتمايل وتترنح وهي متشبثة بالمقود.

وبدأ ينقلب ضدها. إذ شارك أباه في ذلك المساء السخرية منها. وكان يعرف حق المعرفة أن هذا غدر وخيانة؛ فقد أمست أمّه وحيدة الآن.

ورغم كل ذلك فقد تعلمت ركوب الدراجة، ولكن بشكل متأرجح وقلق. فقد كانت تبذل جهداً كبيراً في الحفاظ على توازن المقود الثقيل.

كانت تقوم بجولاتها إلى ووستر في الصباح عندما يكون في المدرسة. ولم يرها على دراجتها سوى مرة واحدة. كانت ترتدي بلوزة بيضاء وتنورة داكنة. كانت تسير عبر جادة شجرة الحور باتجاه البيت. وكان شعرها يتطاير مع الريح. كانت تبدو شابة مثل فتاة، غضّة وغامضة.

أما أبوه فكان في كلّ مرّة يرى فيها الدراجة السوداء الثقيلة مستندة إلى الحائط يسخر منها ويطلق بعض النكات عنها. وكان يقول هازئاً: إنَّ أهالي ووستر يتوقفون عن عملهم فاغري الأفواه، وهم ينظرون إلى المرأة وهي تمضي أمامهم بصعوبة على الدراجة. الإبزيم! الإبزيم! يصيحون، ساخرين: ادفعي! ومع أن تلك النكات لم يكن فيها ما يضحك فقد كان هو وأبوه لا يتوقفان عن

الضحك بعد ذلك. ولم تكن أمّه تأبه لذلك كثيراً، ولم تكن تتمتع بملكة الرّد السريع، فتقول: «اضحكا كما تشاءان».

وبدون تفسير توقفت أمّه فجأةً عن ركوب الدراجة. وما هي إلا فترة قصيرة حتى اختفت الدراجة. ولم ينبس أحد بكلمة واحدة عنها، لكنه كان يعرف في قرارة نفسه أنها هُزمت، عرفت حدودها، وكان يعرف أنه يتحمل جزءاً من اللوم. سأعوّضها عن ذلك ذات يوم، قال واعداً نفسه.

لم تكن تبارحه ذكرى أمّه وهي على دراجتها حين تحرك الدواسات في جادة شجرة الحور، هاربة منه لتحقق رغبتها. لم يكن يريدها أن تذهب. لم يكن يريد أن تكون لها رغباتها الخاصة. كان يريدها أن تلزم البيت ولا تبارحه، وأن تنتظره عندما يعود إلى البيت. لم يعد يقف إلى جانب أبيه ضدها في معظم الأحيان، بل أصبح يجنح لأن يقف في صفها ضدّ أبيه. ألم يكن ينتمي إلى صنف الرجال؟

2

لم يكن يبوح لأمّه بأيّ شيء، بل كانت حياته في المدرسة سرّاً محكم الإغلاق عليها. فقد عزم على ألا يخبرها بشيء، وعلى ألا تعرف شيئاً عنه، إلا ما ظهر من علامات في تقريره المدرسي الفصلي الذي كان دائماً مشرّفاً. فقد كان يتبوأ المرتبة الأولى في الصف على الدوام، ويتمتع بسلوك جيد كذلك، وكان يتقدم على أقرانه التلاميذ بامتياز وباستمرار. وبما أن تقريره المدرسي كان رائعاً فلم يكن يحقّ لها أن تسأله شيئاً. هذا ما وقر في نفسه.

وفي كلّ يوم كان الصبية يُضربون بالعصا في المدرسة، وكان يُطلب منهم أن ينحنوا ويلمسوا أصابع أقدامهم بأيديهم، عندها يأخذ المعلمون بضرب الصبية بالعصا ضرباً مبرحاً.

وكان ثمة معلمة مولعة بضرب أحد رفاقه في الصف الثالث يدعى روب هارت بشكل خاص. وكانت تلك المعلمة، التي تدعى الآنسة أوستييزين، امرأة سريعة الغضب وشعرها مصبوغ بالحناء. وبشكل ما كان والداه يعرفانها باسم ماري أوستييزين: فقد كانت تؤدي بعض الأدوار في بعض المسرحيات، وظلت عازبة طوال حياتها. ورغم ثقته بأن لها حياة أخرى خارج المدرسة، لم يكن يعرف ما نوع تلك الحياة. إذ لم يكن يتخيّل أن لدى أيّ معلّم أو معلّمة حياة خاصة خارج المدرسة.

كانت الآنسة أوستييزين تستشيط غضباً، فتنادي روب هارت القابع في مقعده، وتأمره بأن ينحني، وتنهال بالعصا على ردفيه توسعهما ضرباً. وكانت الضربات تأتي سريعة متلاحقة، بحيث لا تكاد العصا تنطلق من مكانها حتى تعود لتنهال على ردفيه. وعندما كانت تنهي عقابها له كان وجه روب هارت يتضرج بالحمرة، لكنه لم يكن يذرف دمعة واحدة. ربما كان وجهه يتضرج بالحمرة بسبب الانحناء. أما الآنسة أوستييزين فيبدأ صدرها يعلو ويهبط، وتبدو وكأن الدموع ستنهمر من عينيها، دموع وتدفقات أخرى أيضاً.

وفي أعقاب تلك النوبات العاطفية الشديدة التي لا يمكن التحكم بها كان يخيم على الصف كله صمت مطبق، ويبقى هكذا إلى أن يُقرع الجرس.

ولم تفلح الآنسة أوستييزين أبداً في أن تجعل روب هارت يبكي؛ ولعل هذا ما كان يجعلها تتميّز غيظاً ويشتد هياجها وغضبها منه، فتوسعه ضرباً بقسوة شديدة، أقسى من ضربها لأي تلميذ آخر. وكان روب هارت هذا أكبر الصبيان سناً في الصف، وكان يكبره بسنتين تقريباً (فهو أصغر التلاميذ سناً). وكان ينتابه إحساس بأن ثمة شيئاً خفيّاً بين روب هارت والآنسة أوستييزين، لكنه لم يكن يعرف حقيقة ذلك الشيء.

وكان روب هارت طويل القامة، وسيماً وهادئاً. ومع أن روب لم يكن ذكياً، بل وربما كان عرضة للرسوب في الصف، كان يجد نفسه منجذباً إليه. فقد كان روب هارت جزءاً من عالم لم يجد بعد سبيلاً لأن يلجه: عالم الجنس والضرب.

أما هو فلم تكن لديه أدنى رغبة في أن تضربه الآنسة أوستييزين أو أي شخص آخر. إذ أن مجرد فكرة أن يُضرب كانت تجعله يذوب خجلاً وخزياً؛ لذلك كان يفعل كل ما بوسعه كي يتجنب

مثل تلك المواقف، ولا يعرّض نفسه للضرب. وكان يعتبر نفسه أنه غير طبيعي في هذا الأمر، وكان يدرك ذلك. فهو ينحدر من عائلة غير طبيعية ومخزية، ليس فيها أب لا يضرب أطفاله فقط، بل يخاطب فيها جميع الكبار أحدهم الآخر بأسمائهم الأولى كذلك، ولم يكن أحد منهم يرتاد الكنيسة، وكانوا يرتدون أحذية في كلّ يوم.

وكان لكلّ معلّم أو معلّمة في مدرسته عصا يستخدمها بحرية مطلقة. وكان لكلّ عصا من تلك العصي شخصية تتميز بها يعرفها الصبية حق المعرفة، وكانوا لا يكفّون عن الحديث عنها. فكانوا يتحدثون عن ميزات كلّ عصا بدقة متناهية وبروح من المعرفة العميقة ونوع الألم الذي تسببه، وكانوا يقارنون أساليب رفع الرسغ والذراع عند المعلمين. ولم يكن أحد يدرك مدى عمق شعوره بالخزي إذا ما نُودي باسمه وَطُلب منه أن ينحني ويتلقى ضربات على مؤخرته.

وبما أنه لم تكن لديه تجربة في ذلك، فلم يكن بوسعه أن يشارك الصبية الآخرين في هذه الأحاديث. ورغم ذلك فقد كان يعرف أن الألم لم يكن الشيء الأساسي في هذا الأمر، فإذا كان بإمكان الصبية الآخرين أن يتحمّلوا الألم، فبوسعه إذاً أن يتحمله هو أيضاً، لأن إرادته كانت أقوى بكثير من إرادتهم. أما الشيء الذي لم يكن يتحمله فهو الشعور بالخزي. فالشعور بالخزي أمر سيء للغاية، وطالما كان يخشاه، وكان يثير فزعه إلى حد أنه كان سيتشبث بمقعده بقوة ويرفض أن يخرج إذا ما نودي باسمه، لأن ذلك سيكون خزياً عظيماً ولأن ذلك سيجعله يقف في جانب، ويجعل الصبية الآخرين يقفون في الجانب الآخر. وإذا حدث وأن نودي اسمه كي يُعاقب فسيكون ذلك مشهداً في غاية الإذلال إلى درجة أنَّه لن يتمكن من العودة إلى المدرسة ثانية، وسيكون الانتحار منفذه الوحيد من هذا كله.

وهنا يكمن الخطر. ولهذا السبب لم يكن يصدر صوتاً في الصف، ولهذا السبب كان متأنقاً ونظيفاً على الدوام، ولذلك كان يؤدي واجباته المدرسية في البيت دائماً على أفضل وجه، ولهذا السبب كان يعرف الجواب عن كل سؤال دائماً. فلم يكن يجرؤ على ارتكاب أيّ هفوة، لأنه إذا ارتكب أية هفوة فإنه يجازف في أن يُضرب. وسواء ضُرب أو احتج لأنه ضُرب سيكون الأمر سيان بالنسبة له، لأنه سيصبح عندئذ في عداد الأموات.

والغريب أن شعوراً كان يراوده بأنه إذا ضُرب مرة واحدة فقط سيتبدد الخوف الذي يتملكه ويتلاشى. كان يدرك ذلك تمام الإدراك. وكم كان يتمنى، بطريقة ما، أن يُضرب بسرعة لكي لا يتاح له وقت للاعتراض. كم كان يتمنى أن يُنتهك جسده بسرعة وبقوة حتى يتمكن من الاجتياز إلى الطرف الآخر ويصبح ولداً طبيعياً، حتى يتمكن من المشاركة بسهولة في الأحاديث التي كانت تدور عن المعلمين وعن عصيِّهم، وعن مختلف درجات ونكهات الألم الذي يتلقاه الصبية. لكنه لن يتمكن من أن يتخطى ذلك الحاجز وحده.

وكان يلوم أمّه على ذلك لأنها لم تكن تضربه. ورغم سعادته لأنه كان ينتعل حذاء، ويستعير كتباً من المكتبة العامة، ولا يذهب إلى المدرسة إذا ما أصيب بالزكام - جميع الأشياء التي تجعله منعزلاً ومتميزاً - فكان يشعر بالغضب من أمّه لأنها لم تنجب أطفالاً طبيعيين، ولم تجعلهم يعيشون حياة طبيعية. فلو كان أبوه هو الشخص الذي يأخذ بزمام الأمور في البيت لأصبحت عائلته طبيعية. إذ كان أبوه طبيعياً في أساليبه، وهو يشعر بالامتنان لأمّه لأنها كانت تحميه من ثورة أبيه؛ أي من هيجان أبيه ذي العينين الزرقاوين وتهديده بضربه بين الحين والآخر. وكان في الوقت نفسه حانقاً على أمّه لأنها ربته لكي يصبح شيئاً غير طبيعي، شيئاً تجب حمايته إذا قُيِّض له أن يواصل الحياة.

ومن بين تلك العصي، لم تكن عصا الآنسة أوسثييزين هي التي تركت أعمق الأثر في نفسه، بل عصا السيد لاتيغان، معلّم النجارة، التي كانت أكثر العصي إثارة للفزع. فلم تكن عصا السيد لاتيغان الأطول والأكثر رشاقة التي يفضلها معظم المعلمين، بل كانت قصيرة وغليظة. ويقال إن السيد لاتيغان لم يكن يضرب بها إلا الأولاد الأكبر سناً، لأن الأولاد الأصغر لم يكن بمقدرتهم تحملها. ويقال إن عصا السيد لاتيغان كانت تجعل، حتى الفتية المتقدمين للامتحانات الثانوية، يبكون ويتوسلون طلباً للرحمة ويتبوّلون في ثيابهم الداخلية ويعتريهم الشعور بالخزي.

وكان السيد لاتيغان رجلاً ضئيل الجثة، يقص شعره بشكل قصير جداً، بحيث كانت شعراته تنتصب إلى الأعلى، وكان له شارب كث. وكان أحد إبهاميه مبتوراً وبدا ما تبقى منه مكسواً بندبة أرجوانية اللون. ولم يكن السيد لاتيغان يقول شيئاً تقريباً، بل كان عصبي المزاج وشارداً على الدوام، كما لو أنه يشعر بأن تعليم الأولاد الصغار حرفة النجارة مهمّة لا تليق به، ولم يكن يؤديها عن طيب خاطر. وفي معظم فترة الدرس كان يقف عند النافذة ويحدق في الباحة، فيما ينهمك الصبية في قياس الخشب ونشره وصقله وتنعيمه. وكان في بعض الأحيان يحمل معه عصاه القصيرة، وينقر بها ساق بنطاله ببلادة وهو يجترّ شيئاً في فمه. وعندما كان يقترب ليرى ما فعله كلّ تلميذ، يبدأ بسرد الأخطاء التي ارتكبها التلميذ بعجرفة، ثم ينتقل إلى التلميذ التالي بعد أن يهز كتفيه بلا مبالاة.

وكان يُسمح للأولاد بممازحة المعلمين حول عصيهم. «اجعله يغني، يا سيدي!»، كان الصبية يقولون، فيرتفع رسغ السيد غووس وتنطلق من عصاه الطويلة (أطول عصا في المدرسة، علماً أن السيد غووس كان معلّم الصف الخامس) صافرة صفرةً عميقة في الهواء.

أما السيد لاتيغان فلم يكن أحد يجروٌ على ممازحته، إذ كان الجميع يهابونه لما يمكن أن يفعله بعصاه للفتية، حتى الذين بلغوا مبلغ الرجال أيضاً.

وعندما كان والده وعمه يلتقيان في المزرعة في عيد الميلاد، كان الحديث يدور دائماً عن أيام المدرسة. وكانا يتذكّران مديريّ مدرستيهما وعصويهما. وكانا يتذكّران صباح تلك الأيام الشتوية الباردة، عندما كانت العصي تجعل جلد أردافهم زرقاء اللون وتستمر اللسعات والوخزات قابعة في ذاكرة اللحم لأيام طويلة. وكانت كلماتهم تشي بالحنين والخوف اللذيذين. وكان يصغي بلهفة شديدة ويحرص على ألّا يلاحظه أحد، إذ لم يكن يريد أن يتوجها إليه في أثناء توقفهما عن الحديث. وكانا يسألانه عن مكانة العصا في حياته. وبما أنه لم يُضرب في حياته قط كان ينتابه خجل شديد. ولم يكن يستطيع أن يتحدث عن الضرب بالعصا بأسلوب العارف، كما كان يفعل هذان الرجلان.

كان ينتابه إحساس بأنه مهدّم. وكان يتملكه شعور بأنَّ ثمَّة شيئاً ما يمزّقه ببطء في داخله دائماً: جدار، غشاء. وكان يحاول أن يظل متماسكاً قدر الإمكان ليبقي ذلك التمزق محصوراً في حدوده، لكن شيئاً لم يكن يوقفه.

كان هو وتلاميذ صفه يعبرون المدرسة مرّة في الأسبوع ويتجهون إلى الملعب لحضور درس الرياضة. وفي غرفة تبديل الملابس كانوا يرتدون قمصاناً وسروايل قصيرة بيضاء. وبإشراف السيد بارنارد، الذي كان يرتدي كذلك ثياباً بيضاء، وكانوا يمضون نصف ساعة وهم يلعبون لعبة النطة، ولعبة الحصان ومقبض السيف، أو كانوا يرمون الكرة، أو يتقافزون ويصفقون فوق رؤوسهم.

كانوا يفعلون كلّ ذلك وهم حفاة الأقدام. وقبل عدة أيام من

درس الرياضة البدنية كان يخشى من السير حافياً، فكان يغطي قدميه على الدوام. لكنه ما أن يخلع حذاءه وجوربيه حتى لا يعود يجد أي مشقة على الإطلاق. إذ كان عليه أن يتخلص من شعوره بالخجل هذا، ويخلع ثيابه بسرعة وعجلة، كي تصبح قدماه مثل أقدام الآخرين. وفي مكان قريب كان مايزال شعوره بالخجل يعشش فيه، ينتظر أن يظهر، لكنه كان خجلاً خاصاً به لم يكن يريد أن يطلع عليه الفتيان الآخرين.

كانت قدماه ناعمتين شديدتي البياض، ولولا ذلك لبدتا مثل أقدام الآخرين، حتى أقدام الفتيان الذين لا يرتدون أحذية ويأتون إلى المدرسة حفاة. ولم يكن يجد متعة في دروس الرياضة البدنية، وفي خلع ثيابه في هذه الدروس، لكنه كان يقول لنفسه إنه بوسعه أن يتحمّل ذلك، كما كان يتحمّل أشياء أخرى.

وذات يوم طرأ تغيير على الأيام المألوفة العادية. فبدلاً من الذهاب إلى الملعب الرياضي توجه الفتية إلى ملاعب التنس للتدريب. وكانت تلك الملاعب تقع في مكان بعيد بعض الشيء، لذلك كان شديد الحرص وهو يطأ بقدميه وينقّل خطواته بين الأحجار طوال الطريق. وكان مدرج ملعب التنس شديد الحرارة تحت أشعة شمس الصيف اللاهبة، لذلك كان يضطر لأن يقفز من قدم إلى أخرى كي لا يحترق باطن قدميه. وكانت العودة إلى غرفة الملابس تبعث في نفسه الراحة فينتعل حذاءه مسروراً، لكنه لا يكاد يستطيع أن يمشي بعد الظهر، وعندما كانت أمّه تخلعه حذاءه بعد أن يعود إلى البيت كانت تجد أن باطني قدميه قد امتلآ بالبثور وينزفان دماً.

وكان يمكث في البيت ثلاثة أيام حتى يتماثل للشفاء. وفي اليوم الرابع، كان يعود حاملاً معه رسالة من أمّه، يدرك أن صياغتها تنم عن الامتعاض والسخط. ومثل محارب جريح كان يعرج على قدميه متجهاً إلى مقعده ليأخذ مكانه بين أقرانه.

«لماذا كنت غائباً عن المدرسة؟»، يهمس زملاؤه.

فيرد هامساً: «لم أكن أستطيع أن أمشي، فقد ظهرت بثور في قدميّ بسبب لعبة التنس».

كان يتوقّع دهشة وعطفاً، لكنه لم يكن يسمع إلا السخرية والنكات عليه. حتى زملاؤه الذين كانوا يرتدون أحذية لم يكونوا يصدقونه تماماً. فبطريقة ما قَسَت أقدامهم، ولم تعد تظهر عليها بثور. ويعود ويكتشف أنه كان وحيداً، هو صاحب القدمين الطريتين الناعمتين، الأمر الذي لم يكن يمنحه امتيازاً أو فخراً. وبغتة أصبح منعزلاً وحيداً مع أمه.

3

لم يكن يعرف حقاً مكانة أبيه في الأسرة، بل لم يكن من الواضح له بأي حقّ يوجد أبوه في البيت. فقد كان مستعداً لتقبل الفكرة بأن الأبّ هو رأس العائلة في أسرة طبيعية، فالبيت بيته، والزوجة والأطفال يعيشون في كنفه. أما في حالتهم، وفي حالة أسرتيّ أختين من أخوات أمّه أيضاً، كانت الأمّ والأطفال يشكلون أساس الأسرة وجوهرها، فيما لم يكن الزوج سوى شخص تابع، مجرد مساهم في الاقتصاد كما يفعل النزيل الذي يدفع أجرة مسكنه.

ويذكر أنه كان يشعر بأنه أمير البيت، وأن أمّه كانت امرأة مدلِّلة مريبة، وحامية قلقة. مريبة وقلقة لأنه كان يعرف أنه ليس من وظيفة الطفل أن يكون سيد البيت، وإذا كان ثمة أحد يغار منه، فليس والده بل أخوه الذي يصغره، وذلك لأن أمّه كانت تدلِّل أخاه كذلك، بل كانت تؤثره عليه، رغم أن أخاه كان ذكياً لكنه لم يكن بدرجة ذكائه هو، ولم يكن جريئاً أو مغامراً مثله. وفي الواقع كانت أمّه تحيط أخاه دائماً برعايتها، وكانت متأهبة دائماً لتدرأ عنه الخطر. أما بالنسبة له فكانت مجرد كائن يقبع في الخلفية، ينتظر، يترقب، يصغي، ويلبيه إن طلب منه شيئاً.

كان يريدها أن تتصرّف معه كما كانت تتصرف مع أخيه. لكنه

كان يريد ذلك كدليل، كبرهـان، لا أكثر، إذ كان يعرف تمـام المعرفة أنه سيستشيط غضباً إن هـي بدأت تحوم حوله وتحيطه برعايتها.

وكان لا يفتأ يحرجها، ويطلب منها أن تعترف له أيهما تحبّ أكثر، هو أم أخوه. وكانت تقع باستمرار في الفخّ فتقول بابتسامة: «أحبكما أنتما الاثنان بالقدر نفسه». حتى أنه كان يسألها أكثر أسئلته عبقرية وإحراجاً ـ لنفترض أن النيران اشتعلت في البيت ولم يكن لديها الوقت الكافي لتنقذهما هما الاثنان؟ لكنه لم يكن يتمكن من إيقاعها في الفخ، إذ كانت تقول: «كلاكما، بالتأكيد سأنقذكما أنتما الاثنان. لكن البيت لن يحترق». ومع أنه كان يسخر منها ومن تفكيرها الحرفي، كان يحترم ثباتها وعنادها.

كان غضبه من أمّه شيئاً يحرص على إبقائه بعيداً عن أعين العالم الخارجي. فلم يكن يعرف أحد سواهم، هم الأربعة، سيل السباب والازدراء الذي كان يصبه عليها. كم كان يعاملها كتابع له. «لو عرف أساتذتك وأصدقاؤك كيف تكلّم أمّك...»، كان أبوه يقول له وهو يهزّ إصبعاً أمامه بطريقة ذات مغزى. كان يكره والده لأنه كان يرى فيه الشرخ بجلاء شديد.

كان يريد أن يضربه أبوه ويجعل منه ولداً طبيعياً. وفي الوقت ذاته، كان يعرف أنه إذا تجرأ والده وضربه فلن يهدأ له بال حتى ينتقم منه. فإذا أقدم أبوه على ضربه فسيجن: سيصبح كالممسوس، مثل جرذ محصور في زاوية، يؤذي ما حوله، ينهش بأنيابه السامّة. سيصبح إنساناً شديد الخطورة إن مسَّه أحد.

كان في البيت طاغية نكداً، سيء الخلق، وفي المدرسة كان حملاً وديعاً ولطيفاً، يجلس في الصفّ الثاني في المؤخرة، المكان الأكثر بعداً عن الأنظار، لكي لا يُرى، ويتشنج جسده خوفاً عندما يبدأ الضرب في الصف. لقد خلق له العيش بتلك الحياة المزدوجة عبء الخداع. ولم يكن يتعين على أحد سواه أن يتحمل شيئاً كهذا،

حتى أخوه، الذي كان في الأغلب مقلداً عصبياً ضعيفاً له. كان في الحقيقة يشكّ في قرارة نفسه بأن أخاه طبيعي. كان وحيداً لا يتوقع أن يحصل على دعم من أي شخص. كان يريد أن يتجاوز مرحلة الطفولة بشكل ما، مرحلة الأسرة والمدرسة، وينتقل إلى حياة جديدة لا يحتاج فيها إلى مزيد من النظام والازدواجية.

تقول موسوعة الأطفال إن الطفولة فترة من البهجة البريئة، يمضيها الطفل في المروج وسط الأزهار والأرانب أو بجانب المدفأة مستغرقاً في قراءة قصة. إنها رؤية للطفولة غريبة عليه تماماً. فلا شيء في ووستر، سواء في البيت أم في المدرسة، يجعله يعتقد أن الطفولة ليست شيئاً سوى فترة من اصطكاك الأسنان والمعاناة.

وبسبب عدم وجود ناد للغولف في ووستر سُمح له أن ينضم إلى فوج الكشافة مع أنه لم يكن يتجاوز العاشرة من عمره. ولكي يُقبل في فوج الكشافة بدأ يستعد بدقة. فقد رافقته أمّه إلى محل الألبسة لشراء بدلة الكشافة: قبعة كتانية بنية اللون تميل إلى اللون الزيتوني، وشارة فضّية للقبعة، وقميص وشورت كاكي وجوارب طويلة، وحزام جلدي عليه إبزيم الكشافة، وشرائط خضراء للكتف، وشرائط خضراء للجوارب. وقطع غصناً طوله خمسة أقدام من شجرة حور، وأزال عنه القشرة، وأمضى فترة بعد الظهر وهو يرسم على الخشب الأبيض بمفك رموز المورس والإشارات بالضوء. وذهب إلى أول اجتماع كشفي والعصا التي صنعها ملقاة على كتفه وعليها حبل أخضر كان قد ضفره بنفسه في ثلاث جدائل. وأدىّ القسم بالتحية بإصبعين. لقد كان الصبي الوحيد من بين جميع الصبية المجهز تجهيزاً كاملاً.

وسرعان ما تبين له أن في الكشّافة كالمدرسة اختبارات يجب

على المتقدم أن يجتازها، ويحصل على كل اختبار يجتازه شارة محددة تخاط على قميصه.

وكانت الاختبارات تجري في سلسلة محددة. فقد كان الاختبار الأول عن كيفية ربط العقد: العقدة الشراعية، وعقدة الشعب المرجانية المضاعفة، وعقدة حبل الشراع. ينجح في الاختبار، لكن بدون تميّز. ولا يعرف تماماً كيف يمكن أن يجتاز أحد اختبارات الكشافه بامتياز، كيف يمكن لأحد أن يتفوق فيها.

أما الاختبار الثاني فكان للحصول على شارة الحطّاب. ولكي يجتاز هذا الاختبار كان عليه أن يضرم ناراً، دون أن يستعمل ورقة، ودون أن يستعمل أكثر من ثلاثة أعواد ثقاب. وفي مساء شتوي كانت تهب فيه رياح باردة جمع على الأرض الجرداء بالقرب من قاعة الكنيسة الأنغليكانية، كومة من الأغصان ونفايات لحاء الشجر، وراح يشعل أعواد الثقاب الواحد تلو الآخر تحت أعين رئيس فصيلته وقائد فوج الكشافة. وفي كلّ مرة لم تكن النار تشتعل، وكانت الريح تطفئ ذلك اللهب الصغير في كلّ مرة. أدار قائد الفوج ورئيس فصيلته ظهريهما وذهبا. لم ينبسا بكلمة: «لقد رسبت». ماذا لو كانا قد ذهبا ليتشاورا ويقررا أن الاختبار لم يكن عادلاً بسبب الريح؟ انتظرهما حتى عادا. كان ينتظر أن يُمنح شارة الحطّاب. لكن شيئاً من هذا القبيل لم يحدث. لبث واقفاً إلى جانب كومة الأغصان ولم يحدث شيء.

لم يأت أحد على ذكر هذا ثانية أبداً. كان أول اختبار فاشل في حياته.

وفي العطل الصيفية كان فوج الكشّافة يخرج في شهر حزيران لإقامة مخيم. لم يكن قد ابتعد عن أمه في حياته قط إلا أسبوعاً واحداً أمضاه في المستشفى عندما كان في الرابعة من عمره. لكنه كان عازماً على الذهاب مع فوج الكشّافة.

وكان عليه أن يجلب مجموعة من الأشياء، من بينها شرشف أرضي. ولم يكن لدى أمّه شرشف أرضي، بل لم تكن تعرف ما هو الشرشف الأرضي، فأعطته بدلاً من ذلك حشية مطاطية حمراء قابلة للنفخ. وتبين له في المخيم أن لدى جميع الأولاد الآخرين مفارش أرضية خاكية اللون. وعلى الفور جعلته الحشية الحمراء في موقع منفصل عن الجميع. كما لم يكن باستطاعته أن يتغوّط في حفرة بالأرض التي تصدر عنها رائحة كريهة.

وفي اليوم الثالث من المعسكر ذهبوا للسباحة في النهر. وعندما كانوا يعيشون في كيب تاون، كان هو وأخوه وابن عمه يستقلون القطار إلى منطقة فيش هوِك ويمضون فترة بعد الظهر كلها يستلقون على الصخور، ويصنعون قلاعاً في الرمال، ويرش أحدهم مياه الأمواج على الآخر ولم يكن يجيد السباحة. أما الآن، وبعد أن أصبح كشّافاً، فكان عليه أن يقطع النهر سباحة ذهاباً وإياباً.

كان يكره الأنهار لأن مياهها عكرة. كان يكرهها بسبب الطين الذي ينسرب من بين أصابع قدميه، وبسبب علب القصدير الصدئة والزجاجات المكسورة التي قد يطؤها. وكان يفضّل عليها رمل بحر أبيض نظيف. لكنه كان مضطراً للغوص في النهر والسباحة بطريقة ما. وفي الجانب الآخر تشبث بجذر شجرة بعد أن وجد موطئ قدم. وقف حتى وسطه في المياه البنية العكرة وأسنانه تصطك.

أما الصبية الآخرون فقد استداروا وبدؤوا يسبحون عائدين إلى الجهة الأخرى، وبقي وحده. لم يكن بوسعه أن يفعل شيئاً سوى أن يعود إلى الماء.

وفي وسط المجرى شعر بقواه تخور. توقف عن السباحة وحاول أن يقف على قدميه، لكن النهر كان عميقاً جداً. غاص رأسه

في الماء. حاول أن يرفع نفسه ليعاود السباحة لكنه كان منهكاً. غاص في الماء مرة أخرى.

تخيّل أمّه جالسة على كرسي ذي ظهر عال ومستقيم، وتقرأ الرسالة التي تخبرها بنبأ موته، وأخوه واقف إلى جانبها يقرأ من فوق كتفها.

ولم يدرِ بنفسه إلا وهو مستلق على ضفّة النهر ورئيس الفصيلة، الذي يدعى مايكل، والذي كان يشعر بخجل شديد عندما يتحدث معه، يقعي فوقه. كانت عيناه مغمضتين. كان مفعماً بالسعادة. لقد أنقذوه.

ولأسابيع عديدة أخذ يفكّر بمايكل، وكيف أنه جازف بحياته عندما غاص في النهر لينقذه. وفي كلّ مرة كان يخطر له كم كان رائعاً أن مايكل رآه - رآه يفشل ويغرق - وبالمقارنة مع مايكل (الذي كان في الصف السابع ويحمل جميع الشارات ماعدا الشارات الأكثر تقدماً والذي كان سيصبح كشافاً متقدماً) كان هو شخص تافه. وكان من الأجدر ألا يراه مايكل وهو يغوص تحت الماء، بل كان من الأجدر ألا يفتقده بعد أن عاد الجميع إلى المخيم، عندها كان مايكل سيكتب الرسالة إلى أمّه، الرسالة الرسمية الباردة التي تبدأ بالقول: «يؤسفنا أن نخبرك...».

ومنذ ذلك اليوم بدأ يعرف أن ثمة شيئاً خاصاً يتعلق به. فقد كان يجب أن يموت لكنه لم يمت. ورغم أنه لم يكن جديراً بالحياة فقد مُنح حياة ثانية. كان ميتاً لكنه حيّ.

لم يفه ولا بكلمة واحدة إلى أمّه عما جرى له في المخيم.

4

كان أهم سرّ في حياته المدرسية، السرّ الذي لم يبح به لأحد في البيت، هو أنه أصبح ينتمي إلى الروم الكاثوليك، وأنه لأهداف عملية أصبح ينتمي إلى طائفة الروم الكاثوليك.

كان يصعب عليه أن يثير هذا الموضوع في البيت لأن أسرته لم تكن «شيئاً». وبالطبع فقد كانوا من جنوب أفريقيا، إلا أنك حتى لو كنت من جنوب أفريقيا، كان ذلك أمراً محرجاً بعض الشيء، لذلك لم يكن أحد يتحدث عن هذا الأمر، لأنه ليس كلّ من عاش في جنوب أفريقيا أفريكاني(*)، أو ليس أفريقياً جنوبياً حقيقياً.

أما بالنسبة للدين فلم يكونوا شيئاً. ولم يكن أحد، حتى في أسرة أبيه، التي كانت أسرة عادية وصادقة أكثر من أسرة أمّه، يرتاد الكنيسة. وكان هو نفسه قد ذهب إلى الكنيسة مرّتين في حياته: مرّة عندما عُمّد، والمرة الأخرى احتفالاً بالنصر بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية.

كان قرار أن «يصبح» من الروم الكاثوليك قراراً مرتجلاً. ففي صباح أول يوم داوم فيه على مدرسته الجديدة، وفيما كان تلاميذ الصف يتوجهون للصلاة في قاعة المدرسة، لبث هو والأولاد الجدّد

(*) الأفريكاني: هو الشخص الذي يعيش في جنوب أفريقيا من أصل هولندي أو أوروبي. م.

الثلاثة الآخرون في مكانهم. «ما هي ديانتك؟» سألتهم المعلمة واحداً بعد الآخر. تلفت يمنة وشمالاً. ماذا كان الجواب الصحيح؟ ما هي الأديان الموجودة حتى يختار واحداً منها؟ هل هي مثل الروس والأمريكان؟ وعندما جاء دوره سألته المعلمة: «ما هي ديانتك؟». بدأ العرق يتصبب منه. لم يعرف ماذا يقول. «هل أنت مسيحي أم روم كاثوليك أم يهودي؟»، سألته نافدة الصبر، فرد على الفور «روم كاثوليك».

عندما انتهى الاستجواب، طُلب منه ومن الصبي الآخر الذي قال إنه يهودي أن يمكثا في مكانيهما، أما الصبيان اللذان قالا إنهما مسيحيان فذهبا لحضور الصلاة.

انتظرا حتى يعرفا ما سيحل بهما. لكن شيئاً لم يحدث. كانت أروقة المدرسة خاوية، وكان الصمت يخيم على المبنى، ولم يبق ولا معلم.

سارا نحو الملعب وانضمّا إلى الصبية الآخرين من الرعاع الذين طُلب إليهم عدم التوجه إلى الصلاة. كان موسم اللعب بالدحلات. وفي الصمت غير المألوف في الملعب الخاوي، ومع أصوات هديل الحمام المحلّق في السماء وأصوات الغناء الضعيفة التي تتناهى إليهم من بعيد، راحوا يلعبون الدحلات. مرّ الوقت. ثم قُرع الجرس معلناً انتهاء الصلاة. عاد بقية الصبيان من القاعة، وأخذوا يسيرون في أرتال منتظمة، كل حسب صفه. بدا بعضهم في مزاج سيئ. «جود!»، قال صبي أفريكاني مهسهساً عندما مرّ من أمامه: يهودي! وعندما دخل الجميع إلى صفوفهم ثانية لم تظهر على وجه أحد ابتسامة.

أزعجته هذه الحادثة. تمنّى أن يُطلب منه هو والصبية الآخرون الجدد أن ينضموا في اليوم التالي إلى اجتماع الصلاة وأن يُطلب منهم عمل اختيارات جديدة، لكي يتمكن من تصحيح

خطأه ويقول إنه مسيحي، لأنه بدا أنه ارتكب خطأ، لكن الفرصة لم تسنح له مرة أخرى.

كانت عملية الفرز والانتقاء بين الغث والسمين تتكرر مرتين في الأسبوع. ففي حين يُترك اليهود والكاثوليك وشأنهم، يتوجه المسيحيون إلى الصلاة لإنشاد التراتيل والاستماع إلى المواعظ. وانتقاماً، انتقاماً لما فعله اليهود بالمسيح، كان الصبية الأفريكانيون، الذين كانوا ضخام الجثة، وشديدي القساوة والبأس، يمسكون أحياناً بيهودي أو بكاثوليكي ويوجهون له لكمات قصيرة متلاحقة على ذراعه، أو يركلونه على خصيتيه، أو يلوون ذراعيه وراء ظهره إلى أن يتوسل ويطلب الرحمة. يصرخ الصبي وينشج: «أرجوكم!»، فيصرخون في وجهه: «يهودي! قذر!».

وفي أحد الأيام، وخلال استراحة الغداء، حصره صبيّان أفريكانيان واقتاداه إلى زاوية بعيدة من ميدان ملعب الركبي. كان أحدهما ضخماً وبديناً. توسل إليهما وقال: «أنا لست يهودياً. وعرض عليهما أن يدعهما يمتطيان دراجته، وأن يعيرهما دراجته خلال فترة بعد الظهر. وكلما هذر أكثر ابتسم الفتى البدين أكثر. كان من الواضح أنه كان يستمتع بذلك: التوسل، الإهانة.

أخرج الفتى البدين من جيب قميصه شيئاً، شيئاً بدأ يوضح السبب الذي جعلهما يقتادانه إلى تلك الزاوية الهادئة: يرقة خضراء متلوية. ثبّت الفتى ذراعيه وراء ظهره، وراح الفتى البدين يضغط بقوة على فكيه كي يفتح فمّه، ثم حشر اليرقة في فمه. بزقها ممزّقة وهي تنز بسائلها. ثم أخذ الفتى البدين بسحقها ويلطّخها على شفتيه، وهو يقول: «يهودي». مسح يده ونظفها فوق العشب.

اختار أن يكون رومياً كاثوليكياً، في ذلك الصباح الحاسم، بسبب روما. بسبب هوراشيوس ورفيقيه الاثنين، السيوف في أيديهم، والخوذات تتوج رؤوسهم، ونظرات الشجاعة التي لا تقهر

في عيونهم، يدافعون عن الجسر القائم على نهر التيبر ضد حشود الإتروسكانيين. وشيئاً فشيئاً يكتشف من الصبية الكاثوليك الآخرين ما معنى الروم الكاثوليك حقاً. فلم يكن للروم الكاثوليك علاقة بروما، بل حتى إنهم لم يسمعوا بهوراشيوس. بل كان الروم الكاثوليك يتوجهون لحضور الموعظة بعد ظهر كل يوم جمعة، ويذهبون للاعتراف، ويشاركون في العشاء الرباني. هذا كلّ ماكان يفعله الروم الكاثوليك.

حصره الفتية الكاثوليك الأكبر سناً في إحدى الزوايا وسألوه: هل ذهبت إلى الموعظة، هل ذهبت للاعتراف، هل شاركت في العشاء الرباني؟ الموعظة؟ الاعتراف؟ المشاركة؟ لم يكن يعرف حتى ماذا تعنيه هذه الكلمات. «كنت أفعل ذلك عندما كنت في كيب تاون»، يقول تهرباً. «أين؟»، يسألونه. لم يكن يعرف اسم أيّ كنيسة في كيب تاون، لكنهم لم يكونوا يعرفون هم كذلك. يقولون له بصيغة الأمر: «تعال إلى الموعظة يوم الجمعة». وعندما لم يذهب أبلغوا الكاهن بوجود طالب مرتد في الصف الثالث. نقلوا له رسالة من الكاهن تقول: يجب أن تحضر الموعظة. راوده شك في أنهم اختلقوا الرسالة بأنفسهم، لكنه بقي يوم الجمعة التالي في البيت، مختبئاً.

بدأ الفتية الكاثوليك الأكبر سناً يقولون له إنهم لا يصدقون رواياته بأنه كان كاثوليكياً في كيب تاون. لكن الآوان قد فات الآن، ولم يعد بوسعه أن يتراجع، فإذا قال: «لقد أخطأت، فأنا في حقيقة الأمر مسيحي»، فسيشعر بالخزي. أضف إلى أنه إذا كان عليه أن يتحمل تهكّم الأفريكان، واستجوابات الكاثوليك الحقيقيين، أفليست الحصتان الحرتان اللتان يحصل عليهما في الأسبوع جديرتين بذلك، فترات حرة يتجول فيها في ساحات الملعب الفارغة كما يشاء ويتحدث إلى الصبية اليهود؟

وفي عصر أحد أيام السبت، عندما أخلدت للنوم وِوستر التي كانت تخنقها حرارة قائظة، أخذ دراجته واتجه نحو شارع دروب.

كان يتحاشى عادة شارع دروب، بسبب وجود الكنيسة الكاثوليكية فيه. أما اليوم فقد كان الشارع خاوياً، ولم يكن يسمع فيه صوت سوى خرير الماء الجاري في الأخاديد. وبدون مبالاة اجتاز الكنيسة على دراجته، متظاهراً أنه لم يتطلع باتجاهها.

لم تكن الكنيسة كبيرة كما كان يتخيلها، بل كانت عبارة عن بناء واطئ فارغ يوجد في رواقها تمثال صغير: العذراء، وعلى رأسها وشاح، تضم طفلها إلى صدرها.

وصل إلى أسفل الشارع. ودّ أن يستدير ويعود ليلقي نظرة ثانية، لكنه خشي أن يخونه الحظ هذه المرة، أن يظهر الكاهن الذي كان يرتدي عادة رداء أسود ويلوّح له لكي يتوقف.

بدأ الصبية الكاثوليك يتذمرون منه ويبدون نحوه ملاحظات استهجان. كان المسيحيون يضطهدونه، أما اليهود فلم يكونوا يأبهون به. كانوا يتظاهرون بأنهم لا يلاحظون. وكان اليهود ينتعلون أحذية أيضاً. وكان ينتابه شيء من الإحساس بالراحة تجاه اليهود، فلم يكونوا على هذه الدرجة من السوء.

ومع ذلك، كان يتعين على المرء أن يحسب خطواته جيداً مع اليهود. إذ كان اليهود في كل مكان يهيمنون على البلاد. وكان الجميع يقولون ذلك، لا سيما خالاه، أخوا أمّه العازبان، عندما كانا يزورانهم. فقد كان نورمان ولانس يأتيان لزيارتهم في كلّ صيف، مثل الطيور المهاجرة، ومع ذلك، كانا نادراً ما يأتيان في الوقت نفسه. كانا ينامان على الأريكة، ينهضان في الساعة الحادية عشرة صباحاً، يجولان في البيت لساعات، وهما يرتديان نصف ثيابهما، أشعثان. وكان لكليهما سيارة. وفي بعض الأحيان كان يتمكن من إقناعهما بأن يخرجا في نزهة بعد الظهر، وكان يبدو

أنهما كانا يفضلان قضاء وقتهما يدخّنان ويحتسيان الشاي ويتحدّثان عن الأيام الخوالي. ثم كانا يتناولان عشاءهما، ويلعبان بعد العشاء البوكر أو الورق حتى انتصاف الليل مع أي شخص كانا يتمكنان من إقناعه بالسهر معهما.

كان يحبّ أن يستمع إلى أمّه وخاليه وهم يتحدثون للمرة الألف عن الأشياء التي حدثت لهم في طفولتهم في المزرعة. وكان يشعر بسعادة عارمة وهو يستمع إلى تلك القصص، وإلى الدعابات والضحكات التي كانت ترافقها. إذ لم يأت أصدقاؤه من عائلات فيها مثل هذه القصص، وهذا ما كان يجعله يشعر بأنه متميز عن الآخرين، فثمة مزرعتان وراءه، مزرعة أمّه، ومزرعة والده، والحكايات التي تتحدث عن هاتين المزرعتين. ومن خلال تلك المزرعتين كان يشعر بأن جذوره ضاربة في الماضي، وبأنه يملك شيئاً جوهرياً.

وكانت هناك مزرعة ثالثة أيضاً: مزرعة سكيبِرسكلوف الواقعة بالقرب من ويليستون. ولم تكن لأسرته جذور فيها، بل كانوا يعقدون قرانهم في هذه المزرعة. ومع ذلك، كانت سكيبِرسكلوف هامة له أيضاً، لأن جميع المزارع كانت مهمة، لكونها أماكن تعبق بالحرية والحياة.

وفي الحكايات التي كان نورمان ولانس وأمّه يروونها، كانت تمرّ شخصية اليهودي، التي تتسم بالمكر والدهاء، وكذلك الخداع وتحجر القلب والشعور، مثل ابن آوى. فقد كان اليهود من ودتشورن يأتون إلى المزرعة في كلّ سنة لشراء ريش النعام من جدّه. وكانوا قد أقنعوه بأن يتوقف عن تربية الصوف ويربي النعامات فقط. وقالوا له إن النعامات ستجعله غنياً. وذات يوم هبط سوق ريش النعام هبوطاً كبيراً، ورفض اليهود شراء الريش فأشهر

جدّه إفلاسه. وأفلس جميع من في المنطقة وسيطر اليهود على مزارعهم. هكذا كان اليهود يعملون، قال نورمان: يجب ألّا تأتمن يهودياً في حياتك.

لكن أباه كان يعترض على ذلك. إذ لم يكن يتحمّل أن يسمع ازدراءهم وسخريتهم منهم، لأنه كان يعمل عند شخص يهودي. فقد كان وولف هيلِر يملك شركة ستاندرد للتعليب التي يعمل فيها محاسباً. وفي الواقع كان وولف هيلِر هو من جلبه من كيب تاون إلى ووستر عندما فقد وظيفته الحكومية. وكان مستقبل عائلتهم يرتبط بمستقبل شركة ستاندرد للتعليب، التي أصبحت بعد سنوات قليلة بعد أن تملكها وولف هيلِر، إحدى أكبر الشركات في عالم التعليب. وكان أبوه يقول إنه توجد فرص رائعة في شركة ستاندرد للتعليب لشخص مثله، يملك مؤهلات قانونية.

لذلك كان وولف هيلِر مستثنى من الآراء العامة التي تطلق على اليهود، الذي كان يرعى العاملين عنده. بل كان يوزع عليهم هدايا في أعياد الميلاد، مع أن عيد الميلاد لم يكن يعني شيئاً لليهود.

ولم يكن يوجد لهيلِر أطفال في المدرسة في ووستر. هذا إذا كان لدى هيلِر أطفال على الإطلاق، ومن المفترض أنهم أُرسلوا إلى مدرسة سانت أندروز الكاثوليكية في كيب تاون، وهي مدرسة يهودية بجميع المعايير إلا اسمها. ولم تكن توجد في ريونيون بارك عائلات يهودية. فقد كان اليهود في ووستر يقطنون في الجزء القديم الأكثر خضرة والأكثر ظلالاً من البلدة. كان يوجد أولاد يهود في صفه، ولم يُدعَ قط إلى بيت أحدهم. فلم يكن يراهم إلا في المدرسة، وكان يتقرب منهم أكثر في أثناء فترات صلاة المسيحيين، عندما كان اليهود والكاثوليك يُعزلون ويتعرضون لانتقام المسيحيين.

إلا أن هذه الميزة التي كانت تتيح لهم شيئاً من الحرية بين

الحين والآخر خلال فترة صلاة المسيحيين بدأت تتلاشى، لأسباب غير واضحة، فقد بدؤوا يطلبون منهم الدخول إلى القاعة.

كانت القاعة مليئة دائماً، وكان الأولاد في الصفوف المتقدمة يحتلون المقاعد، فيما يملأ الصبية من الصفوف الأدنى الأرض. وكان اليهود والكاثوليك ـ ربما كان عددهم يصل إلى عشرين صبياً ـ ينسلّون بينهم، ويبحثون لأنفسهم عن مكان. وكانت الأيدي تتسلل خفية للإمساك بكواحلهم، مُحَاوِلةً إسقاطهم على الأرض.

وكان القس يقف على خشبة المسرح، وهو شابّ شاحب يرتدي بدلة سوداء وربطة عنق بيضاء. وكان يلقي موعظته بصوت عالٍ، بصوت غنائي، يمطّ الأحرف الصوتية الطويلة، ويلفظ كلّ حرف من كلّ كلمة بدقة شديدة. وفي نهاية الموعظة كان عليهم أن يقفوا للصلاة. ماذا يجب أن يفعل كاثوليكي عند الصلاة المسيحية؟ هل كان عليه أن يغلق عينيه ويحرك شفتيه، أم يتظاهر بأنه لم يكن موجوداً؟ ولم يكن يستطيع أن يرى أياً من الكاثوليك الحقيقيين يتخذ نظرة فارغة ويترك عينيه تخرجان عن دائرة التركيز.

وبعد ذلك كان القس يجلس، ويوزّع عليهم كتب الأناشيد، فقد حان وقت الإنشاد. ثم تتقدّم إحدى المعلّمات لقيادة الجوقة. وينشد الصغار: Al die veld is vrolik, al die voeltjies sing. ثم يقف التلاميذ في الصفوف الأعلى وينشدون بصوتهم العميق: Uit die blou van onse hemel. ويقفون باستعداد، ويحدّقون بصرامة إلى الأمام، النشيد الوطني، نشيدهم الوطني. بجدية، بعصبية، وينضم إليهم الأولاد الأصغر. وتنحني المعلمة وتطوّق ذراعيها كما لو كانت تغرف ريشاً، وتحاول رفع معنوياتهم وتشجيعهم، وينشدون: «سنلبّي نداءك».

وأخيراً انتهي كل ذلك. ونزل المعلمون من فوق المنصة، القس أولاً، ثم تبعه الآخرون. واصطف الأولاد خارج القاعة. تلقى ضربة

بقبضة في كليتيه، لكمة سريعة قصيرة، خفية. وهمس صوت «يهودي!». ثم خرج، أصبح حراً، أصبح بإمكانه أن يتنفّس هواء نقياً ثانية.

ورغم مخاوفه من الكاثوليك الحقيقيين، ورغم خشيته من قيام الكاهن بزيارة والديه وانفضاح أمره كان يشعر بالامتنان للإلهام الذي جعله يختار روما. كان ممتناً للكنيسة التي كانت تحميه. لم يشعر بالأسف على ذلك، ولم يشأ أن يتوقّف عن كونه كاثوليكياً. إن كونك مسيحياً كان يعني أن ترتل وتستمع إلى المواعظ ثم تخرج لتعذب اليهود، لذلك لم تعد لديه رغبة في أن يكون مسيحياً. ولم يكن ذنبه أن الكاثوليك في ووستر لم يكونوا من الروم الكاثوليك، إذا لم يكونوا يعرفون شيئاً عن هوراشيوس ورفاقه الذين يحملون الجسر على نهر التيبر (التيبر، الأب تيبر، الذي نصلي له نحن الروم)، وعن ليونيداس وأتباعة الاسبارطيين الذين ضحوا بأنفسهم في ثيرموبيلا، وعن رولند الذي حارب المسلمين في الحروب الصليبية. لم يفكّر بشيء بطولي أكثر من التضحية، فهل يوجد شيء نبيل أكثر من أن يضحي المرء بحياته لإنقاذ الآخرين. هذا ما كان يودّ أن يكونه: بطلاً. هذا ما كان يجب أن تكون عليه طائفة الروم الكاثوليك الصحيحة.

كان ذلك في إحدى أمسيات الصيف الرطبة بعد يوم حار طويل. كان في الحديقة العامة، يلعب الكريكت مع غرينبيرغ وغولدشتاين: غرينبيرغ، المتفوق في الصف والذي لم يكن يجيد لعبة الكريكت؛ وغولدشتاين، ذو العينين البنيتين الذي كان يرتدي صندلاً وثياباً أنيقة. كان الوقت متأخّراً، وقد تجاوزت الساعة السابعة والنصف. ولم يكن أحد سواهم في الحديقة. كان عليهم أن يتوقفوا عن اللعب؛ فقد خيم الظلام ولم يعد بإمكانهم رؤية الكرة. لذلك راحوا يلعبون المصارعة كما لو أنهم عادوا أطفالاً،

يتدحرجون فوق العشب، يدغدغ أحدهم الآخر، يضحكون ويقهقهون.

ثم نهض. أخذ نفساً عميقاً. اعتراه إحساس غامر بالغبطة. وقال لنفسه: «لم أشعر بسعادة أكثر من هذه في حياتي. أودّ أن أكون مع غرينبيرغ وغولدشتاين إلى الأبد».

افترقوا. صحيح أنه كان يريد أن يعيش هكذا طوال حياته، يركب دراجته ويقودها في شوارع ووستر العريضة والخاوية في غسق يوم صيفي، بعد أن يكون قد عاد جميع الأطفال الآخرين إلى بيوتهم، ويبقى هو وحده طليقاً في الخارج، كالملك.

5

أضحت كاثوليكيته جزءاً من حياته في المدرسة فقط. وكان تفضيله الروس على الأمريكيين سراً مصوناً، لا يمكن أن يفضي به لأحد. وكان حبه للروس أمراً في غاية الخطورة، قد يتعرض للنبذ من أجله.

وكان يحتفظ في صندوق يخبئه في خزانته بدفتر يضم رسوماً كان قد رسمها عندما كان في ذروة حبه للروس في سنة 1947. وكانت هذه الرسوم، المرسومة بقلم رصاص سميك وملونة بأقلام تلوين من الشمع تُظهر طائرات روسية تقذف طائرات أمريكية وهي محلقة في السماء، وسفن روسية تغرق سفناً أمريكية. ورغم انحسار الحماس الشديد الذي كان مستعراً في تلك السنة، عندما اندلعت فجأة موجة من العداء ضد الروس في المذياع، انحاز خلالها جميع أفراد المجتمع إلى أحد الطرفين، كان مايزال يحتفظ بولائه السري: ولائه للروس، الذي كان ولاء لنفسه إلى حد كبير، تماماً كما كان ولاؤه عندما رسم تلك الرسوم.

لم يكن أحد في ووستر يعرف أنه كان يحبّ الروس. وكان له صديق في كيب تاون يدعى نيكي، يلعب معه ألعاباً حربية باستخدام ألعاب من الجنود مصنوعة من الرصاص، ومدفع ذي نابض يطلق عيدان ثقاب. وعندما اكتشف مدى خطورة ولائه، والخسارة التي سيتكبدها إن هو انكشف أمره، جعل نيكي يقسم أولاً بأن يحافظ

على هذا السرّ الذي أفضى به إليه، ثم، ولكي يتأكد أكثر، قال له إنه غيّر ولاءه وأصبح يحبّ الأمريكيين الآن.

وفي ووستر كلها لم يكن أحد يحبّ الروس سواه. وقد جعله ولاؤه للنجمة الحمراء معزولاً عن الآخرين.

من أين أتاه هذا الافتتان، الذي جعله غريباً عن الاخرين؟ كان اسم أمّه فيرا: فيرا، بحرف V، مثل سهم يغوص إلى الأسفل. قالت له ذات مرة: إن فيرا اسم روسي. وعندما عرف أن الروس والأمريكيين خصمان، كان عليه أن يختار بينهما («من تحبّ: سميتس أم مالان؟ من تحبّ: سوبرمان أم كابتن مارفيل؟ من تحبّ: الروس أم الأمريكان؟»)، فاختار الروس كما كان قد اختار الروم: لأنه كان يحبّ حرف الراء، أقوى الحروف قاطبة.

لقد اختار الروس في سنة 1947، فيما اختار الآخرون الأمريكيين، وبما أنه اختارهم، أخذ يقرأ عنهم بنهم. فقد كان أبوه قد اشترى ثلاثة مجلدات عن تاريخ الحرب العالمية الثانية. أحبّ هذه المجلدات وانكبّ على قراءتها، وراح يتمعن في صور الجنود الروس وهم يرتدون بدلات التزلج البيضاء الرسمية، الجنود الروس وهم يحملون رشاشات صغيرة بين الخرائب والأبنية المهدمة في ستالينغراد، قادة الدبابات الروس وهم يحدّقون أمامهم من خلال مناظيرهم. (كانت دبابة تي 34 الروسية أفضل دبابة في العالم، أفضل من الدبابة الأمريكية شيرمان، بل وحتى أفضل من دبابة التايجر الألمانية)، وكان لا يتوقف عن التمعن في لوحة تصوّر طياراً روسياً وهو يحلق بقاذفته فوق رتل من الدبابات الألمانية المحترقة والمدمّرة. لقد تبنّى كلّ شيء روسي. تبنّى الفيلد مارشال ستالين المتجهم الوجه، لكن ذي الابتسامة الأبوية، أعظم قائد استراتيجي وأكثر قادة الحروب بعداً للنظر؛ تبنّى كلب البورزوي الرشيق، الكلب الروسي، أسرع الكلاب

جميعها. أصبح يعرف كلّ شيء يمكن معرفته عن روسيا: مساحتها بالأميال المربعة، إنتاجها من الفحم والفولاذ بالأطنان، طول كلّ نهر من أنهارها العظيمة، الفولغا، الدنيبير، الينيسي، الأوب.

ثم أتى الإدراك من رفض أبويه، من حيرة أصدقائه، مما قالوه عندما أخبروا أباءهم عنه: إن حبّ الروس لم يكن لعبة، فلم يكن يسمح له بذلك.

بدا له أن ثمة شيئاً يسير دائماً في الاتجاه الخاطئ. فمهما كان يريد، ومهما كان يحبّ، كان سيصبح سراً بالنسبة له، إن آجلاً أم عاجلاً. وبدأ يعتبر نفسه واحداً من تلك العناكب التي تعيش في فتحة في الأرض. إذ يجب على العنكبوت أن يسرع دائماً ويعود إلى فتحته، ويغلق على نفسه، ويتوارى بعيداً عن العالم.

في ووستر أخذ يكتم ماضيه عن روسيا ويحتفظ به سراً، ويخفي الدفتر الذي يضم الرسوم التي تصور مقاتلات العدو وآثار الدخان تتصاعد منها وهي تهوي محطمة إلى المحيط، والسفن الحربية وهي تغوص تحت الأمواج والذي سيُعَنَّف من أجله. ويستبدل الرسم بألعاب الكريكت الخيالية. فراح يستخدم مضرباً خشبياً وكرة تنس. وكان التحدي يتمثل في أن يبقي الكرة في الهواء أطول فترة ممكنة. ولساعات طويلة كان يدور حول طاولة غرفة الطعام وهو يضرب الكرة في الهواء. وكان يرفع جميع المزهريات والحلي، وفي كلّ مرّة كانت الكرة تضرب السقف، يتناثر غبار أحمر ناعم.

كان يلعب ألعاباً كاملة، فكان يضع أحد عشر لاعباً في كل طرف، ويقوم كلّ لاعب بضرب المضرب مرّتين. وتعتبر كلّ ضربة نقطة. وعندما كان نشاطه يفتر، ولا تصيب الكرة الهدف كان يخرج اللاعب، ويسجل نتيجته في بطاقة، وتتجمع نقاط كثيرة جداً:

خمسمائة نقطة، ستمائة نقطة. ذات مرة أحرزت إنكلترا ألف نقطة، وهو أمر لم يحققه فريق حقيقي من قبل. وكانت إنكلترا تحقق فوزاً، وأحياناً جنوب أفريقيا، أما أستراليا أو نيوزيلندا فنادراً ما تفوزان.

أما روسيا وأمريكا فكانتا لا تلعبان الكريكت. ففي حين كان الأمريكيون يلعبون البيسبول، كان يبدو أن الروس لا يلعبون شيئاً، ربما كان ذلك لأن الثلج يهطل هناك باستمرار.

ولم يكن يعرف ماذا يفعل الروس عندما لا يحاربون.

ولم يكن يحدّث أصدقاءه عن ألعاب الكريكت التي كان يختلقها، بل كان يبقيها سراً حتى يعود إلى البيت. وذات مرة، وأثناء الأشهر الأولى من إقامتهم في ووستر، مرّ أحد تلاميذ صفه من أمام الباب الأمامي المفتوح ووجده مستلقياً على ظهره تحت كرسي. سأله: «ماذا تفعل هناك؟» فأجاب على الفور: «إني أفكّر» وأردف: «إني أحبّ أن أفكّر». وسرعان ما عرف جميع الصبية في صفه بهذا الأمر، وأشيع أن الصبي الجديد كان غريب الأطوار، ولم يكن طبيعياً. ومن ذلك الخطأ تعلّم أن يكون أكثر حذراً. وتطلب منه هذا الحذر ألا يخبر أحداً عن نفسه إلا النذر اليسير.

كما كان يلعب الكريكت مع أي شخص يبدي استعداداً للعب معه. إلا أن لعب الكريكت في الساحة الخاوية في وسط حديقة ريونيون العامة كان شديد البطء ولم يكن يتحمل ذلك: وكانت الكرة تفلت من اللاعب دائماً، ولا يتمكن حارس النصيبة من صدها فتضيع الكرة. كان يكره البحث عن الكرات المفقودة. وكان يكره أن يكون لاعب الوسط أيضاً، يجري فوق الأرض الحجرية حيث تدمى يداه وركبتاه في كل مرة يقع فيها. كان يريد أن يقذف الكرة بالمضرب أو يدحرجها، هذا كلّ ما في الأمر.

كان يتودد إلى أخيه، رغم أن أخاه لم يكن يتجاوز السنوات

الست. وكان يعده بأن يدعه يلعب بألعابه إن هو دحرج له الكرة في حديقة البيت الخلفية. وكان أخوه يلعب معه بعض الوقت، لكنه سرعان ما يملّ وينقبض وجهه ويهرع إلى داخل البيت. حاول أن يعلمّ أمّه البولينغ، لكنها لم تتمكن من إتقان اللعبة. وكان عندما يثور حنقه يرتعش وهو يضحك من عدم اتقانها، لذلك كان يدعها ترمي له الكرة. وفي النهاية يصبح المشهد مخزياً إلى حد كبير، فمن الممكن أن يراه أحد من الشارع بسهولة: أمّ تلعب الكريكت مع ابنها.

كان يقطع علبة مربّى إلى نصفين، ويثبّت نصفها السفلي بمسامير إلى ذراع خشبي طوله قدمان. وكان يركّب الذراع على محور عبر أطراف علبة تعبئة، ويثقّلها بأحجار من الآجر. وكان يدفع الذراع إلى الأمام بوساطة شريط من مطاط دولاب داخلي، ثم يشد بحبل يمرّ عبر خطّاف على العلبة. وكان يضع كرة في الوعاء من الصفيح، ويخطو عشر ياردات إلى الوراء، ويشّد الحبل حتى يشتد المطاط بإحكام، وكان يضع الحبل تحت كعبه، ويتّخذ وضعية ضرب الكرة بالمضرب، ويفلت الحبل. كانت الكرة تنطلق أحياناً إلى السماء، وفي أحيان أخرى كانت تنطلق مباشرة إلى رأسه، لكنها كانت تطير أحياناً بالقرب منه فيتمكن من ضربها، ويشعر عندها بالرضا: كان يضرب الكرة بالمضرب ويدحرج الكرة وحده، لقد انتصر، لا يوجد شيء مستحيل.

وفي ذات يوم، طلب من غرينبيرغ وغولدشتاين أن يقوم كل واحد منهم برواية ذكرياته في الماضي. لكن غرينبيرغ اعترض وقال إنه لا يريد أن يلعب هذه اللعبة. أما غولدشتاين فقد حكى قصة طويلة وسخيفة عن ذهابه إلى الشاطئ، قصة بالكاد أصغى إليها. لأن اللعبة تشترط أن يدعه يسترسل في الكلام عن ذكرياته الأولى.

كان منحنياً من نافذة شقتهم في جوهانسبيرغ. وكان الظلام قد بدأ يخّيم. ومن بعيد رأى سيارة مسرعة في أسفل الشارع. كلب يجري من أمامها، كلب مرقّط صغير. تصدم السيارة الكلب: تسير عجلاتها فوق وسط الكلب. يبدأ الكلب يجر نفسه بعيداً، بعد أن شلت قائمتاه الخلفيتان وهو يئن ألماً. لا شك أنه سيموت، لكن في تلك اللحظة سحبه أحدهم بعيداً عن النافذة.

كانت ذاكرة مبكرة رائعة، تفوق كل ما رواه غولدشتاين المسكين. لكن هل كان ذلك صحيحاً؟ لماذا كان منحنياً من النافذة يراقب شارعاً خاوياً؟ هل رأى حقاً السيارة تصدم الكلب، أم أنه لم يسمع إلا عواء كلب، وهرع إلى النافذة؟ هل كان من الممكن أنه لم ير شيئاً سوى كلب يجر قائمتيه الخلفيتين، وقد اختلق بمخيلته السيارة والسائق وباقي القصة؟

وثمة قصة أخرى يتذكرها، قصة يثق أنها حدثت لكنه لم يكن يرغب في أن يحكيها لغرينبيرغ وغولدشتاين، اللذين سيشيعانها في المدرسة ويجعلانه مضغة في أفواه الجميع.

كان جالساً إلى جانب أمّه في حافلة. كان الطقس بارداً لأنه كان يرتدي ثوباً صوفياً أحمر وقبعة صوفية ذات كرة تتحرك إلى الأعلى والأسفل. محرّك الحافلة يصدر خريراً. كانوا يتجهون صعوداً في طريق سوارتبيرج الموحش والمقفر.

وكان يحمل في يده غلاف قطعة حلوى. مدّها خارج النافذة المفتوحة قليلاً. كانت تخفق وترتعش في الريح.

«هل أتركها؟»، سأل أمّه.

هزت رأسها. تركها تطير.

طارت قصاصة الورق إلى الأعلى. أما في الأسفل فلم يكن هناك سوى الهاوية المنحدرة بشدة والمحاطة بقمم الجبل الباردة.

ورفع نظره إلى الوراء، وألقى نظرة أخيرة إلى الورقة التي كانت ماتزال تطير بشجاعة.

«ماذا سيحدث لها؟»، سأل أمّه، لكنها لم تفهم.

كانت تلك الذاكرة الأولى الأخرى، السرّية. فلم يكفّ عن تذكر قصاصة الورق الوحيدة في ذلك الفضاء الشاسع، التي تخلّى عنها في الوقت الذي لم يكن يجب عليه أن يتركها. ذات يوم يجب أن يعود إلى طريق سوارتبيرج ويبحث عنها هناك وينقذها. كان ذاك واجبه؛ وكان يتمنى ألا يموت قبل أن يفعل ذلك.

كانت أمه تنظر بازدراء إلى الرجال الذين لا يحسنون استخدام أيديهم، ومنهم أبوه وإخوتها، لا سيما أكبر إخوتها رولاند، الذي كان بإمكانه أن يحتفظ بالمزرعة لو بذل جهداً أكبر، وتمكن من تسديد ديونه، إلا أنه لم يفعل ذلك. ومن بين العديد من الأعمام من طرف أبيه (إذ يوجد ثمانية أعمام بصلة الدمّ، وثمانية بطريق الزواج)، كان غوبيرت أوليفير أكثر الأشخاص الذين كانت تُكنّ لهم احتراماً، والذي قام بتركيب مولّد كهربائي في سكيبِرسكلوف، بل وحتى تعلّم طب الأسنان بنفسه (ففي إحدى زياراته إلى المزرعة كان أحد أسنانه يؤلمه، فأجلسه العمّ غوبيرت على كرسي تحت شجرة، ودون مخدّر راح يثقب الفجوة في فمه وحشاها بصمغ جاوة، ولم يكن قد تعرض إلى مثل هذه المعاناة من قبل).

وعندما كان ينكسر أي شيء في البيت ـ صحون، حلي، ألعاب ـ كانت أمّه تقوم بإصلاحها، وكانت إما تخيطها أو تلصقها بالغراء. أما الأشياء التي كانت تربطها فسرعان ما كانت تنفكّ لأنها لا تعرف شيئاً عن العقد. وكانت الأشياء التي تقوم بلصقها بالغراء تتفكك وتتساقط، فتنحو باللائمة على الصمغ.

وكانت الأدراج في المطبخ مليئة بالمسامير المعقوفة،

وبأشرطة طويلة، وبكرات من الرقائق المعدنية، وبطوابع قديمة. سألها ذات مرة: «لماذا نحتفظ بها؟»، فأجابت: «لعلنا نحتاج إليها ذات يوم».

وعندما كانت تغضب تبدأ تعيب وتندد بالتعليم وبقراءة الكتب، وكانت تقول إنه يجب أن يُرسل الأطفال إلى المدرسة المهنية، لينطلقوا بعدها إلى العمل. فالدراسة ليست سوى هراء وكلام فارغ. أما التعلّم الحقيقي فهو أن تتعلم لتصبح صانع خَزَّانَات، أو نجاراً، وأن تَعلُّم الأعمال الخشبية أفضل بكثير. وكانت تضيق ذرعاً بالزراعة: أما الآن، وبعد أن أصبح المزارعون أغنياء فجأة، أصبحوا كثيري التراخي والتكاسل والمباهاة والتفاخر.

وبسبب ارتفاع ثمن الصوف ارتفاعاً كبيراً، واستناداً إلى ما يقوله المذياع، كان اليابانيون يدفعون جنيهاً لقاء كلّ رطل من أفضل أنواع الصوف. وبدأ مربو الأغنام يشترون سيارات جديدة ويقضون إجازاتهم على الشاطئ. وفي إحدى زياراتهم إلى فولفونتاين قالت الأم للعمّ سون: «يجب أن تعطينا بعضاً من مالك بعد أن أصبحت ثرياً الآن».

كانت تبتسم وهي تتكلّم، متظاهرة بأنها تمزح، لكن الأمر لم يكن من باب الدعابة، فقد بدا العمّ سان محرجاً، وغمغم رداً لم يكن يفهمه.

كانت أمّه تقول إنه لا يجب أن تذهب المزرعة إلى العمّ سان وحده: فقد ورثها الأبناء والبنات الأحد عشرة بحصص متساوية. ولكي لا تباع في المزاد العلني وافق الأبناء والبنات على بيع حصصهم إلى سان، وبذلك حصل كلّ واحد منهم على حفنة من الجنيهات. أما الآن، وبسبب اليابانيين، أضحت المزرعة تساوي آلاف الجنيهات، وأصبح يتعين على سان أن يشاركهم في ماله.

كان يراوده شعور بالخجل من أمّه بسبب فجاجتها وفظاظتها عندما كانت تتكلم عن المال.

وما فتئت أمّه تقول له: «يجب أن تصبح طبيباً أو محامياً، فأولئك هم الذين يجمعون المال». لكنها كانت تردد في مرات أخرى إن جميع المحامين محتالون. ولم يكن يسألها كيف ينطبق ما تقوله على أبيه المحامي الذي لم يجمع مالاً قط طوال حياته.

وكانت تردد أن الأطباء لا يبالون بمرضاهم، ويعطون المريض حبوباً غير ذات فائدة. أما الأطباء الأفريكان فكانوا أسوأ حالاً، لأنهم لم يكونوا يتمتعون بالكفاءة أيضاً.

كانت تقول أشياء كثيرة في أوقات مختلفة إلى حد أنه أصبح يصعب عليه معرفة بماذا كانت تفكر حقاً. وكان هو وأخوه لا يكفان عن الجدال معها، يوضحان لها نقاط التناقض في كلامها. فإن كانت ترى أن المزارعين أفضل من المحامين فلماذا تزوّجت محامياً؟ وإن كانت تقول إن التعليم وقراءة الكتب هراء فلماذا أصبحت معلّمة؟ وكلما جادلاها أكثر ابتسمت، إذ كانت تجد متعة كبيرة في مهارة طفليها في استخدام الكلمات فكانت تتراجع في كلّ نقطة، ولا تكاد تدافع عن نفسها. فقد كانت تريدهما أن ينتصرا عليها.

أما هو فلم يكن يشاطرها متعتها تلك، ولم يكن يرى أن هذه المجادلات شيئاً مسلياً. وكان يريدها أن تؤمن بشيء، فقد كانت أحكامها الشاملة، الصادرة عن أمزجة متقلبة، تثير غضبه.

أما هو فربما أصبح معلّماً. ستكون تلك حياته عندما يكبر. ومع أنها كانت تبدو ضرباً من الحياة المملة، لكن هل كان ثمة شيء آخر؟ ولفترة طويلة كان يحلم بأن يصبح سائق قطار. «ماذا ستصبح عندما تكبر؟»، كانت عمّاته وأعمامه يسألونه. «سائق قطار!»، ويطلق زموراً، فيهزّ الجميع رؤوسهم ويبتسمون. أما الآن

فقد أصبح يفهم أن «سائق القطار» هو الشيء الذي يتوقع أن يقوله الأولاد الصغار جميعهم، تماماً كما تتوقع أن تسمع الفتيات الصغيرات يقلن «أريد أن أصبح ممرضة». لكنه لم يعد صغيراً الآن، بل أصبح ينتمي إلى عالم الكبار، وكان عليه أن يضع جانباً تخيلاته بأنه يقود قاطرة ضخمة، وأن يبدأ العمل في الأمور الواقعية. فقد كان متقدماً في مدرسته ويَبْزّ أقرانه، ولم يكن يعرف شيئاً آخر يمكن أن يبرع فيه، لذلك قرر أن يبقى في إطار المدرسة، ليرتقي في سلم المراتب الوظيفية، فلعله أصبح مفتشاً ذات يوم. لكنه لم يكن ليقبل بوظيفة يعمل فيها من الصباح حتى الليل، ولا يحصل فيها إلا على إجازة لا تتجاوز الأسبوعين في السنة.

ما نوع المعلّم الذي سيكونه؟ لم يستطع أن يكوّن صورة واضحة عن نفسه. رأى شخصاً يرتدي سترة رياضية وقميصاً رمادياً (يبدو أن هذا ما كان يرتديه المعلمون) يسير في بهو المدرسة، ويحمل كتباً تحت ذراعه. كانت مجرد لمحة خاطفة، واختفى على الفور. لم يستطع من تبين ملامح الوجه جيداً.

وعندما سيأتي ذلك اليوم كان يتمنى ألا يرسلونه ليعّلم في مكان مثل ووستر. لكن ربما كانت ووستر مطهِّراً يجب على المرء أن يجتازه. ربما كانت ووستر المكان الذي يرسل إليه الناس لاختبارهم.

ذات يوم طُلب من التلاميذ كتابة مقالة في الصف: «ماذا أفعل عندما أستيقظ في الصباح». وكان عليهم أن يكتبوا عن الأشياء التي يقومون بها قبل مجيئهم إلى المدرسة. كان يعرف ما كان متوقّعاً: كيف يرتّب سريره، كيف يغسل صحون طعام إفطاره، كيف يعد سندويشاته للغداء. ومع أنه لم يكن يقوم بأي من هذه الأشياء في الواقع ـ كانت أمّه تفعل له كلّ ذلك ـ راح يكذب كي لا يُكتشف أمره. لكنه ذهب أبعد شأواً من ذلك عندما راح يصف كيف ينظّف حذاءه، مع أنه لم ينظّف حذاءه من قبل قط. فقد قال في المقال الذي

كتبه: تستخدم الفرشاة لإزالة الأوساخ عنه، ثم يُطلى الحذاء بطبقة من اللميع. فوضعت الآنسة أوسثييزين علامة تعجّب زرقاء كبيرة على الهامش بجانب كلمة تنظيف الحذاء. شعر بالخجل، ودعا ربه ألا تطلب منه أن يخرج ويقرأ موضوعه أمام التلاميذ. وفي ذلك المساء أخذ يراقب أمه جيداً وهي تنظّف حذاءه، لكي لا يخطئ مرة أخرى.

كان يدع أمّه تنظّف له حذاءه، وكان يدعها تفعل له كلّ شيء تريد أن تفعله، لكن الشيء الوحيد الذي لم يعد يدعها تفعله هو أن تدخل معه إلى الحمّام وهو عارٍ.

كان يعرف أنه كان كذّاباً، وأنه كان فتى سيئاً، لكنه لم يتغيّر. لم يتغيّر لأنه لم يكن يريد أن يتغيّر. ربما كان اختلافه عن الأولاد الآخرين يربطه بأمّه وبعائلته غير الطبيعية، لكنه كان مقيّداً بكذبه كذلك. فلو أراد أن يتوقّف عن الكذب لتعين عليه أن يلمّع حذاءه، وأن يتكلّم بتهذيب، وأن يفعل كلّ ما كان يفعله الأولاد العاديون. لكنه إذ فعل ذلك فلن يكون هو ذاته. وإذا لم يكن هو ذاته فما فائدة العيش؟

كان كذّاباً وغير مبال أيضاً: كذّاب إزاء العالم بصورة عامة، وغير مبالٍ إزاء أمّه. كان ذلك يجعل أمّه تتألم، وكان يرى أنه يبتعد عنها باستمرار. لكنه رغم ذلك، كان يقسّي قلبه ولا يلين. وكان عذره الوحيد أنه كان متحجر القلب لنفسه أيضاً. كان يكذب لكنه لم يكن يكذب على نفسه.

سألها ذات يوم: «متى ستموتين؟» متحدياً إياها، فدهشت من جرأته.

وأجابته: «لن أموت». تكلّمت ببشاشة، لكن كان ثمة شيء مصطنع في طلاقة محياها.

«ماذا لو أصبتِ بالسرطان؟»

«لا يصاب المرء بالسرطان إلا إذا ضُرب على الصدر. وأنا لن أصاب بالسرطان. سأعيش إلى الأبد. لن أموت».

كان يعرف لماذا تقول ذلك. كانت تقول ذلك له ولأخيه كي لايقلقا. كان قول ذلك شيئاً سخيفاً، لكنه كان يشعر بالامتنان لها.

لم يكن يستطيع أن يتخيلها وهي ميتة، فقد كانت أكثر الأشياء صلابة في حياته. كانت الصخرة التي يقف عليها، وبدونها يصبح لا شيء، مجرد نكرة.

كانت تحرص على حماية صدرها كي لا يصطدم بشيء. وكانت ذاكرته الأولى تدور حول صدرها الأبيض، حتى قبل أن يتذكر الكلب، وقبل أن يتذكر قصاصة الورق. كان يخشى أن يكون قد آذاهما عندما كان رضيعاً، أن يكون قد ضربهما بقبضتيه، وإلا لما حرمته منهما الآن بوضوح، هي التي لم تكن تحرمه من أي شيء آخر.

كان السرطان هاجسها الأكبر في حياتها. أما هو فقد تعلم أن يكون حذراً عندما كان يلمّ به ألم في خاصرته، وكان يعتبر كلّ وخزة دليلاً على وجود التهاب في الزائدة الدودية. هل ستتمكن سيارة الإسعاف من إيصاله إلى المستشفى قبل أن تنفجر زائدته الدودية؟ هل سيصحو من المخدّر؟ لِمَ لَمْ يكن يحبّ أن يفكر بأن طبيباً غريباً سيفتح شقاً في جسده. أما من الناحية الأخرى فلم يكن يمانع من أن تكون لديه ندبة يريها للناس. لذلك عندما كان يُوزّع عليهم الفستق والزبيب خلال فترة الاستراحة في المدرسة كان يحرص على إزالة قشرة الفستق الحمراء الهشة، لاعتقاده بأنها كانت تتجمع في الزائدة الدودية وتتقيح هناك.

كان ينكبّ على مجموعاته... فقد كان يجمع الطوابع، ويجمع جنوداً من الرصاص، وبطاقات - بطاقات عن لاعبي الكريكت الأستراليين، وبطاقات عن لاعبي كرة القدم الإنكليز، وبطاقات عن

سيارات العالم. ولكي يحصل على هذه البطاقات، كان عليه أن يشتري علب سجائر مصنوعة من الحلوى والسكر المطحون، ذات الأطراف المصبوغة باللون الوردي. كانت جيوبه مملوءة دائماً بالسجائر الذابلة الدبقة التي نسي أن يتناولها.

كان يمضي ساعات طويلة يلعب بمجموعة ميكانو، ليثبت لأمّه أنه بارع في استخدام يديه أيضاً. فقد كان يبني طاحونة بمجموعات من البكرات المتلاصقة، التي كانت تستطيع أن تحرك شفراتها بسرعة كبيرة عندما تهبّ نفحة من الهواء في الغرفة.

كان يجري خبباً حول الباحة وهو يرمي كرة الكريكت في الهواء ويتلقفها قبل أن ترتطم بالأرض. ماهو المسار الصحيح للكرة: هل كانت تنطلق إلى الأعلى باستقامة وإلى الأسفل كذلك كما كان يراها؟ أم أنها كانت تعلو وتهبط في حلقات، كما كان يمكن أن يراها مشاهد ثابت في مكانه؟! وعندما كان يحدّث أمّه حول أمور كهذه كان يرى اليأس في عينيها: كانت تعرف أن هذه الأشياء مهمة، وكانت تريد أن تفهم السبب، لكنها لم تكن تستطيع. ومن جهته كان يتمنّى أن تبدي اهتمامها بالأشياء بحد ذاتها، لا لمجرد أنها كانت تثير اهتمامه.

وعندما كان يطرأ عطل ويتعين إصلاحه، ولم يكن بمقدرته أن يفعله هو، مثل إصلاح حنفية يرشح منها الماء، كانت أمّه تأتي برجل ملوّن من الشارع، أيّ رجل، أيّ عابر سبيل. وكان يسألها حانقاً عن سبب ذلك، هل لأنها كانت تثق بالملوّنين؟ فكانت تجيب لأنهم معتادون على العمل اليدوي. لأنهم لم يذهبوا إلى المدارس، لأنهم لم يتعلموا من الكتب، وكأنها تريد أن تقول: إنهم يعرفون كيف تُعمل الأشياء في العالم الحقيقي.

وكان من السخف حقاً أن يعتقد المرء بذلك، وخاصة عندما تبين له أنه لم يكن لدى هؤلاء الغرباء فكرة عن كيفية إصلاح

الصنبور أو إصلاح الموقد. ومع ذلك كان ذلك يختلف كثيراً عمّا يعتقد به الآخرون. ومن الغرابة أنه كان يجد ذلك أمراً محبباً رغماً عنه. فقد كان يفضّل أن تتوقّع أمّه العجائب من الملوّنين على ألّا تتوقع منهم شيئاً البتة.

لم يتوقف عن محاولة فهم أمّه. فما برحت تقول إن اليهود مستغلون جشعون، مع أنها كانت تفضّل الذهاب إلى الأطباء اليهود لأنهم يعرفون ماذا يفعلون كما كانت تقول. أما الملوّنون فكانوا ملح الأرض، على حد قولها، ورغم ذلك لم تكن هي وأخواتها يتوقفن عن الثرثرة عن الأشخاص الذين يزعمون أنهم من البيض وذوي خلفيات ملوّنة يخفونها. لم يكن يستطيع أن يفهم كيف يمكن أن تؤمن بكلّ هذه المعتقدات المتناقضة في وقت واحد. إلا أنه كان لديها على الأقل معتقدات، وكذلك إخوتها. فقد كان أخوها نورمان يؤمن بالراهب نوستراداموس ونبوءاته حول نهاية العالم، وكان يؤمن بالصحون الطائرة التي تهبط ليلاً وتخطف الناس. ولم يكن يتصور أن أباه أو عائلة أبيه يمكنهم أن يتحدثوا عن نهاية العالم، بل كان كل هدفهم في الحياة ينحصر في تفادي الخلافات، وعدم الإساءة لأحد، وأن يكونوا لطفاءَ ومحبوبين على الدوام. وبالمقارنة مع عائلة أمّه كانوا تافهين ومملّين.

كان شديد القرب من أمّه، وكانت أمّه شديدة القرب منه. لذلك ورغم الصيد وجميع الأشياء الرجولية الأخرى التي كان يقوم بها في أثناء زياراته إلى المزرعة، لم تضمه عائلة والده إلى صدرها ولا مرة واحدة. ولعل جدته كانت شديدة القسوة عندما حرمتهم هم الثلاثة من السكنى في بيت عندما كانوا يعيشون في عام 1944 على نصف راتب نائب عريف، وكانوا يعانون من فقرٍ شديد إلى حد أنه لم يكن بوسعهم شراء الزبدة أو الشاي، إلا أنَّ إحساسها الغريزي كان سليماً. إذ لم تكن عائلته، بقيادة جدته، تجهل سرّ البيت رقم 12، جادة شجرة الحور، الذي يأتي فيه الطفل الأكبر في المقام الأول

في الأسرة، ويأتي الطفل الثاني في المقام الثاني، ثم يأتي الرجل وهو الزوج والأبّ في المرتبة الأخيرة. فإما أنَّ أمه كانت لا تعبأ بإخفاء هذا الأمر عن العائلة، أو أن أباه كان يتذمر من ذلك سراً. وفي إفساد هذا النظام الطبيعي كانوا يجدون شيئاً مهيناً لابنهم وأخيه. وكانوا يستنكرون ذلك، ولم يكونوا يخفون استياءهم واستهجانهم من ذلك.

وعندما كانت أمّه تتشاجر مع أبيه وتريد أن تسجّل نقطة عليه، كانت تتذمر بمرارة كيف تعاملها عائلته ببرود. وكانت تفعل ذلك في الغالب ـ من أجل ابنها، لأنها كانت تعرف مدى أهمية المزرعة في حياته، لأنه لم يكن لديها ما تقدمه له غير المزرعة ـ لذلك كانت تحاول أن تتملقهم بطريقة كان يعتبرها مقيتة. وكانت جهودها تلك تتوافق مع دعاباتها عن المال التي لم تكن مجرد مزاح. لم يكن لها كرامة، أو بتعبير آخر: كانت مستعدة لأن تفعل أيّ شيء من أجله.

كان يتمنّى أن تكون طبيعية؛ فلو كانت طبيعية لأصبح طبيعياً هو الآخر.

وكان الشيء ذاته ينسحب على أخواتها، اللاتي كان لكل منهن ولد واحد، ابن وحيد، كنَّ يُحطنه برعاية خانقة. وكان ابن خالته جوان في جوهانسبيرغ أعزّ أصدقائه في العالم. فقد كان يكتب أحدهما إلى الآخر، وكانا ينتظران قدوم العطل بفارغ الصبر ليمضياها معاً على البحر. ورغم ذلك لم يكن يحبّ أن يرى جوان يطيع أمّه في كلّ شيء بخجل واستحياء، حتى لو لم تكن معه وتراه. ومن بين الأبناء الأربعة جميعهم كان هو الوحيد الذي لم ينضوِ تحت إمرتها تماماً. لقد انسلخ، أو كان شبه منسلخ: فقد كان له أصدقاؤه الذين اختارهم بنفسه، وكان يخرج على دراجته دون أن يخبر أحداً إلى أين سيذهب أو متى سيعود. أما أبناء خالاته وأخوه فلم يكن لديهم أصدقاء، وكانوا خجولين شاحبين، يقبعون دائماً

في البيت تحت أعين أمهاتهم الشديدات. وكان أبوه يطلق على الأمهات الأخوات اسم «الساحرات الثلاث». وكان يستشهد بمسرحية ماكبث: «زوجاً، زوجاً، غمّاً ونكداً» مبتهجاً ويضحك.

وعندما كانت أمّه تتحدث بمرارة عن حياتها في ريونيون بارك كانت تقول كم كانت تتمنّى لو أنها تزوّجت بوب بريتش. لم يكن يأخذ كلامها مأخذ الجد، وفي الوقت نفسه لم يكن يستطيع أن يصدّق أذنيه. فلو كانت قد تزوّجت بوب بريتش فأين كان سيصبح؟ ومن كان سيكون؟ هل سيصبح ابن بوب بريتش؟ هل سيكون طفل بوب بريتش؟

لم يعثر إلا على دليل واحد يشير إلى وجود بوب بريتش. فقد رآه بالمصادفة في أحد الألبومات التي كانت تحتفظ بها أمّه: صورة غير واضحة لشابّين يرتديان سراويل بيضاء طويلة، وسترات داكنة، يقفان على الشاطئ وذراع أحدهما على كتف الآخر، ينظران بعيون نصف مغمضة نحو الشمس. وقد تعرّف على أحدهما: والد جوان. ومن هو هذا الرجل الآخر؟ سأل أمّه بتكاسل. فأجابت: إنه بوب بريتش. وأين هو الآن؟ فقالت لقد مات.

يمعن النظر في وجه بوب بريتش المتوفى. لا يستطيع أن يرى شيئاً يشبهه.

لم يستفسر عن المزيد. لكنه عندما استمع إلى ما قالته خالاته، وفكّر في الأمر ملياً، عرف أن بوب بريتش كان قد قدم إلى جنوب أفريقيا بسبب سوء صحته، ثم عاد إلى إنكلترا بعد سنة أو سنتين، ومات هناك. لقد مات بالسّل، إلا أنه استشف من كلامهن أنه عاد إلى بلده كسير القلب، ولعل ذلك ساهم في تعجيل أجله. قلب محطم بسبب معلّمة المدرسة الشابة ذات الشعر الأسود، والعينين السوداوين اليقظتين، التي التقى بها في خليج بليتينبيرج، والتي رفضت الاقتران به.

كان مغرماً في تصفّح ألبومات الصور. ولم يكن يبالي إن لم كانت الصورة واضحة أم لا. وكان بوسعه دائماً أن يعرف أمّه من بين مجموعة الأشخاص فيها. المرأة التي كان يميّز فيها نظرتها الخجولة، المحافظة، التي كانت نسخة أنثوية عن نظرته هو. وكان يعود في ألبومات الصور بحياتها إلى العشرينات والثلاثينات من القرن العشرين: أولاً الصور الجماعية (الهوكي، التنس)، ثم الصور عن رحلتها في أوروبا: أسكوتلندا والنرويج وسويسرا وألمانيا وأدنبرة وجبال الألب وبنجين على ضفاف الراين. ومن بين الأشياء التذكارية التي كانت تحتفظ بها قلم رصاص كبّاس من بنجين، ذو فتحة متناهية في الصغر في طرفه يُظهر مشهد قلعة جاثمة على منحدر.

وكانا أحياناً يتصفّحان كلاهما ألبومات الصور معاً. وكانت تطلق آهة وتقول كم كانت تتمنى أن تزور أسكوتلندا مرة أخرى: المروج والأزهار البرية. وكان يقول لنفسه: كان لديها حياة قبل أن أولد. كان سعيداً من أجلها، إذ لم يعد لها حياة.

إنَّ أوروبا التي كانت تتحدث عنها تختلف تماماً عن أوروبا التي كان يراها في ألبوم صور أبيه، التي يتخذ فيها الأفريكانيون الذين كانوا يرتدون بدلات الكاكي أوضاعاً مختلفة أمام أهرامات مصر، أو أمام آثار المدن الإيطالية. لكنه كان يمضي أمام هذا الألبوم وقتاً وهو يتفرج على الصور أقل مما كان يمضيه في قراءة المنشورات المبعثرة معها، المنشورات التي كانت الطائرات الألمانية تلقيها على مواقع الحلفاء، التي كانت إحداها تعلّم الجنود كيف يحصلون على درجة حرارة أعلى (بتناول الصابون)، وأخرى تصوّر امرأة فاتنة جاثمة فوق ركبة رجل يهودي بدين ذي أنف معقوف، يحتسيان الشمبانيا. ويسأل التعليق: «هل تعرف أين زوجتك هذه الليلة؟» ثم هناك النسر المصنوع من الخزف الأزرق الذي عثر عليه أبوه بين خرائب بيت مهدم في نابولي وجلبه معه.

نسر الإمبراطورية الجاثم الآن فوق طاولة المكتب في غرفة الجلوس.

كان يشعر بفخر شديد لمشاركة أبيه في الحرب. وانتابته الدهشة والبهجة عندما تبين له أن عدداً قليلاً من آباء أصدقائه كانوا قد خاضوا الحرب. ولم يكن يفهم لماذا كان أبوه مجرد نائب عريف: وعندما كان يعيد رواية مغامرات أبيه على أسماع أصدقائه، كان يحرص على حذف كلمة نائب. لكنه كان معجباً بالصورة المأخوذة داخل استوديو في القاهرة، تصوّر أباه الوسيم وهو ينظر إلى فوهة بندقية. وكانت إحدى عينيه مغمضتين، وشعره ممشّطاً بمهارة وعناية، وقبعته محشورة بطريقة نظامية تحت كتّافيتيه.

كان أبوه وأمّه يختلفان دائماً حول الألمان. فقد كان أبوه يحبّ الإيطاليين (وكان يقول إن قلبهم لم يكن في القتال، وإن كلّ ما كانوا يريدونه الاستسلام والعودة إلى وطنهم)، لكنه كان يكره الألمان. وما انفكّ يروي قصة رجل ألماني أُطلقت عليه النار بينما كان جالساً في المرحاض. وفي القصة، كان أبوه من أطلق النار على الألماني في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى، كان صديقاً آخر هو من أطلق عليه النار. وفي كلتا الروايتين لم يكن يبدِ أيّ شفقة أو رحمة، بل كان يبدي متعة كبيرة وهو يتحدث عن سلوك الألماني المضطرب وهو يحاول أن يرفع يديه وسرواله في وقت واحد.

وكانت أمّه تعرف أيضاً أن امتداح الألمان علناً لم يكن بالأمر الجيد، لكنها كانت في بعض الأحيان، عندما كان يهاجمها هو وأبوه، كانت تنسى كياستها وحرصها وتقول: «الألمان أفضل شعب في العالم، وإنه لشيء فظيع أن هتلر سبب لهم معاناة كبيرة».

غير أن أخاها نورمان لم يكن يوافقها على ذلك وكان يقول: «لقد منح هتلر الألمان العزة والافتخار بأنفسهم».

وكانت أمّه ونورمان قد جالا في أرجاء أوروبا في الثلاثينات: لا في النرويج ومرتفعات أسكوتلندا فقط، بل في ألمانيا كذلك، ألمانيا هتلر. فأسرتاهما ـ آل بريتشرز، وآل دو بيل ـ كانتا من ألمانيا، أو على الأقل من بوميرانيا، التي تقع في بولندا الآن. هل من الجيد أن تكون من بوميرانيا؟ لم يكن متأكداً من ذلك، لكنه بدأ يعرف على الأقل موطنه الأصلي.

لم يكن الألمان يريدون محاربة الأفريكان. فقد كان نورمان يقول: «إنهم يحبّون الأفريكان. ولولا الجنرال سمتس لما شاركنا في الحرب ضد ألمانيا. كان الجنرال سمتس محتالاً، مخادعاً، وقد باعنا إلى البريطانيين». ولم يكن نورمان وأبوه يحبّ أحدهما الآخر. وعندما كان أبوه يريد أن ينتقد أمّه حين يتشاجران في المطبخ والوقت متأخر ليلاً، كان يعيّرها بأخيها الذي لم ينخرط في الجيش، بل انضم إلى منظمة أوسيوا براندواج، فكانت تصيح غاضبة: «هذا كذب. لم ينضم نورمان إلى منظمة أوسيوابراندواج. إسأله بنفسك، وهو سيقول لك».

وعندما سأل أمّه ما هي أوسيوا براندواج، قالت كانت مجرد مجموعة من الأشخاص تخرج إلى الشوارع حاملة مشاعل.

وكانت أصابع يد نورمان اليمنى صفراء بسبب النيكوتين. وكان يقيم في غرفة بأحد الفنادق في بريتوريا، حيث أقام عدة سنوات. وكان يجمع مالاً من بيع كتيب يقوم بتأليفه عن المصارعة اليابانية، كان يُعلن عنه في صفحات إعلانات صحيفة أنباء بريتوريا. وكان الإعلان يقول «تعلّم فن الدفاع عن النفس الياباني. ستة دروس سهلة فقط»، وكان الناس يرسلون له حوالات بريدية بقيمة عشرة شلنات فيرسل لهم الكتيب: صفحة واحدة مثنية أربع

طيات، وفيها رسوم تصور مختلف المسكات والوضعيات. وعندما لم تكن المصارعة اليابانية تجلب له مالاً كافياً، كان يبيع قطعاً من الأراضي بالعمولة لصالح أحد المكاتب العقارية. وكان يمكث في سريره حتى الظهيرة يومياً، يحتسي الشاي، ويدخن ويقرأ قصصاً في مجلة أرغوسي وليليبوت. وبعد الظهر كان يلعب التنس. وأصبح في سنة 1938، منذ اثني عشر عاماً بطل الإقليم الغربي لفردي الرجال. وكانت ماتزال لديه طموحات في أن يلعب في ويمبلدون، في مباريات الثنائي، إذا تمكن من إيجاد شريك له.

وعند انتهاء زيارته، وقبل عودته إلى بريتوريا، كان نورمان ينتحيه جانباً، ويدسّ في جيب قميصه ورقة نقدية بقيمة عشرة شلنات، ويدمدم قائلاً: «لتشتري بها آيس كريم». الكلمات ذاتها التي ما فتئ يرددها كلّ سنة. كان يحبّ نورمان، لا للمبلغ الذي كان يعطيه له ـ فقد كانت الشلنات العشرة مبلغاً كبيراً من المال ـ بل لأنه كان يتذكر ذلك، ولم ينس ولا مرة واحدة.

أما أبوه فكان يفضّل أخاه الآخر، لانس، معلّم المدرسة من كينغ ويليامز تاون الذي التحق بالجيش. وكان هناك الأخ الثالث أيضاً، الأكبر سناً، الأخ الذي فقد المزرعة، إلا أن أحداً لم يكن يذكره إلا أمّه. فقد كانت تدمدم قائلة: «رولاند المسكين»، وتهّز برأسها. وكان رولاند قد تزوّج امرأة تسمي نفسها روزا راكوستا، ابنة دوق بولندي منفي، إلا أن اسمها الحقيقي استناداً إلى نورمان كان صوفي بريتوريوس. وكان نورمان ولانس يكرهان رولاند بسبب المزرعة، ويحتقرانه لأنه كان تحت هيمنة زوجته صوفي. وكان رولاند وصوفي يديران نزلاً في كيب تاون، وكان قد ذهب لزيارته ذات مرة مع أمّه. وتبين له أن صوفي امرأة شقراء بدينة ضخمة الجثة، ترتدي ثوباً حريرياً في الساعة الرابعة عصراً، وتدخن سجائر بواسطة مبسم. أما رولاند فكان رجلاً هادئاً ذا

وجه حزين وأنف أحمر منتفخ بسبب علاجه بالراديوم الذي عالجه من السرطان.

وكان يجد متعة كبيرة عندما يدور حديث سياسي بين أبيه وأمّه ونورمان. كان يستمتع بحرارة الحديث، وبالأشياء المتهوّرة التي كانوا يقولونها. وكان يستغرب أن أباه، الشخص الذي لم يكن يريده أن يفوز، كان الشخص الذي يتفق معه في أرائه: بأن الإنكليز جيدون، والألمان سيئون، وأن الجنرال سمتس جيد، وأن عائلة نات سيئة.

فقد كان أبوه يحبّ الحزب الاتحادي، ويحبّ الكريكت والركبي، ومع ذلك لم يكن يحبّ أباه. لم يكن يفهم حقيقة هذا التناقض، لكنه لم يكن يبدي أي اهتمام لكي يفهم ذلك. فقد قرّر ألا يحبه حتى قبل أن يعرفه، أي قبل أن يعود من الحرب. لقد كانت الكراهية مجرّدة: إذ لم يكن يريد أن يكون له أبّ، أو على الأقل لم يكن يريد أباً يبقى معه في البيت نفسه.

كان أكثر شيء يكرهه في أبيه عاداته الشخصية. فقد كان يكرهها إلى درجة أن مجرد التفكير فيها كان يجعله يرتعش بنفور وكره: صوته العالي عندما يمخط في الحمّام في الصباح، رائحة صابون لايف بوي التي يخلفّها وراءه، بالإضافة إلى آثار الرغوة والشعيرات المحلوقة المتبقية في المغسلة. والأكثر من كل ذلك كان يكره الرائحة التي كانت تفوح من أبيه. لكنه كان من الناحية الأخرى، يحبّ، رغماً عن نفسه، ثياب أبيه الأنيقة، ربطة عنقه الكستنائية اللون التي كان يضعها صباح كل يوم سبت، وأناقته، وطريقته السريعة في المشي، وشعره المطلي بالبريل كريم. كان يدهن شعره بالكريم فيجعل شعره متلألئاً، وكانت له غرّة.

كان يكره الذهاب إلى الحلاق، وكان يمقت ذلك إلى حدّ أنه أصبح يحاول أن يقصّ شعره بنفسه، رغم النتائج المحرجة. وكان

يخيّل إليه أن جميع حلاقي ووستر اتفقوا على قص شعر الأولاد بشكلٍ قصيرٍ. إذ كانت عملية الحلاقة تبدأ بقسوة بآلة الحلاقة الكهربائيةّ، وهي تجزّ شعره من الخلف ومن الجانبين، ثم يلي ذلك نقرات المقصّ السريعة التي لا ترحم، حتى لا تبقى سوى جذامات من الشعر تشبه الفرشاة، وربما كانوا يبقون على خصلة من الشعر في المقدمة. وحتى قبل أن تنتهي هذه العملية كان يبدأ يتلوّى خجلاً. يدفع شلنه ويهرع بسرعة إلى البيت. وكان يخشى الذهاب إلى المدرسة في اليوم التالي، يخشى التعليقات الساخرة التي كان يُستقبل بها كلّ فتى حلق شعره مؤخراً. فهناك قصات شعر جيدة، وهناك قصات الشعر التي كان المرء يعاني منها في ووستر، المشحونة بانتقام الحلاقين. لم يكن يعرف إلى أين يذهب، وماذا يجب أن يفعل أو ماذا يجب أن يقول، وكم كان على المرء أن يدفع للحصول على قصة شعر جيدة.

6

مع أنه كان يرتاد السينما بعد ظهر كلّ يوم سبت، لم تعد الأفلام تروق له كتلك التي كان يشاهدها في كيب تاون. فقد كانت تنتابه كوابيس مرعبة عن مصاعد تسحقه، أو أنه يرى نفسه يهوي من فوق منحدر مثل أبطال الأفلام. ولم يكن يعرف لماذا كان يفترض أن يكون إرول فلين ممثلاً عظيماً، سواء أدى دور روبن هود أو دور علي بابا. فقد سئم المطاردات على ظهور الخيل، التي كانت تبدو جميعها ذاتها. وبدأ الفرسان الثلاثة يبدون له سخفاء للغاية، وأصبح يصعب عليه أن يصدق طرزان، بسبب تغيير الممثل الذي كان يؤدي دور طرزان باستمرار. أما الفيلم الوحيد الذي ترك أثراً كبيراً في نفسه كان الفيلم صعدت فيه إنغريد بيرغمان عربة قطار موبوءة بالجدري ولقيت حتفها. وكانت إنغريد بيرغمان الممثلة الأثيرة لدى أمّه. هل الحياة هكذا؟ هل يمكن أن تموت أمّه في أية لحظة لمجرد أنها لم تقرأ لافتة ملصقة على إحدى النوافذ؟

وكان هناك أيضاً المذياع. فقد كبر على برنامج «ركن الأطفال»، لكنه كان يحرص على الاستماع إلى المسلسلات: سوبرمان في الساعة الخامسة من مساء كل يوم (إلى الأعلى! إلى الأعلى وبعيداً)، ماندريك الساحر في الساعة الخامسة والنصف. وكانت قصته الأثيرة «إوزّة الثلج»، التي كتبها بول غاليكو، والتي كانت تعيد محطة A بثها مراراً وتكراراً، استجابة لطلبات

المستمعين. وهي قصة إوزّة برّية تقود المراكب من شواطئ دنكيرك إلى دوفر. وكان يستمع إليها والدموع تطفح من عينيه. كان يريد أن يصبح ذات يوم مخلصاً مثل إوزّة الثلج.

وكانوا يمثلوّن قصة جزيرة الكنز في المذياع بطريقة ممسرحة، حلقة كلّ أسبوع لمدة نصف ساعة. وكانت لديه نسخته من قصة جزيرة الكنز. لكنه كان قد قرأها عندما كان صغيراً جداً، ولم يكن يفهم آنذاك وظيفة الرجل الأعمى والبقعة السوداء، ولم يكن يفهم إن كان لونغ جون سيلفر جيداً أم سيئاً. أما الآن، وبعد كلّ حلقة تذاع في المذياع، فكانت تنتابه كوابيس تدور حول لونغ جون، وحول العكاز الذي كان يقتل به الناس، وحول اهتمامه الشديد والغادر بجيم هاوكينس. وكان يتمنّى أن يقوم سكاوير تريلوني بقتل لونغ جون، بدلاً من أن يتركه يذهب وشأنه: وكان واثقاً من أنه سيعود ذات يوم مع أتباعه المتمردين القساة للانتقام له، تماماً كما كان يعود في أحلامه.

أما أسرة روبنسن السويسرية فقد كانت تدخل في نفسه الراحة والبهجة أكثر بكثير من القصص الأخرى. وكانت بحوزته طبعة ممتازة من الكتاب المليء بالرسوم الملونة. وكان يحبّ بصورة خاصة صورة السفينة الراسية تحت الأشجار، السفينة التي شيدتها الأسرة بأدوات حصلوا عليها من الحطام، ليعودوا إلى وطنهم بصحبة جميع حيواناتهم، مثل سفينة نوح. وكان تجاوز جزيرة الكنز ودخول عالم الأسرة السويسرية أمراً في غاية المتعة، كالانزلاق إلى حمّام دافئ. ففي قصة الأسرة السويسرية لم يكن هناك أخوة سيئون، ولا قراصنة غادرون. بل كان جميع أفرادها يعملون يداً بيد سعيدين، بتوجيه أبٍ قوي حكيم (تظهره الصورة بصدر منتفخ ولحية كستنائية طويلة) يعرف منذ البداية ما يجب أن يفعله لإنقاذهم. أما الشيء الوحيد الذي كان يحيّره فهو سبب مغادرتهم الجزيرة رغم سعادتهم وإحساسهم بالراحة.

وكان لديه كتاب ثالث أيضاً وهو «سكوت القطبي الجنوبي». الذي كان الكابتن سكوت أحد أبطاله بدون منازع، والذي كان يضم صوراً، منها صورة تظهر سكوت وهو جالس، ويكتب في الخيمة التي مات فيها متجمداً فيما بعد. وكان ينظر إلى الصور بين الحين والآخر، لكنه لم يقطع شوطاً كبيراً في قراءة الكتاب، فقد كان مملاً، وليس قصة. ولم يحبّ فيه سوى الفقرة التي كانت تتحدث عن تيتوس أواتس، الرجل الذي لسعه الصقيع والذي، لأنه كان يوفر الحماية لرفاقه، خرج في الليل، إلى الثلج والجليد، ومات بهدوء، بدون ضجة. كان يتمنّى أن يصبح مثل تيتوس أواتس ذات يوم.

كان سيرك بوسويل يقام مرة في السنة في ووستر. وكان جميع التلاميذ في صفه يذهبون إليه. ولأسبوع كامل لم يكن الحديث يدور إلا عن السيرك. حتى الأطفال الملوّنون كانوا يذهبون، بطريقة أو بأخرى. فقد كانوا يتسكّعون خارج الخيمة لساعات، ويستمعون إلى الفرقة الموسيقية، ويختلسون النظر من الفتحات والثقوب.

كانوا يستعدون للذهاب إلى السيرك في عصر أحد أيام السبت، عندما كان والده مشغولاً بلعب الكريكت. وكانتْ أمّه قد هيأت للنزهة لثلاثتهم. لكنها صُدمت عند شباك التذاكر عندما علمت أن رسم الدخول أعلى من أسعار بعد ظهر أيام السبت. ولم يكن معها مبلغ كاف، فاشترت تذكرتين له ولأخيه، وقالت لهما: «ادخلا وسأنتظركما هنا». لكنه لم يشأ أن يدخل، إلا أنها أصرّت على ذلك.

وفي داخل السيرك تملّكه شعور بالتعاسة، ولم يستمتع بما كان يراه. وكان يتوقّع أن أخاه ينتابه ذات الشعور. وعندما خرجا في نهاية العرض كانت تقف هناك بانتظارهما. ولم يتمكن لأيام عديدة بعد ذلك أن يبعد الفكرة عن رأسه: أمّه التي تنتظر بفارغ

الصبر تحت حرارة كانون الأول القائظة، بينما هو جالس داخل خيمة السيرك مستمتعاً كملك. وكان حبها الجامح، الذي يتسم بالتضحية بالذات الذي كان يغمره هو وأخاه، وخاصة هو، يزعجه ويؤرقه. وكان يتمنّى لو أنها لم تكن تحبّه كلّ هذا الحبّ. فقد كان حبّها له مطلقاً، ولذلك كان عليه أن يحبّها حباً مطلقاً أيضاً: أي المنطق ذاته الذي تفرضه عليه. لكنه لن يكون بمقدوره أن يرد لها كلّ هذا الحبّ الذي كانت تغمره به. وكانت تؤرقه فكرة أن يمضي عمره مثقلاً بدين الحبّ، وكانت تثير حنقه إلى حد أنه لم يكن يرغب في أن يقبّلها، ويرفض أن تلمسه. وعندما كانت تستدير مبتعدة متألمة بصمت كان يقسيّ قلبه نحوها، ويرفض الاستسلام.

وعندما كان يتملكها الشعور بالمرارة، كانت تكلّم نفسها أحاديث طويلة، تقارن حياتها في هذا التجمع السكني القاحل بالحياة التي كانت تعيشها قبل أن تتزوج، الحياة التي كانت تمثّل دورة مستمرة من الحفلات والنزهات، ومن الزيارات إلى المزرعة في عطل نهاية الأسبوع، واللعب بالتنس والغولف، والنزهات على القدمين مع كلابها. كانت تكلّم نفسها بصوت هامس خفيض لاتبرز فيه سوى الحروف المهموسة. وكان يقبع في غرفته، ويمكث أخوه في غرفته، يحاولان جاهدين التنصت عليها، وكانت تعرف أنهما كانا يعرفان ذلك. وكان هذا سبباً آخر يجعل أبوه يطلق عليها اسم الساحرة؛ لأنها كانت تتكلّم مع نفسها، وتختلق الأحاديث.

الأنشودة الرعوية للحياة في فيكتوريا الغربية، مدعمّة بصور في الألبومات: أمّه بصحبة نساء أخريات يرتدين فساتين بيضاء طويلة، يقفن ويمسكن بأيديهن مضارب تنس في وسط سهب، وتطوق أمّه رقبة كلب ألزاسي.

سألها: «هل كان هذا كلبك؟»

«إنه كيم. كان أفضل كلب لديّ وأكثرهم إخلاصاً».

«ماذا حدث له؟»

«تناول لحما مسمّماً كان قد وضعه المزارعون للثعالب. لقد نفق بين ذراعيّ».

اغرورقت الدموع في عينيها.

وبعد أن بدأ أبوه يظهر في الألبوم لم يعد يظهر أي كلب في الصور، بل أصبح يراهما يتنزهان مع أصدقائهما في تلك الأيام، أو أن أباه كان بشاربه الصغير المتأنق ونظرته التي تنمُّ عن غرور، يقف أمام غطاء سيارة سوداء قديمة. ثم بدأت تظهر صور عنه، العشرات منها، ابتداء بصورة طفل رضيع مكتنز، لا توجد أية تعابير على وجهه، ترفعه امرأة داكنة حادّة النظرات أمام الكاميرا.

وفي جميع تلك الصور، حتى في الصور التي كانت تظهر فيها مع الطفل الرضيع، كانت أمّه تفاجئه بقامتها الفتية التي كانت تبدو كفتاة شابة. وكان عمرها لغز يحيّره إلى حد كبير. فهي لم تخبره، وكان أبوه يدّعي أنه لا يعرف، حتى إن إخوتها وأخواتها بدوا وكأنهم أقسموا على ألا يبوحوا بالسر. وعندما كانت تخرج من البيت، كان يفتش في الأوراق في الدرج السفلي من طاولة الزينة، باحثاً عن شهادات ميلادها، إلا أنه لم يعثر على شيء. وبزلّة لسان منها عرف أنها كانت تكبر أباه في السن، الذي ولد في سنة 1912. لكن كم سنة كانت تكبره؟ فقد قرّر أنها ولدت في سنة 1910، مما يعني أنها كانت في الثلاثين من عمرها عندما ولد، وهي الآن في الأربعين من عمرها. وقال لها ذات يوم بزهو «إنك تبلغين الأربعين من العمر!» وراح يراقبها بعناية ليرى إن كانت ستصدر عنها إشارة تنم على أنه محق. واكتفت بأن ابتسمت له ابتسامة غامضة وقالت: «عمري ثمانية وعشرون سنة».

كان عيد ميلادها في يوم عيد ميلاده. فقد ولد في ذات اليوم الذي ولدت فيه، مما يعني، كما كانت تقول له، وكما كانت تقول للجميع، بأنه هبة من الله.

ولم يكن يناديها بكلمة ماما أو أمي، بل كان يناديها باسم ديني، كما كان يناديها أبوه وأخوه. من أين أتى هذا الاسم؟ لم يكن أحد يعرف، أما إخوتها وأخواتها فكانوا ينادونها فيرا، لذلك لا يمكن أن يكون هذا اسمها منذ طفولتها. وكان لا يناديها ديني أمام الغرباء، كما كان يحرص على عدم مناداة خاله وخالته باسميهما نورمان وإلين، بل كان يدعوهما الخال نورمان والخالة إلين. إلا أن قول كلمة خال أو خالة، شأن أي طفل جيد ومطيع، لم تكن تعني شيئاً مقارنة بالإطناب في اللغة الأفريكانية. فقد كان الأفريكانيون يخشون مخاطبة أحد يكبرهم سنّاً بكلمة «أنت». وكان يسخر من أبيه عندما كان يقول: 'Mammie moet 'n kombers oor Mammie se kniee trek anders word Mammie koud - (يجب أن تضع ماما بطانية على ركبتيّ ماما، وإلا فإن ماما ستصاب بالبرد). وكان يشعر بالراحة لأنه لم يكن أفريكانياً، ولأنه لم يكن يتحدث بهذه الطريقة، مثل عبد تلسعه السياط.

ذات يوم قررت أمّه أن تقتني كلباً. وكانت ترى أن الكلاب الألزاسية هي الأفضل والأكثر ذكاء وإخلاصاً لكنهم لم يعثروا على كلب ألزاسي للبيع، فاضطروا للقبول بجرو نصفه دوبرمان، ونصفه الآخر شيء آخر. وأصرّ على أن يقوم هو بتسميته. أراد أن يسميه بورزوي لأنه كان يريده كلباً روسياً، لكن بما أنه لم يكن بورزوياً في حقيقة الأمر، فقد أطلق عليه اسم القوقازي. لم يفهم أحد هذا الاسم، بل ظن الناس أن الاسم هو كو ـ ساك، أي حقيبة طعام، فوجدوه مضحكاً بعض الشيء.

وتبين له أن القوقازي كلب غير منضبط، مضطرب، يحوم في أرجاء الحيّ، ويدخل إلى الحدائق، ويطارد الدجاج. ففي أحد الأيام تبعه الكلب إلى المدرسة. لم يكن ثمة شيء يثنيه عن القيام بذلك. وعندما بدأ يصيح به ويرميه بالحجارة خفض الكلب أذنيه،

ووضع ذيله بين ساقيه، وانسلّ بعيداً. وعندما عاد ليقود دراجته أخذ الكلب يجري وراءه. واضطر في نهاية الأمر إلى أن يسحبه من طوقه، ويدفع دراجته باليد الأخرى. وعندما وصل إلى البيت كان شديد الغضب ورفض أن يعود إلى المدرسة بسبب تأخره.

لم يكن القوقازي قد بلغ مرحلة تامة من النمو عندما تناول زجاجاً ناعماً وضعه له أحدهم. أجرت له أمّه حقناً شرجية، وحاولت أن تخرج الزجاج من فمه، لكن دون جدوى. وفي اليوم الثالث، عندما لبث الكلب مستلقياً بدون حراك، يلهث، بل ولم يعد يقوى على لعق يدها، أرسلته إلى الصيدلية ليجلب له دواء جديداً نصح به أحدهم. جرى بسرعة، لكنه عاد متأخراً. كان وجه أمّه ساهماً وشارداً، حتى أنها لم تتناول منه القنينة.

ساعد في دفن القوقازي، لفّه في بطانية، ودفنه تحت الطين في الحديقة. وأقام فوق القبر صليباً وكتب عليه اسم «القوقازي». لم يعد يريد أن يجلبوا كلباً آخر، إذا كان سيموت هكذا.

كان أبوه يلعب الكريكت في فريق ووستر. وكانت تلك مفخرة أخرى، ومصدر مباهاة آخر بالنسبة له. فقد كان أبوه محامياً، بقدر أهمية الطبيب تقريباً، وكان جندياً شارك في الحرب، وهو يلعب الركبي في اتحاد كيب تاون، ويلعب الكريكت كذلك. إلا أنه كان يوجد في كلّ حالة من هذه الحالات شيء محرج بالنسبة له: فرغم أنه كان محامياً، لكنه لم يعد يزاول مهنة المحاماة. ورغم أنه كان جندياً، فلم يكن سوى نائب عريف. ورغم أنه كان يلعب الركبي، فقد كان يلعب في فريق غاردن من الدرجة الثانية، وكان هذا الفريق نكتة في حد ذاته، إذ كان يأتي دائماً في أدنى المراتب في مباريات الاتحاد الرئيسية. أما الآن فكان يلعب الكريكت، لكن مع فريق ووستر من الفئة الثانية، الذي لا يعبأ أحد بمشاهدته.

وكان أبوه رامي الكرة لا ضاربها. وكان ثمة خطأ في رميته، فكان يربك ضارب الكرة. كما كان يشيح بنظره عندما كان يرمي الكرة بسرعة. وكان يبدو أن رأيه في إلقاء الكرة ينحصر في دفع المضرب إلى الأمام، وإذا انزلقت الكرة منه فكان يهرول وحده برزانة.

والسبب الذي كان يجعل أباه غير قادر على قذف الكرة بالمضرب هو أنه تربى بالطبع في كارو، التي لم يكن فيها أحد يمارس لعبة الكريكت بشكل صحيح، ولم تكن توجد فيها وسيلة لكي يتعلمها. أما رمي الكرة فكانت مسألة مختلفة. فهي موهبة: إذ يكون رماة الكرة رماة بالفطرة عادة، ولا يمكن صناعتهم.

وكان جوني واردل مدرب فريق ووستر، الذي كان يلعب الكريكت في المناطق الشمالية في الصيف لصالح إنكلترا. وكان مجئ جوني واردل إلى ووستر حدثاً عظيماً لها. وقيل آنذاك إن وولف هيلر كان الوسيط في ذلك. وولف هيلر وأمواله.

كان يقف بجانب أبيه وراء شبكة الملعب يراقب جوني واردل وهو يرمي الكرة إلى ضارب الكرة في الفريق الأول. لم يكن واردل شخصاً يلفت الكثير من الاهتمام، فقد كان خفيف الشعر أصفره، وكان يُعتقد أنه رامي كرة بطيء الحركة، إلا أنه ما أن يبدأ يخبّ ويطلق الكرة حتى اعترته الدهشة للسرعة التي كان ينطلق فيها. وكان يلعب ضارب الكرة عند خط الضربة الأولى الكرة بسهولة، يضربها بلطف إلى داخل الشبكة. ثم قام شخص آخر بقذف الكرة، ثم أتى دور واردل ثانية. ومرة أخرى قذف ضارب الكرة الكرة بعيداً. لذلك لم يحقق ضارب الكرة والرامي الفوز.

في نهاية عصر ذلك اليوم عاد إلى البيت محبطاً. فقد كان يتوقّع أن يجد فارقاً كبيراً بين رامي الكرة في فريق إنكلترا، وضارب الكرة في فريق ووستر. كان يتوقع أن يشهد براعة أكثر

غموضاً، أن يرى الكرة وهي تقوم بأشياء غريبة في الهواء: تسبح وتهبط وتفتل كما كانت تقول كتب الكريكت التي قرأها. لكنه لم يكن يتوقع أن يشاهد رجلاً ضئيل القامة، ثرثاراً لا يميّزه شيء سوى أنه يرمي الكرة بسرعة، كما كان يفعل هو عندما كان يرمي الكرة بأقصى ما يمكنه من سرعة.

7

كان محفوراً على دراجته الشعار البريطاني المكوّن من بندقيتين متقاطعتين وعبارة «سميث ـ BSA». وكان قد اشترى الدراجة المستعملة بخمسة جنيهات من النقود التي قُدمت له بمناسبة عيد ميلاده الثامن. كانت أكثر الأشياء صلابة في حياته. وعندما كان الصبية الآخرون يتفاخرون بأنهم يمتلكون دراجات من ماركة ريلاي، كان يجيب أن دراجته من ماركة «سميث». «سميث؟»، ويقولون إن أحداً منهم لم يسمع بماركة «سميث».

لم يكن ثمة شيء يعادل متعة ركوب الدراجة، متعة الانحناء إلى الأمام، والانقضاض عبر المنحنيات. كان يذهب إلى المدرسة على دراجته صباح كلّ يوم، إذ كان يقطع النصف ميل من ريونيون بارك إلى معبر سكة الحديد، ثم يقطع الميل المتبقي على الطريق الهادئ المحاذي لسكة الحديد. وكانت صباحات أيام الصيف من أجمل الأوقات التي يمضيها، فقد كان يسمع خرير المياه في الأخاديد التي تجري على امتداد الطريق، وهديل الحمام الجاثم فوق أشجار الأوكاليبتوس. وكانت بين الحين والآخر، تهب نفحة قوية من الهواء الدافئ مؤذنة بهبوب الرياح في وقت لاحق من اليوم، ويطارد هبات رياح الغبار الطيني الأحمر الناعم التي كانت تسبق هبوبها.

أما في الشتاء فكان يغادر إلى المدرسة وما يزال الجو

مظلماً. وبمصباحه الذي كان يلقي أمامه هالة من الضوء، كان يقود دراجته مخترقاً الضباب، متلمساً نعومته المخملية، يتنفسه في شهيق وزفير، لا يسمع شيئاً سوى هسهسة عجلات دراجته الناعمة. وفي صباح بعض الأيام كان معدن المقود يصبح شديد البرودة إلى درجة أن يديه العاريتين كانتا تكادان تلتصقان به.

كان يحاول أن يصل إلى المدرسة مبكراً. فقد كان يحبّ أن تكون قاعة الصف له لذاته، أن يتجوّل بين المقاعد الفارغة، أن يصعد خفية إلى منصّة المعلم. لكنه لم يصل إلى المدرسة الأول أبداً: فقد كان هناك أخوان من دي دورنس يعمل والدهما في السكك الحديدية، وكان يصحبهما في قطار الساعة السادسة صباحاً. كانوا فقراء، معدمين، إلى درجة أنهم لم يكونوا يملكون بلوزات أو سترات أو أحذية. وكان ثمة صبية آخرون فقراء مثلهم، وخاصة في صفوف الأفريكان. فحتى في الصباحات الشتائية الشديدة البرودة، كانوا يأتون إلى المدرسة بقمصان قطنية رقيقة وسراويل صوفية قصيرة صغرت على حجومهم كثيراً إلى حد أن سيقانهم النحيفة لم تكد تتحرّك فيها. وكانت تبدو على وجوههم بقع بيضاء بلون الطباشير بسبب البرد، وكانوا ينفخون في أيديهم ويخبطون بأقدامهم، والمخاط يسيل من أنوفهم على الدوام.

وذات يوم انتشر داء السعفة، وحلق الأخوان من دي دورنس رأسيهما وأزالا شعرهما بالكامل. وكنت ترى على رأسيهما الحليقين العاريين الحلقات الحلزونية التي خلفتها داء السعفة بوضوح، وكانت أمّه تحذّره بعدم الاقتراب منهما والاتصال بهما.

وكان يفضّل السراويل القصيرة الضيّقة على السراويل القصيرة الفضفاضة الواسعة. فالثياب التي كانت تشتريها له أمّه واسعة جداً دائماً. إذ كان يحبّ أن يحدق في السيقان السمراء الناعمة الرهيفة في السراويل القصيرة الضيّقة. وكان أكثر ما يحبه

السيقان العسلية السمراء التي تميّز الفتيان الشقر. وكان يفاجئ عندما كان يجد أن أكثر الفتيان وسامة كانوا في الصفوف الأفريكانية، وأقبحهم كذلك، الفتيان الذين كان الشعر يكسو سيقانهم والذين تظهر في حلوقهم تفاحة آدم، وتنتشر بثرات في وجوههم. وتبين له أن الفتية الأفريكان، مثل الفتية الملونين تقريباً، يكونون جميلين وهم في سن مبكرة، لكنهم ما أن يصلوا إلى عمر محدَد حتى يتشوه شكلهم، ويذوي جمالهم من الداخل.

الجمال والرغبة: إذ كانت المشاعر التي تعتريه تجاه سيقان هؤلاء الفتية البيضاء والمثالية تجعله يشعر بالقلق. فماذا كان بوسع المرء أن يفعل عندما يرى سيقاناً كهذه، سوى أن يلتهمها بعينيه؟ من أجل ماذا؟ الرغبة؟

وكانت التماثيل المنحوتة العارية المصوّرة في موسوعة الأطفال تحدث فيه التأثير ذاته: أبولو يلاحق دافني، بيرسيفون مفتون بديس. إنها مسألة شكل، كمال الشكل.

كان يُعجب بالجسد الإنساني المثالي. فعندما كان يرى الكمال المنحوت في الرخام الأبيض، كان ثمة شيء يتحرك في داخله. تنفتح في داخله فجوة. يصبح على حافة السقوط.

ومن بين جميع الأسرار التي كانت تفصله عن الآخرين كان من الممكن أن تكون تلك أسوأها. فمن بين جميع هؤلاء الفتيان، إذ كان يظن أنه الفتى الوحيد الذي كانت تجري فيه تلك التيارات الإيروتيكية المظلمة، في وسط هذه البراءة عند الأشخاص الآخرين وسويتهم، الوحيد الذي كانت تعتريه تلك الرغبة.

ومع ذلك كانت لغة الفتيان الأفريكان قذرة إلى درجة لاتصدّق. فقد كانوا يجيدون قدراً من الكلمات البذيئة تفوق ما كان يعرفه هو بكثير، مثل كلمات fok وpiel وpoes، كلمات تجعله يتراجع بفزع من ثقلها الأحادي المقطع. كيف تُكتب؟ فلكي يتمكن من كتابتها لم يكن

يستطيع أن يروضها في عقله. هل كانت كلمة fok تكتب بحرف v الذي يجعلها تبدو أكثر وقاراً. أم بحرف f، الذي يجعلها كلمة وحشية، بدائية حقاً. ألم يكن لها أصل؟ إذ لم يكن القاموس يذكر شيئاً، ولم يعثر فيه على مثل تلك الكلمات. ولا كلمة واحدة منها.

ثم كانت هناك كلمات gat وpoep ـ hol وما شابهها، تُقذف يميناً ويساراً في نزالات من الشتائم والاهانات التي لم يكن يفهمها. فلماذا كانوا يقرنون مؤخرة الجسد بمقدمته؟ ما علاقة كلمة ـ gat، الثقيلة والحلقية والسوداء بالجنس؟ وكان يغلق عقله إزاء كلمات المؤخرة ـ كلمات بغيضة لكنه كان مايزال يحاول أن يتوصل إلى حلّ لمعنى effies وFLs، أشياء لم يرها أبداً لكنها كانت ترتبط، بطريقة ما، بسلوك الصبية والفتيات في المدرسة الثانوية.

ومع ذلك لم يكن جاهلاً. فقد كان يعرف كيف يولد الأطفال. فهم يخرجون من ظهر أمهاتهم، جميلين ونظيفين وبيض. أفلم تخبره أمّه بذلك منذ سنوات، عندما كان صغيراً. وقد صدقها بدون تردد أو ريبة: وكان قولها الحقيقة له مصدر فخر كان يجعله متميزاً عن الأطفال الآخرين منذ وقت مبكر جداً، عندما كان الأطفال الآخرون ما يزالون يُخدعون بالأكاذيب. كان ذلك دليلاً على ثقافتها وتنويرها، ثقافة وتنوير أسرتهم. كما كان ابن عمه جوان، الذي كان يصغره بسنة واحدة، يعرف الحقيقة أيضاً. أما أبوه من الناحية الأخرى فكان يشعر بالحرج، ويتذمّر عندما يدور حديث عن الأطفال، وعن المكان الذي يأتون منه، إلا أن ذلك يثبت مرة أخرى جهل أسرة أبيه وتخلفها.

أما أصدقاؤه فكانوا يروون قصة مختلفة: يقولون إن الأطفال يخرجون من الفتحة الأخرى.

كان يعرف نظرياً عن الفتحة الأخرى التي يلج فيها القضيب

ويخرج منها البول. لكن كيف يمكن للطفل أن يخرج من تلك الفتحة. ومع تكوّن الطفل في البطن فمن المعقول أكثر أن يخرج الطفل من الظهر.

لذلك أخذ يدافع عن الظهر فيما كان أصدقاؤه يدافعون عن الفتحة الأخرى، الـ poes. كان مقتنعاً تماماً أنه كان على حق. كان ذلك جزءاً من الثقة القائمة بينه وبين أمّه.

8

كان هو وأمّه يجتازان قطعة أرض عامّة بالقرب من محطة سكة الحديد. كان بصحبتها، لكنه كان منفصلاً عنها، ولم يكن يمسك بيدها. وكعهده دائماً كان يرتدي ثياباً رمادية اللون: قميصاً رمادياً من قماش جيرسي، وسروالاً قصيراً رمادي اللون، وجوارب طويلة رمادية. وكان يعتمر قبعة زرقاء سماوية عليها شعار مدرسة ووستر الابتدائية للصبيان: قمّة جبل محاطة بالنجوم، وعليها كلمات Per aspera ad astra.

كان مجرد فتى يمشي بجانب أمّه. وربما كان يبدو من الخارج ولداً طبيعياً جداً. لكنه كان يرى نفسه يجري حولها كالخنفساء، يجري في دوائر دقيقة، وأنفه في الأرض، وساقاه وذراعاه تعلوان وتهبطان بقوة. وفي الواقع لم يكن يتصوّر أن يكون ساكناً، هادئاً. إذ كان عقله خاصة لا يتوقف عن الانطلاق هنا وهناك، وكان بَرِماً، نافد الصبر.

في هذا المكان بالذات كان السيرك ينصب خيامه مرة في السنة، ويضع الأقفاص التي تقبع فيها أسود تنام فوق قش تفوح منه رائحة كريهة. أما اليوم فقد أصبحت مجرد بقعة مملوءة بالطوب الأحمر المرصوص بشدّة إلى جانب بعضه كصخرة، ولم يعد ينمو فيها العشب.

ثمة أناس آخرون أيضاً، عابرو سبيل آخرون، في صباح يوم

السبت الحار المشّع ذاك. كان ثمة صبي يقاربه في العمر يهرول عبر الساحة بالقرب منهم. وحالما رآه، راوده شعور بأن هذا الصبي سيكون ذا أهمية له، في غاية الأهمية، لا بسبب من كان (فلعله لن يراه ثانية) بل بسبب الأفكار التي كانت تدور في رأسه، التي انطلقت وتدفقت منه مثل سرب من النحل.

لم يكن ثمة شيء غير عادي في هذا الصبي. كان من الملونين، إلا أن الملوّنين كانوا موجودين في كل مكان. كان يرتدي بنطالاً قصيراً جداً يكاد يغطي ردفيه بإحكام، ويترك ساقيه السمراوين بلون الطين تقريباً عاريين. لم يكن ينتعل حذاء، وربما كان باطن قدمه قاسياً جداً إلى حد أنه إذا وطأ أشواكاً كان سيسحقها.

ثمة المئات من الأولاد مثله، بل الآلاف. وآلاف من الفتيات اللاتي كن يرتدين فساتين قصيرة تظهر سيقانهن الممشوقة. كان يتمنّى أن تكون لديه ساقان جميلتان مثلهم. فبساقين كهاتين كان سيطأ الأرض كما كان يفعل هذا الصبي، بالكاد يمسها.

يمر الصبي على بعد عشر خطوات منهما. كان مستغرقاً في ذاته، لم ينظر إليهما. كان جسمه مثالياً، ولا تشوبه شائبة، كما لو أنه قد خرج من صَدَفته البارحة. ولم يكن الأطفال من أمثال هذا الصبي، سواء كانوا صبية أوفتيات، يرغمون على الذهاب إلى المدرسة، بل كان بإمكانهم أن يبتعدوا عن أنظار آبائهم الراصدة، والذين تكون أجسادهم ملكاً لهم، يفعلون كما يحلو لهم ـ لماذا لايلتقون في احتفال من البهجة الجنسية؟ هل كان الجواب يكمن في أنهم كانوا بريئين كلّ البراءة، ولا يعرفون ما هي المتع المتاحة لهم ـ حيث لا يعرف تلك الأسرار سوى الظلام والأرواح المذنبة؟

هكذا كانت الأسئلة تدور في رأسه باستمرار. فقد تنتقل هنا وهناك في البداية، لكنها كانت تدور وتستجمع نفسها وتشير بإصبعها إلى نفسه باستمرار في نهاية الأمر. فقد كان هو من

يحرك قطار التفكير باستمرار، وكان التفكير دائماً هو الذي ينزلق ويخرج عن سيطرته ويعود لاتّهامه. الجمال هو البراءة، البراءة هي الجهل، الجهل هو الجهل بالمتعة، والمتعة مذنبة، إنه مذنب. هذا الفتى، بجسده الغرّ الذي لم يمسه أحد، بريء، بينما كانت تحكمه هو رغباته المظلمة، لقد كان مذنباً. وفي الواقع رأى في هذا الطريق الطويل كلمة فساد الأخلاق وانحرافها، بفتنتها الظلامية، المعقّدة، والتي قد تعني أيّ شيء. لم يكن خفيفاً وبريئاً كظبي، بل كان مظلماً وثقيلاً ومذنباً. وكان ملوّناً أيضاً، مما يعني أنه لم يكن يملك نقوداً. يعيش في كوخ مظلم، جائع، مما يعني أنه إذا ما نادته أمّه وصاحت «يا ولد!»، ولوّحت له، وهي قادرة على عمل ذلك، لتوقف هذا الولد في طريقه، وأتى وفعل كل ما تطلبه منه (مثل إحمل السلة)، التي كانت ستترك علامة في كفيه المقبوضين في النهاية، ثم يلقي عليهما التحية شاعراً بالامتنان بذلك. وإذا غضب من أمّه بعد ذلك كانت ستبتسم له وتقول: «لكنهم معتادون على ذلك».

لذلك، كان هذا الفتى الذي ظل طوال حياته يسير في طريق الطبيعة والبراءة، الفقير، ونتيجة لذلك، الطيب، شأن الفقراء دائماً في القصص الخيالية، النحيل كسمك الأنقليس، والسريع كالأرنب البري، الذي يهزمه بسهولة في المبارزة بالسرعة أو في مهارة اليد ـ هذا الفتى، الذي كان يعتبر تأنيباً حياً له، يخضع له مع ذلك بأساليب كانت تحرجه كثيراً، لذلك أدار ظهره ولم يعد يريد أن ينظر إليه، رغم جماله.

ومع ذلك لم يكن بوسع المرء أن يقصيه. لم يكن بوسع المرء أن يقصي السكان المحليين، ربما، لكن لم يكن بوسع المرء أن يقصي السكان الملوّنين. بوسع المرء أن يجادل بأن السكان المحليين جاؤوا في وقت لاحق، غزاة من الشمال، ولا يحق لهم أن يكونوا هنا. وبوسع المرء أن يرى المواطنين المحليين في

ووستر، الذين كان معظمهم رجال يرتدون معاطف عسكرية قديمة، يدخنون بغلايين معقوفة، ويعيشون في بيوت صغيرة مصنوعة من حديد مضلّع على شكل خيام على امتداد خط السكة الحديدية. رجال يتمتعون بقوة وصبر خرافيين، جُلبوا إلى هذه المنطقة لأنهم لم يكونوا يشربون الكحول، كما كان يفعل الرجال الملوّنون، لأنهم كانوا يفعلون أشغالاً شاقة تحت أشعة الشمس اللاهبة، التي ينهار الرجال الملوّنون الأخف وزناً والأكثر هشاشة تحتها. كانوا رجالاً بدون نساء، بدون أطفال، يأتون من لا مكان، ومن الممكن أن يُطلب منهم أن يختفوا في اللامكان.

إلا أنه ليس باستطاعتك أن تلجأ إلى الملونين للحصول على أي مساعدة. فقد كان البيض، وخاصة جان فان ريبيك، قد أطلقوا اسم الملونين على الهوتينتوتس، وهذا أمر جليّ للغاية في اللغة المقنّعة التي ترد في كتاب التاريخ المدرسي. ومن المرارة أن الأمر كان أسوأ من ذلك. لأن الأشخاص الذين كان يطلق عليهم الملوّنون في بولانده لم يكونوا هم أحفاد جان فان ريبيك، أو أحفاد أيّ هولندي آخر. لقد كان خبيراً في علم الفراسة، وكان بإمكانه أن يعرف أنه لم تكن توجد فيهم قطرة دم رجل أبيض واحدة. إنهم الهوتينتوتس، الأنقياء، الذين لم يفسدهم أحد. وليس هذا فحسب، فهم لم يأتوا إلى الأرض، بل الأرض أتت إليهم، وهي أرضهم، كما كانت وستكون دائماً وأبداً.

9

كان أحد الأسباب الذي جعل الإقامة في ووستر جيدة، كما كان أبوه يقول، والعيش فيها أفضل من الإقامة في كيب تاون، أن التسوّق فيها كان أسهل بكثير. فهنا يُسلّم الحليب في فجر كلّ يوم إلى بيتك. فما عليك إلا أن ترفع سماعة الهاتف، وما هي إلا ساعة أو ساعتان، حتى يكون الرجل من شوتشات يقف أمام باب بيتك، يحمل اللحم ومواد البقالة التي طلبتها. كان أمراً في غاية البساطة.

وكان الرجل من شوتشات، الذي يجلب مواد البقالية من السكان المحليين ولم يكن يتكلّم سوى بضع كلمات أفريكانية ولم يكن يتحدث الإنكليزية على الإطلاق. وكان يرتدي قميصاً أبيض نظيفاً، ويضع ربطة عنق في شكل فراشة، وينتعل فردتي حذاء متجانستين، ويعتمر قبعة بوبي لوك. كان اسمه جوشيا. وكان والداه يعتبرانه واحداً من أبناء الجيل الجديد المتخاذلين من السكان المحليين الذين ينفقون كل ما يكسبونه على الثياب المبهرجة ولا يفكرون بالمستقبل.

وعندما لم تكن أمّه توجد في البيت كان يستلم هو وأخوه المواد من جوشيا، ويرتبانها على رفّ المطبخ، ويضعان اللحم في الثلاجة. وإذا كان هناك حليب مكثّف كانا يستوليان عليه ويعتبرانه غنيمة. فيثقبان العلبة ويأخذان في امتصاص الحليب حتى تفرغ. وعندما تعود أمّهما إلى البيت كانا يدعيّان أنه لم يكن هناك حليب مكثّف مع المواد، أو أن جوشيا قد سرقه.

لم يكن واثقاً إن كانت أمهما تصدّق كذبتهما أم لا، إلا أنه كان يعتبر ذلك خداعاً يجعله يشعر بالذنب.

وكان يدعى الجيران القاطنون في الطرف الشرقي آل وينسترا. وكان لديهم ثلاثة أبناء، غيسبيرت، أكبر أبنائهم الذي كانت ركبتاه مقوستين إلى الداخل، وشقيقان توأمان يدعيان إبين وإزير، ولم يبلغا سن الذهاب إلى المدرسة بعد. وكان هو وأخوه يسخران من غيسبيرت وينسترا بسبب اسمه المضحك والطريقة العرجاء التي كان يركض فيها. وقرّر هو وأخوه أن غيسبيرت أبله، لديه لوثة في عقله، وأعلنا الحرب عليه. وفي عصر ذات يوم أخذا نصف دزينة من البيض التي كان قد جلبها الرجل من شوتشات، وراحا يقذفان البيض على سقف بيت وينسترا، واختبآ. لم يظهر أحد من عائلة وينسترا، إلا أنه عندما جفّ البيض المهشّم تحت أشعة الشمس، كان قد تحول إلى بقع صفراء قبيحة.

كانت متعة رمي البيض، الذي كان أصغر وأخف بكثير من كرة الكريكت، ومراقبته وهو يطير في الهواء، من جهة إلى الجهة الأخرى، والاستماع إلى صوته الناعم وهو محلق في الهواء، قد لازمته لفترة طويلة بعد ذلك. ومع ذلك كان يشوب متعته تلك إحساس بالذنب، فلم يستطع أن ينسى أنهما كانا يلعبان بالطعام. فبأيّ حقّ كانا يلعبان بالبيض؟ وماذا كان الرجل من شوتشات سيقول لو اكتشف أنهما كانا يرميان البيض الذي يتجشم عناء حمله طول الطريق من المدينة على دراجته؟

وكان ينتابه شعور بأن الرجل من شوتشات، الذي كان في حقيقة الأمر رجلاً بالغاً والمتأنق الذي كان يعتمر قبعة من طراز بوبيه لوك، ويضع ربطة عنق في شكل فراشة، لم يكن ليبدي عدم اكتراث بهذا الأمر. وكان يشعر أنه لو عرف ما كانا يفعلانه بالبيض الذي يجلبه لرفض بشدة ولم يكن قد تردّد في القول: «كيف

يمكنكما أن تفعلا هذا في الوقت الذي يوجد فيه أطفال جياع؟» باللغة الأفريكانية التي لم يكن يجيدها، وبالطبع لن يتمكن من الإجابة على ذلك. إذ يمكن للمرء أن يقذف البيض في مكان آخر من العالم (فقد كان يعرف أنه في إنكلترا مثلاً، كانوا يقذفون البيض على الأشخاص في المقطرة(*)). أما في هذا البلد فإن القضاة يحكمون بمعايير الحق والاستقامة، ولا يمكن للمرء ألّا يحرص على الطعام.

كان جوشيا رابع شخص يتعرّف إليه في حياته من السكان الأصليين. أما أول شخص، الذي لم يعد يتذكّره جيداً، والذي كان يرتدي بيجامة زرقاء طوال اليوم، فهو الصبي الذي كان يقوم بتنظيف درج البناية التي يقيمون فيها في جوهانسبيرغ. أما الشخص الثاني فكانت امرأة عجوز تدعى فيلا في بليتينبيرج باي، التي كانت تأخذ ملابسهم لغسلها. وكانت فيلا شديدة السواد، وفمها خالياً من الأسنان، وكانت تلقي خطابات طويلة عن الماضي بلغة إنكليزية جميلة، سلسة. وكانت تقول إنها قدمت من سانت هيلينا، حيث كانت جارية. أما الشخص الثالث فكان يعيش في بليتينبيرج باي كذلك. وحكى له أن عاصفة شديدة كانت قد هبّت عليهم فغرقت السفينة؛ وعندما بدأت تهدأ الرياح التي عصفت لأيام وليال بكاملها، وجد نفسه هو وأمّه وأخوه على الشاطئ يفتشون في الركام الذي كان مايزال يطوف على سطح الماء، والأعشاب البحرية التي جرفتها الأمواج. ثم اقترب منهم رجل عجوز ذو لحية رمادية وياقة كهنوتية، ويحمل مظلّة وقال لهم: «رغم أن الإنسان يبني مراكب عظيمة من الحديد لكن البحر أقوى. فالبحر أقوى من أيّ شيء يمكن أن يشيده الإنسان».

وعندما أصبحا وحدهما قالت له أمّه: «يجب أن تتذكّر ما

(*) المقطرة: آلة خشبية فيها ثقبان توضع فيهما قدما الشخص المذنب. م.

قاله. لقد كان رجلاً عجوزاً حكيماً». كانت المرّة الوحيدة التي يذكر أن أمّه استخدمت فيها كلمة حكيم؛ بل كانت تلك هي المرة الوحيدة التي يتذكّر فيها أحداً يستخدم هذه الكلمة خارج الكتب. إلا أن الكلمة القديمة تلك لم تكن الوحيدة التي كانت تثير إعجابه، بل ربما احترام السكان الأصليين - أي ما كانت تقوله. لقد انتابه شعور عارم بالراحة عندما سمعها تقول ذلك وتؤكد عليه.

أما القصة التي تركت أعمق الأثر في نفسه فكانت قصة الأخ الثالث، الأكثر تواضعاً والأكثر سخرية، الذي يساعد المرأة العجوز في حمل حملها الثقيل أو الذي يخرج الشوكة من كفّ الأسد، بعد أن تجاوز الأخين الأول والثاني بازدراء وأنفة. كان الأخّ الثالث رحيماً ورؤوفاً وصادقاً وشجاعاً، بينما كان الأخوان الأول والثاني متبجحين ومتغطرسين. وفي نهاية القصة يتوّج الأخّ الثالث أميراً، بينما يشعر الأخوان الأول والثاني بالخزي ويُردان على عقبيهما.

كان في المدينة أناس من البيض ومن الملوّنين ومن السكان المحليين، الذين يأتون في أدنى المراتب والذين كانوا الأكثر احتقاراً. لا مندوحة من المقارنة: فقد كان السكان المحليون هم الأخّ الثالث في القصة.

وفي الكتب المدرسية، وسنة بعد أخرى، لم يتوقفوا عن دراسة جان فان ريبيك، وسايمون فان دير ستيل، واللورد تشارلز سامرسيت، وبيت ريتيف. وبعد بيت ريتيف تأتي حروب الكافير، عندما تدفق الكافيريون على حدود المستعمرة، وكان يتوجب ردهم على أعقابهم. لكن حروب الكافير كانت كثيرة ومشوّشة، ويصعب تمييز الواحدة عن الأخرى ولم يكن مطلوباً منهم أن يدرسوها للامتحانات.

ورغم أنه كان يجيب بشكل صحيح عن أسئلة مادة التاريخ في

الامتحان، لم يكن يعرف، بطريقة ترضي قلبه، لماذا كان جان فان ريبيك وسايمون فان دير ستيل جيدين، بينما كان اللورد تشارلز سامرسيت في غاية السوء. ولم يكن يحب زعماء النزوح الكبير كما كان مطلوباً منه، ما عدا بيت ريتيف، الذي قُتل بعد أن خدعه دينغان الذي طلب منه أن يترك بندقيته خارج القرية. ويبدو أن أندريس بريتوريوس وغيريت ماريز والآخرين، كانوا مثل معلمين في مدرسة ثانوية، أو مثل الأفريكانيين في المذياع: حانقين ومفعمين بمشاعر الغضب والبغض، ولا يكفون عن الوعيد والتهديد وكانوا يتكلمون باسم الله.

ولم تكن حرب البوير تُدرَّس في المدرسة، على الأقل ليس في الصفوف الإنكليزية المتوسّطة. وكان يشاع بأن حرب البوير كانت تُدرَّس في الصفوف الأفريكانية باسم تويدي فريلييدسورلوج، أي حرب التحرير الثانية، لكنها لم تكن مطلوبة للامتحانات. ونظراً لحساسيتها لم تدرج حرب البوير في المنهاج الدراسي. حتى والداه لم يحدثانه أبداً عن حرب البوير، من كان على حقّ ومن كان على باطل. غير أن أمّه كانت تكرّر عليه قصّة حرب البوير التي حكتها لها أمّها. فقد أخبرتها أمّها أنه عندما وصل البويريون إلى مزرعتهم، طلبوا طعاماً ونقوداً وتوقعوا أن يحظوا بالرعاية منهم. وعندما جاء الجنود البريطانيون ناموا في الإسطبل ولم يسرقوا شيئاً، وقبل أن يغادروا تقدموا بالشكر لمضيفيهم بأدب شديد.

كان البريطانيون، بجنرالاتهم المتغطرسين والمستبدين، هم أوغاد حرب البوير. وكانوا أغبياء أيضاً، لأنهم كانوا يرتدون بدلات حمراء تجعلهم أهدافاً سهلة للرماة البويريين. وفي قصص الحرب تلك كان من المفترض أن يؤيِّد المرء البويريين، الذين يناضلون من أجل نيل حريتهم ضد جبروت الإمبراطورية البريطانية. لكنه كان يفضّل أن يكره البويريين لا للحاهم الطويلة وملابسهم القبيحة فحسب، بل لأنهم كانوا يختبئون وراء

الصخور ويطلقون النار من مكامنهم، وكان يحبّ البريطانيين لأنهم كانوا يسيرون إلى حتفهم على زعيق موسيقى القِرَب.

كان الإنكليز أقلية في ووستر، أما في منطقة ريونيون بارك فكانوا أقلية صغيرة جداً. فبالإضافة إليه هو وأخيه، اللذين يعتبران إنكليزيين بطريقة ما، لم يكن هناك سوى ولدين إنكليزيين فقط: هما روب هارت وصبي نحيل صغير يدعى بيلي سميث، الذي كان والده يعمل في السكك الحديدية وكان مصاباً بمرض يجعل جلده يتقشّر (كانت أمّه تمنعه من لمس أيّ من أولاد سميث).

وكان عندما يزلّ لسانه ويقول إن الآنسة أوسثييزين تضرب روب هارت، كان يبدو أن أبويه يعرفان السبب على الفور. فقد كانت الآنسة أوسثييزين تنتمي إلى عشيرة أوسثييزين، التي تنتمي إلى الحزب الوطني. أما والد روب هارت، الذي كان يمتلك مخزناً للخرداوات، فقد كان عضواً في المجلس البلدي وعضواً في الحزب الاتحادي حتى انتخابات عام 1948.

كان أبواه يهزّان رأسيهما ما أن كانا يسمعا اسم الآنسة أوسثييزين. فقد كانا يعتبرانها امرأة انفعالية، حادة المزاج، غير مستقرة، وكانا يستهجنان شعرها المحنّى. وما فتئ أبوه يقول إنه في ظل حكومة سمتس يجب عمل شيء إزاء معلّمة أدخلت السياسة إلى المدرسة. وكان أبوه عضواً في الحزب الاتحادي أيضاً. وفي حقيقة الأمر كان أبوه قد فقد وظيفته في كيب تاون، الوظيفة التي كانت أمّه تتباهى بلقبها ـ المشرف على الإيجار ـ عندما هزم مالان سمتس في عام 1948. لذلك اضطروا إلى مغادرة بيتهم في روزبانك، الذي يتذكره بحنين شديد، بسبب مالان، البيت ذو الحديقة الكبيرة المكسوة بالنباتات الكثيرة، وذو السقف المقبّب والقبوين. واضطر إلى ترك مدرسة روزبانك للأطفال وأصدقائه فيها، والقدوم إلى ووستر. وفي كيب تاون كان أبوه يذهب إلى

العمل في الصباح مرتدياً بزّة أنيقة، ويحمل حقيبة دبلوماسية من الجلد. وعندما كان الأطفال الآخرون يسألونه عن وظيفة أبيه كان يجيب: المشرف على الإيجار، فيخيم عليهم الصمت. أما في ووستر فلم يكن هناك ثمة اسم يصف عمل والده. إذ كان يقول: «يعمل أبي في شركة ستاندرد للتعليب»، «لكنه ماذا يعمل؟» فكان يضطر للقول بتردد إنه كان يعمل في المكتب، وكان مسؤولاً عن «مسك الدفاتر». ولم تكن لديه فكرة عما كانت تعنيه كلمة «مسك الدفاتر».

أما شركة ستاندرد للتعليب فكانت تنتج خوخ ألبيرتا، وأجاص بارتليت، والمشمش المعلّب. وكانت شركة ستاندرد للتعليب تقوم بتعليب كمية من الخوخ أكبر مما تقوم بتعليبه أيّ شركة أخرى في البلد: هذا كلّ ما كانت تشتهر به.

ورغم هزيمة عام 1948، وموت الجنرال سمتس، ظل والده موالياً لحزب الاتحاد: موالياً لكن كئيباً. فقد كان شتراوس، زعيم حزب الإتحاد الجديد، مجرد ظلّ باهت للجنرال سمتس، وفي ظل شتراوس، لم يعد لحزب الاتحاد أي أمل في الفوز في الانتخابات القادمة. كما كان الحزب الوطني واثقاً من الفوز بعد أن كافأ الدوائر الانتخابية لأنها كانت تفضلّ مؤيديهم في الريف.

«لماذا يفعلون ذلك»، كان أبوه يسأل.

«من؟» قال أبوه. «ومن يستطيع إيقافهم؟ فبإمكانهم أن يفعلوا ما يحلو لهم، بعد أن أضحوا في السلطة».

لم يكن يرى فائدة من إجراء انتخابات، إن كان الحزب الذي سيفوز لا يستطيع أن يغيّر القوانين. كان أشبه بقاذف الكرة الذي يقرّر من يستطيع ومن لا يستطيع أن يرمي الكرة.

كان أبوه يدير المذياع لا ليستمع إلى الأخبار، بل ليستمع إلى الأهداف المحرَزة فقط، الكريكت في الصيف، والركبي في الشتاء.

قبل مجيء الحزب الوطني كانت نشرة الأخبار تبث من إنكلترا. وكنت تسمع أولاً نشيد «فليحفظ الله الملك»، ثم تسمع دقات ساعة غرينيتش الستّ، وبعدها يأتي صوت المذيع ويقول: «هنا لندن، نشرة الأخبار»، ويتلو أخباراً من جميع أنحاء العالم. أما الآن فقد انتهى كلّ ذلك. فأصبحت تسمع صوت المذيع وهو يقول: «هنا هيئة إذاعة أفريقيا الجنوبية»، ويبدأ بتلاوة طويلة عن ما قاله الدكتور مالان في البرلمان.

كان أكثر شيء يكرهه عن ووستر، أكثر شيء يجعله يرغب في الهروب منها، هو الغضب والنفور والكراهية التي كان يلمسها من الصبية الأفريكان. كان يخشى ويحتقر الفتية الأفريكان الضخام، الحفاة الذين كانوا يرتدون سراويل قصيرة ضيّقة، وخاصة الأولاد الأكبر سناً، الذين إن سنحت لهم أدنى فرصة سيقتادونك إلى مكان هادئ في السهب وينتهكونك بأساليب كان يسمعهم يلمحون إليها شزراً بكلمة borsel مثلاً، التي كانت تعني حسب فهمه أن ينزلوا ملابسك الداخلية ويطلون خصيتيك بطلاء الأحذية (لكن لماذا خصيتيك؟ لماذا طلاء الأحذية؟) ثم يجعلونك تعود إلى البيت وأنت تسير في الشوارع نصف عار وتبكي.

وثمة حكايات كان يبدو أن جميع الأولاد الأفريكان يعرفونها، ينشرها الطلاب والمعلمون الذين يزورون المدرسة، وهي التلقين initiation وما يجري خلاله. إذ كان الصبية الأفريكان يتهامسون بالحماس ذاته عندما يتحدثون كيف أنهم أوسعوا أحدهم ضرباً بالعصا. وعندما كان يسمعهم يهمسون بذلك يعتريه شعور بالنفور بالشديد: السير واضعاً فوطة طفل رضيع مثلاً، أو شرب البول. إذا كان هذا ما يجب عليك أن تفعله قبل أن تصبح معلّماً، فإنه يرفض أن يصبح معلماً.

وسرت إشاعة مفادها أن الحكومة ستأمر بنقل جميع تلاميذ

المدارس من ذوي الأسماء الأفريكانية إلى الصفوف الأفريكانية. وراح والداه يتحدثان عن هذا الأمر بهمس. فمن الواضح أنهما كانا قلقين. أما هو فقد امتلأ قلبه رعباً من فكرة الانتقال إلى صف أفريكاني. وقال لأبويه إنه لن يطيع هذا الأمر، وسيرفض أن يذهب إلى المدرسة. يحاولان تهدئته قائلين: «لن يحدث شيء من هذا، وإنه مجرد كلام. وستمضي سنوات قبل أن يفعلوا شيئاً». لكنه لم يكن مطمئناً.

وكان يعلم أن مسألة إبعاد الصبية الإنكليز المزيفين عن الصفوف الإنكليزية تعود إلى مفتشي المدرسة. وعاش في فزع مترقباً ذلك اليوم الذي سيصل فيه المفتش، ويمرر إصبعه على السجلّ، ويصيح باسمه، ويطلب منه أن يحزم كتبه. كان قد وضع خطة لمثل ذلك اليوم، حسبها بعناية. فقد قرر أن يحزم كتبه ويغادر غرفة الصف بدون اعتراض. لكنه لن يذهب إلى الصف الأفريكاني. بل بكل هدوء، وكي لا يلفت انتباه أحد، سيتجه مباشرة إلى حظيرة الدراجات، يأخذ دراجته ويركبها ويعود إلى البيت بسرعة إلى درجة أن لا يتمكن أحد من اللحاق به. ثم يغلق الباب الأمامي ويقفله، ويقول لأمّه إنه لن يعود إلى المدرسة ثانية، وأنها إذا خدعته فسينتحر.

كانت صورة الدكتور مالان محفورة في مخيلته. الدكتور مالان بوجهه المستدير، الأصلع الذي لا يفقه شيئاً ولا يعرف قلبه الشفقة. كان حلقومه يخفق مثل ضفدع. شفتاه مزمومتان.

لم ينس أول قانون أصدره الدكتور مالان في سنة 1948: حظر جميع مجلات الكابتن مارفل وسوبرمان المصورة بالرسوم، ولم يكن يسمح باجتياز الحدود إلا للمجلات ذات الرسوم بالحيوانات، للمجلات التي تهدف إلى إبقاء المرء طفلاً.

يفكّر بالأغاني الأفريكانية التي كان يُطلب إليهم أن ينشدوها

في المدرسة. وكان قد بدأ يكرهها إلى درجة أنه أصبح يرغب في أن يصرخ ويحدث ضجيجاً بالضراط أثناء الغناء، وخاصة عندما ينشدون: Wom ons gaan blomme pluk «وأطفالها يمرحون راقصين في الحقول بين الطيور المغردة والحشرات السعيدة».

في صباح يوم سبت خرج هو وصديقان من أصدقائه إلى ضواحي ووستر على الدراجات وساروا على امتداد طريق دي دورنس. وبعد نصف ساعة اختفوا عن أعين أي كائن بشري. ثم تركوا دراجاتهم على قارعة الطريق وانطلقوا إلى التلال، حيث وجدوا مغارة، فأشعلوا ناراً، وراحوا يتناولون السندويتشات التي جلبوها معهم. وبغتة برز أمامهم ولد أفريكاني ضخم الجثة، مشاكس يرتدي سروالاً قصيراً من الكاكي، وسألهم: «من سمح لكم بالدخول؟»

لاذوا بالصمت وكأن على رأسهم الطير. إنها مغارة: وهل يحتاجون الحصول على إذن للاقتراب من مغارة؟ حاولوا اختلاق أكاذيب لكن بدون جدوى. قال الفتى: يجب أن تنتظروا هنا إلى أن يأتي أبي. وذكر كلمة عصا، وحزام. إنهم سُيلقّنون درساً.

أصيب بدوار من شدة الخوف. إذ كانوا سُيضربون هنا في السهب حيث لا يوجد أحد يمكن أن يغيثهم. ولم يكن يجدي أي نداء بالاستغاثة نفعاً. والأهمّ من كل ذلك أنهم كانوا مذنبين. ألم يكن هو الذي أكدّ للآخرين، عندما تسلقوا السياج، أنها لا يمكن أن تكون مزرعة، بل مجرد مرج؟ لقد كان هو رئيس العصابة، وكانت فكرته منذ البداية، وهو الوحيد الملام في ذلك.

وصل المزارع مع كلبه الألزاسي ذي النظرة المراوغة، والعينين الصفراوين. طرح مرة أخرى الأسئلة، هذه المرة بالإنكليزية، أسئلة لا أجوبة لها. بأي حقّ جاؤوا إلى هنا؟ لماذا لم يطلبوا إذناً؟ ومرة أخرى الدفاع الغبي المثير للشفقة: لم يكونوا

يعرفون، كانوا يظنون أنه مجرد مرج. يقسم لنفسه إنه لن يقع في الخطأ ذاته مرة ثانية. لن يكون غبياً مرة أخرى ويتسلّق سياجاً ظناً منه أنه لن يفلت من العقاب. غبي! يقول لنفسه غبي، غبي، غبي!

لم يكن المزارع يمسك بعصا أو بحزام أو بسوط. قال لهم: «إنكم محظوظون اليوم». يلبثون في مكانهم بدون حراك، لايفقهون شيئاً. «هيا اذهبوا».

وبغباء أخذوا ينحدرون إلى أسفل التل، وحرصوا على ألا يركضوا كي لا يجري الكلب وراءهم، ينبح واللعاب يسيل من فمه، وتوجهوا إلى المكان الذي كانوا قد تركوا فيه دراجاتهم على جانب الطريق. لم يكن ثمة شيء يمكنهم أن يقولوه لتبرير ما حدث لهم. لم يتصرف الأفريكان على نحو سيء. كانوا هم الخاسرين.

10

كنت ترى في الصباح الباكر أطفالاً ملوّنين يخبّون على امتداد الطريق الرئيسي، حاملين علب أقلام رصاص ودفاتر، بل كان بعضهم يحملون حقائب على ظهورهم وهم في طريقهم إلى المدرسة. لكنهم كانوا أطفالاً صغاراً، صغاراً جداً: لكن ما أن يبلغ هؤلاء الأطفال العاشرة أو الحادية عشرة من عمرهم حتى يتركوا المدرسة ويخرجوا إلى العالم لكسب قوتهم اليومي.

وكان قد مُنح في عيد ميلاده مبلغ عشرة شلنات ليصطحب أصدقاءه إلى مكان عام، بدلاً من أن يقيم له والداه حفلة عيد ميلاد في البيت. وكان قد دعا إليها أعزّ ثلاثة من أصدقائه إلى مقهى غلوب. جلسوا إلى طاولة يعلو سطحها الرخام، وطلبوا الموز بالقشدة المجمدة أو البوظة بالشوكولاته والمكسرات. بدا مثل أمير، وكان قد بلغ السرور بهم مبلغه. ولولا أن أفسد هذه المناسبة الأطفال الملوّنون الذين يرتدون أسمالاً بالية، لنجحت نجاحاً رائعاً.

لم ير على وجوه هؤلاء الأطفال الكراهية التي كان مستعداً هو وأصدقاؤه لقبولها، والإقرار بأنهم يستحقّونها لأنهم يملكون مالاً كثيراً، فيما لم يكن يملك هؤلاء الأطفال شروى نقير. بل بالعكس، كانوا مثل الأطفال في السيرك يتمتعون بالمشاهدة، مستغرقين تماماً، لا يفوّتون شيئاً.

لو كان شخصاً آخر لطلب من صاحب مقهى غلوب البرتغالي ذي الشعر المطلي بالبريليانتين أن يبعدهم. فمن الطبيعي إبعاد الأطفال المتسولين عن هذا المكان. ولم يكن عليك سوى أن تلوي وجهك، وتقطّب حاجبيك، وتلوّح بذراعيك وتصيح: Voetsek, hotnot!' Loop! Loop، ثم تتوجه إلى كلّ من ينظر إليك، سواء كان صديقاً أم غريباً، وتقول موضحاً: «إنهم يبحثون عن شيء ليسرقوه. إنهم جميعهم لصوص». لكنه إذا نهض وتوجه إلى البرتغالي فماذا كان سيقوله له؟ «إنهم يفسدون عيد ميلادي، إنه ليس من العدل، فقلبي يعتصر ألماً لدى رؤيتهم؟» فمهما حدث، سواء طردوا من المكان أم لا، فقد فات الآوان. كان الألم قد بدأ يعتصر قلبه.

كان يعتبر الأفريكان شديدي الغضب باستمرار لأن قلوبهم تتألم. أما الإنكليز فكان يعتبرهم أناساً لا يغضبون لأنهم متحصنون وراء أسوارهم، ويحمون قلوبهم جيداً.

كانت تلك مجرد نظرية من نظرياته عن الإنكليز والأفريكان. أما المنغّص الوحيد، فكان لسوء الحظ، تريفليان.

كان تريفليان نزيلاً يقيم معهم في البيت على طريق ليسبيك في روزبانك. البيت الذي كانت تنتصب أمامه شجرة بلوط ضخمة في الحديقة الأمامية حيث كان يعيش سعيداً. وكان تريفليان يشغل أفضل غرفة، ذات نوافذ واسعة وساعة تطل على الشرفة. كان شاباً، طويلاً، ودوداً، ولم يكن يعرف ولا كلمة أفريكانية واحدة، بل كان إنكليزياً بكل معنى الكلمة. وفي الصباح كان تريفليان يتناول طعام فطوره في المطبخ قبل أن يتوّجه إلى عمله. وفي المساء كان يعود ويتناول طعام العشاء معهم. وكان يقفل باب غرفته، التي كانت في جميع الأحوال خارج الحدود، والتي لم يكن فيها شيء مثير للاهتمام سوى آلة حلاقة كهربائية أمريكية الصنع.

وكان قد أصبح أبوه، الذي كان يكبر تريفليان سناً، صديق تريفليان. وفي أيام السبت، كانا ينصتان إلى المذياع معاً، إلى سي كي فريدلاندر وهو يذيع مباريات الركبي من نيولاندس.

ثم وصل إدي. كان إدي فتى ملوّناً في السابعة من العمر، من وادي إدا الذي يقع بالقرب من ستيلينبوش. كان قد أتى ليقوم على خدمتهم: وجرى الاتفاق بين أمّ إدي والعمّة ويني، اللتين كانتا تعيشان في ستيلينبوش، على أن يعيش إدي معهم في روزبانك، وتقدم له وجبات طعامه، وفي الأول من كلّ شهر تقوم أمّه بإرسال حوالة بريدية بقيمة جنيهين وعشرة شلنات لهم، لقاء غسيل الصحون والكنس والمسح.

إلا أن إدي هرب بعد مضي شهرين من الإقامة والعمل في روزبانك. اختفى تحت جنح الظلام، ولم يُكتشف أمر غيابه إلا في صباح اليوم التالي. اسُتدعيت الشرطة، وعُثر على إدي في مكان ليس بعيداً. فقد كان مختبئاً في الأحراش الممتدة على طول نهر ليسبيك. ولم تكن الشرطة هي التي عثرت عليه، بل تريفليان الذي أخذ يجرّه إلى البيت. وكان إدي يبكي ويركل بوقاحة، وحبسه تريفليان في المرصد القديم في الحديقة الخلفية.

كان من الواضح أن إدي سيعاد إلى وادي إدا، خاصة بعد أن زال عنه قناع السعادة، وتأكد لهم أنه سيهرب كلما أتيحت له الفرصة. لذلك لم يعد يجدي العمل معه نفعاً.

إلا أنه قبل تبليغ العمّة ويني في ستيلينبوش، كان يجب على إدي أن ينال جزاءه بسبب المشكلة التي سبّبها: لأنه اضطرهم إلى دعوة الشرطة، ولأنه أفسد عليهم صباح يوم السبت. وكان تريفليان هو من تكفل بتنفيذ العقاب.

وكان بين الحين والآخر يسترق النظر إلى المرصد فيما كانوا ينزلون به العقاب. فقد كان تريفليان يمسك بإدي من رسغيه،

ويجلده على ساقيه العاريتين بسوط جلدي. وكان أبوه هناك أيضاً، يقف جانباً ويراقب مشهد العقاب. كان إدي يصرخ ويتراقص، وكان يذرف الدموع ويسيل من أنفه المخاط. وكان ينتحب ويولول ويقول: «لن أعيدها مرة أخرى!» ثم لاحظا وجوده فأشارا إليه بأن يبتعد.

وفي اليوم التالي، جاء عمّه وعمّته من ستيلينبوش في سيارة سوداء من طراز DKW ليعيدا إدي إلى أمّه في وادي إدا. ولم يحدث أي مظهر من مظاهر الوداع.

إذاً تريفليان، الإنكليزي، هو الذي ضرب إدي، والذي أضحى وجهه، المتورّد البشرة والمائل إلى السمنة بعض الشيء، أشد احمراراً وهو يضرب إدي بالسوط. وكان يشخر وينخر مع كلّ ضربة، ويشتعل غضباً كأيّ أفريكاني. فكيف إذاً يمكن أن يتطابق تريفليان مع نظريته القائلة بأن الإنكليز أناس جيدون؟

كان ثمة دَين مايزال يدين به لإدي، لم يكلّم أحداً عنه. فبعد أن اشترى دراجته من طراز سميث بالنقود التي قُدمت له هدية في عيد ميلاده الثامن، وبعد أن اكتشف أنه لايعرف قيادة الدراجة، كان إدي هو الذي يدفعه في ملعب روزبانك كومون، وعلّمه حتى أتقن فنّ التوازن.

في المرّة الأولى تلك، راح يقود دراجته في دائرة عريضة، يضغط بقوة على الدواسات كي يتمكن من قيادتها فوق التربة الرملية، ثم يعود إلى حيث كان ينتظره إدي. وكان إدي متحمساً يتقافز إلى الأعلى والأسفل. «هل يمكنني أن آخذ دوراً؟ يعطي إدي الدراجة. ولم يكن إدي بحاجة لأن يضغط بقوة: إذ كان ينطلق بسرعة كالريح، يقف على الدواسات وسترته الكحلية القديمة تتطاير خلفه. كان يتفوق عليه في قيادة الدراجة.

ويتذكّر تلك المرات التي كان ينازل فيها إدي في جولة

مصارعة على العشب. ورغم أن إدي كان يكبره بسبعة شهور فقط، ولم يكن جسمه أضخم من جسمه، إلا أنه كان نحيفاً وقوياً، ولم يكن أمامه سوى هدف واحد يجعله المنتصر دائماً. المنتصر، لكنه كان حذراً في نصره. للحظة واحدة فقط، عندما يثبّت خصمه عاجزاً على ظهره، عندها يبدي إدي ابتسامة النصر، وعلى الفور يتدحرج مبتعداً عنه ويجلس على ركبتيه، مستعداً للجولة التالية.

كانت رائحة جسد إدي لا تفارقه في تلك الجولات، وملمس رأسه. الجمجمة المرتفعة في شكل رصاصة، والشعر القصير الخشن.

وكان أبوه يقول إن رؤوسهم أكثر صلابة من رؤوس البيض. ولهذا السبب فهم يتفوقون عليهم في الملاكمة. ويضيف أبوه قائلاً إنهم وللسبب نفسه لا يحسنون لعبة الركبي. ففي الركبي عليك أن تفكّر بسرعة ولا يمكنك أن تكون مغفلاً.

وفي لحظات المصارعة تلك، كانت تنضغط شفتاه وأنفه على شعر إدي. كان يتنشق الرائحة، الطعم: رائحة وطعم الدخان.

وفي عطلة نهاية كلّ أسبوع كان إدي يستحم، يقف في حمّام ضيق في المغسلة المخصصة للخدم ويغتسل بخرقة يرغي عليها الصابون. أما هو وأخوه فكانا يسحبان صندوق قمامة ويضعانه تحت النافذة الصغيرة ويتسلّقانه، ويسترقان النظر إليه. كان إدي عارياً إلا من حزامه الجلدي، الذي كان يحرص على وضعه حول خصره. وعندما كان يلمح الوجهين من النافذة كان يرسم ابتسامة كبيرة على وجهه ويصيح «هيه» ويبدأ يرقص في الحمّام الصغير، ويرشّ الماء، لا يعبأ بستر نفسه.

وذات مرّة قال لأمّه: «إن إدي لا ينزع حزامه في الحمّام».

فقالت له: «دعه يفعل ما يشاء».

لم يسبق له أن قام بزيارة لوادي إدا، مسقط رأس إدي. وكان يخيّل إليه أنه وادٍ بارد ورطب. ولم يكن يوجد في بيت والدة إدي مصباح كهربائي. والسقف يرشح بالماء، ولا يتوقف جميع من في البيت عن السعال. وعندما تخرج من البيت، عليك أن تقفز من حجرة إلى أخرى لتتحاشى برك الماء. ما هو الأمل الماثل أمام إدي الآن بعد أن عاد إلى وادي إدا، وهو في هذه الحالة من الخزي؟

«ماذا تظنين أن إدي يفعل الآن؟»، سأل أمّه.

«لا بد أنه في الإصلاحية».

«ولماذا في الإصلاحية؟».

«الناس من أمثاله ينتهي بهم الأمر دائماً إلى الإصلاحية، وبعدها في السجن».

لم يكن يفهم سبب شعورها بالمرارة تجاه إدي. لم يكن يفهم هذا الشعور بالكراهية والمرارة عندما تكاد تقع الأشياء عشوائيا تحت سياط لسانها بازدراء: الملوّنون وإخوتها وأخواتها والكتب والتعليم والحكومة. لم يكن يكترث حقاً برأيها في ما يتعلق بإدي، ما دامت تغيّر رأيها بين يوم وآخر. وعندما كانت تتحدث بهذه السخرية كان يشعر بأن الأرض تميد من تحت قدميه ويبدأ بالسقوط.

يفكّر بإدي وهو يرتدي سترته القديمة، يجثم متفادياً المطر الذي لا يتوقف عن الهطول في وادي إدا. يدخّن أعقاب السجائر مع الصبية الملوّنين ممن يكبرونه سناً. كان في العاشرة من عمره وإدي، في وادي إدا، في العاشرة من عمره أيضاً. وبعد فترة وجيزة سيصبح إدي في الحادية عشرة من عمره بينما سيبقى هو في العاشرة؛ ثم سيصبح في الحادية عشرة أيضاً. سيصبح دائماً في العمر ذاته، يبقى مع إدي فترة ثم يسبقه. إلى متى سيستمرّ

الأمر هكذا؟ هل سيتمكن من الهرب من إدي؟ إذا شاهد أحدهما الآخر في الشارع ذات يوم، فهل سيعرفه إدي، رغم شرابه وتدخينه عشبة الداغا، ورغم السجن وجميع التشنجات. هل سيتوقّف ويصرخ: Jou moer.

في تلك اللحظة، في البيت الذي يرشح منه الماء في وادي إدا، يقبع مكوراً تحت بطانية كريهة الرائحة، مايزال يرتدي سترته، عارفاً أن إدي يفكّر به. وكان في عيني إدي السوداوين شقّان أصفران. من المؤكد أنه كان يعرف شيئاً واحداً، وهو أن إدي لن يشفق عليه.

11

لم تكن لديهم علاقات اجتماعية كثيرة خارج دائرة الأقارب. وفي المناسبات التي كان يأتي فيها أناس غرباء إلى البيت، كان ينسل هو وأخوه كحيوانين بريين، ثم يعودان ويتسللان ويقفان وراء الأبواب ويسترقان السمع. كما كانا قد ثقبا فتحات في السقف لكي يتلصصا منها، وليتمكنا من الصعود إلى السطح ويختلسا النظر إلى غرفة الجلوس من الأعلى. وكانت أمّهما تشعر بالحرج من الجلبة الصاخبة التي كانا يحدثانها في الأعلى وتقول: «الأولاد يلعبون»، وترتسم على وجهها ابتسامة مشوبة بالتوتر.

كان يتهرب من أحاديث المجاملة لأن صيغها التي تبدأ بالسؤال: «كيف حالك؟» و«كيف الحال في المدرسة؟» تربكه. ولم يكن يعرف كيف يجيب عنها بشكل صحيح، فكان يغمغم ويهمهم ويتلعثم مثل أحمق. ومع ذلك لم يكن يخجل من طيشه وشراسته، ونفاد صبره تجاه الأحاديث المهذبة.

تسأله أمّه: «ألا يمكن أن تكون طبيعياً؟».

فيجيبها بحماس: «إني أكره الناس الطبيعيين».

«أكره الناس الطبيعيين»، يردد أخوه. أخوه الذي كان في السابعة من عمره. وكان يبدي دائماً ابتسامة عصبية، متوترة؛ وكان يتقيأ في المدرسة في بعض الأحيان دون أيّ سبب محدد، لذلك كان يتعين عليهم الذهاب إلى المدرسة وإحضاره إلى البيت.

وبدلاً من الأصدقاء كانت لديهم عائلة. فقد كان أفراد عائلة أمّه الوحيدين في العالم كله الذين كانوا يتقبلونه على علاته. إذ كانوا يتقبلونه ـ فظاً، غير اجتماعي، وغريب الأطوار ـ لا لأنهم لم يكن بإمكانهم أن يأتوا لزيارتهم إذا لم يتقبلوه فحسب، بل لأنهم كانوا قد تربوا كذلك بفظاظة وبشكل غير حضاري. أما عائلة والده فلم تكن تستحسن سلوكه وتربيته على يد أمّه. لذلك كان يبدو مقيداً في صحبتهم؛ وما أن يتمكن من الإفلات منهم حتى كان يبدأ يسخر من أساليبهم المؤدبة (كيف حال أمك؟ أخوك؟ جيدة!). لكن لم يكن ثمة مناص من تفاديهم: فبدون مشاركتهم طقوسهم لم تكن ثمة وسيلة لزيارة المزرعة. لذلك كان يشعر بالحرج والضيق الشديدين، وكان يزدري نفسه لهذه اللهفة، ويستسلم ويقول: «جميعنا بخير».

وكان يعرف أن أباه يقف ضده إلى جانب عائلته كوسيلة للانتقام من أمّه. وكان يعتريه الذعر عندما يتصور نوعية الحياة التي كان سيعيشها لو كان أبوه هو المسؤول عن إدارة الأسرة، وكم ستكون حياة مملّة. وكانت أمّه الوحيدة التي كانت تحول بينه وبين وجود لا يمكنه تحمّله. لكنه كان في الوقت ذاته يشعر بالغضب من بطئها وبلادتها، لأنه كان شديد التعلّق بها لكونها حاميته الوحيدة. فهو ابنها، لا ابن أبيه الذي كان ينكره ويكرهه. ولم يغب عن باله ذلك اليوم منذ قرابة سنتين عندما تركت أمّه أباه لأول مرة، يهجم عليه مثل كلب أُطلق من عقاله (لقد بلغ السيل الزبى، لم أعد أحتمل أكثر من ذلك)، والتمعت عينا أبيه الزرقاوين والغضب يشع منهما، وهو يهزّه ويصفعه.

كان عليه أن يذهب إلى المزرعة لأنه كان يحبها كما لم يكن يحب مكاناً آخر على وجه الأرض، ولم يكن يتخيّل أنه يحبّ مكاناً آخر أكثر منها. فقد كان كلّ شيء معقداً في حبّه لأمّه، وسهلاً وغير معقد في حبّه للمزرعة. ومع ذلك، وحسب ما تسعفه ذاكرته، كان لهذا الحبّ حافة من الألم. وصحيح أنه كان يزور المزرعة، لكنّه لن

يكون بإمكانه أن يقيم فيها إلى الأبد. فلم تكن المزرعة بيته، ولن يكون فيها سوى ضيف، ضيف لا يشعر بالراحة. ويوماً بعد يوم كان هو والمزرعة يذهبان في اتجاهين مختلفين، ينفصلان، لا يقتربان بل يزدادان ابتعاداً. وذات يوم لن يبقى هناك مزرعة، سيفقدها تماماً، وبدأ يشعر من الآن بالحزن على تلك الخسارة.

كانت المزرعة لجدّه. وبعد وفاة جدّه انتقلت إلى العمّ صن، الأخ الأكبر لأبيه، الذي كان الوحيد فيهم ذا ميول للزراعة. أما جميع إخوته وأخواته الآخرين فكانوا في لهفة شديدة لأن يهربوا إلى البلدات والمدن. ورغم ذلك، كانوا ما يزالون يشعرون بأن المزرعة التي تربوا وترعرعوا فيها ماتزال مزرعتهم. لذلك كان أبوه يذهب إلى المزرعة ما لا يقل عن مرة في كلّ سنة، وأحياناً مرّتين، وكان يرافقه.

كان يُطلق على المزرعة اسم فولفونتاين، نافورة الطير. وكان يحبّ كل حجرة فيها، كلّ أجمة، كلّ نصلة عشب. كان يحبّ الطيور التي تسمى باسمها، الطيور التي تحطّ بالآلاف على الأشجار المحيطة بالنبع عند الغسق. يدعو أحدها الآخر، تهدل، ترفرف بأجنحتها وهي تتهيأ لقضاء الليل. ولم يكن يتصور أن أحداً غيره يمكن أن يحبّ المزرعة كما كان يحبها هو.

لكنه لم يكن بوسعه أن يتحدّث عن حبّه، لا لأن الناس العاديين لا يتحدّثون عن مثل هذه الأمور فحسب، بل لأن الاعتراف بها كان يعتبر خيانة لأمّه كذلك. وكان ذلك سيعتبر خيانة، لا لأنها كانت تأتي من المزرعة، المزرعة المنافسة التي تقع في جزء بعيد من العالم التي يتحدث عنها بحبّ وشوق فقط، أو لأنها لم تكن تستطيع زيارتها لأنها بيعت إلى غرباء، بل لأنها لم تكن تلقى ترحيباً في هذه المزرعة، المزرعة الحقيقية، فولفونتاين.

لم تكن تفسر ذلك بهذه الطريقة ـ وكان يشعر بالامتنان لهذا

في نهاية الأمر - لكنه تمكن شيئاً فشيئاً من أن يجمع عناصر القصة. فقد عاشت أمّه مع طفليها في غرفة مستأجرة في بلدة الأمير ألبرت لفترة طويلة خلال الحرب، على الجنيهات الستة في الشهر، التي كان يحوّلها أبوه لها من راتبه كنائب عريف، فضلاً عن الجنيهين اللذين كان يدفعهما صندوق الحاكم العام للتعويض عن المآسي. وخلال تلك الفترة لم يقم أحد بدعوتهم للإقامة في المزرعة، مع أن المزرعة لم تكن تبعد سوى ساعتين. كان يعرف هذا الفصل من القصّة، لأن أباه كان غاضباً وأحسّ بالخجل بسبب طريقة معاملة أهله لهم بعد أن عاد من الحرب.

ولم يكن يتذكر عن بلدة الأمير ألبرت سوى طنين البعوض في الليالي الحارة الطويلة، وأمّه وهي تذرع المكان ذهاباً وإياباً بتنورتها الداخلية، والعرق يتصبب منها، وتتصالب في ساقيها المكتنزين الثقيلين عروق الدوالي، وهي تحاول أن تهدئ وتُسكت أخاه الرضيع، الذي لم يكن يكف عن البكاء. وأيام السأم الفظيعة التي كان يمضيها وراء درفات النوافذ المغلقة محتمياً من الشمس. هكذا كانوا يعيشون، وقد تقطعت بهم السبل، لا يمكنّهم الفقر من التحرّك بانتظار الدعوة التي لم تكن تأتي.

كانت شفتا أمّه تزمان عندما تُذكر المزرعة أمامها. لكنها كانت ترافقهم عندما يذهبون إلى المزرعة لقضاء أعياد الميلاد، وتجتمع العائلة الكبيرة كلها. فكانت توضع الأسرّة والمفارش في كلّ غرفة، وتمدّ على الشرفة الطويلة أيضاً: وفي أحد أعياد الميلاد كان يوجد ستّة وعشرون شخصاً. وكانت عمّته والخادمتان ينهمكن طوال النهار في المطبخ المشبع بالبخار، يطهين، ويخبزن، ويقدمن وجبة بعد أخرى، ثم يليها جولات من الشاي أو القهوة والكعك، فيما يجلس الرجال في الشرفة، يحدّقون بتكاسل في كارو ذات الشمس الساطعة، يتبادلون أقاصيص عن الأيام الخوالي.

وبشره كبير أخذ يستوعب الجو المحيط، يستوعب بسعادة المزيج السريع بين اللغتين الإنكليزية والأفريكانية، لغتهم المشتركة عندما كانوا يجتمعون. كان يحبّ هذه اللغة الراقصة المضحكة، بأحرفها التي تنسل وتنزلق هنا وهناك. كانت أخف وطأة وأجمل من اللغة الأفريكانية التي كانوا يدرسونها في المدرسة، والمثقلة بالتعابير الاصطلاحية التي يفترض أنها كانت تخرج من أفواه الناس، لكن يبدو أنها لم تكن تأتي إلا من النزوح الكبير، تعابير غبيّة بليدة عن العربات والماشية ولجام الماشية.

في أول زيارة له إلى المزرعة، عندما كان جدّه مايزال حياً، كانت جميع الحيوانات التي قرأ عنها في القصص ماتزال موجودة في الحظائر: الخيول والحمير والأبقار مع عجولها والخنازير والبط، ومجموعة من الدجاج، والديك الذي يصيح محيياً الشمس، والعنزات والتيوس ذات اللحى. أما بعد وفاة جدّه فقد بدأت الحظيرة تتناقص، حتى لم يعد فيها شيء سوى الخراف. فقد بيعت الخيول أولاً، ثم تحوّلت الخنازير إلى لحم خنزير (رأى عمه يطلق النار على خنزير، فجاءت الرصاصة وراء أذنه، فنخر وضرط ضرطة قوية وتهاوى على ركبه أولاً، ثم على جانبه وهو يرتعش). ثم اختفت الأبقار والبطات.

كان السبب في اختفاء تلك الحيوانات أسعار الصوف. فقد كان اليابانيون يدفعون جنيهاً لقاء الرطل الواحد من الصوف: وكان شراء جرّار أسهل من تربية الخيول، والقيادة بسيارة ستوديبيكر الجديدة على طريق فراسيربيرغ أسهل من ركوب الدواب، وشراء زبدة مجمّدة وحليب مجفف أسهل من حلب البقرة وخض الحليب لاستخراج القشطة. ولم يعد ثمة شيء مهم سوى الخراف بصوفها الذهبي.

كما أُمكن التخلص من عبء الزراعة. فقد كانت الفصّة

المحصول الوحيد الذي كان مايزال يُزرع في المزرعة، في حال لم يتبق شيء للخراف أن ترعاه. أما من الأشجار المثمرة فلم تبق سوى بيارة برتقال، تعطي سنة بعد أخرى أحلى أنواع برتقال «أبو صرة».

وبعد أن كان الجميع يستيقظون منتعشين بعد قيلولة بعد الظهر كانت عمّاته وأعمامه يتجمعون على الشرفة لاحتساء الشاي وتبادل القصص. وكان جلّ حديثهم يدور حول المزرعة أيام زمان. يتذكّرون أباهم «المزارع المحترم» الذي كان يحتفظ بعربة ومقص لجز الصوف، وكان يزرع الذرة في الأراضي الواقعة أسفل السدّ التي كان يقوم بدرسها وطحنها بنفسه. وكان يسمعهم يقولون بتنهدة: «نعم، يا لها من أيام ولّت».

كانوا يحبّون الحنين إلى الماضي، لكن لا أحد منهم كان يريد أن يعود إليه. كان هو يريد ذلك. كان يريد أن يعود كلّ شيء كما كان في الماضي.

وفي إحدى زوايا الشرفة، وتحت ظلّ العريشة، كانت تعلّق قنينة ماء في الخيش. وكلما ازدادت حرارة النهار ازدادت برودة الماء ـ معجزة، كمعجزة تعليق اللحم في مخزن مظلم لكي لا يفسد، مثل معجزة القرع الذي يوضع على السطح تحت الشمس اللاهبة ويبقى طازجاً. كان يبدو أن شيئاً لا يفسد في المزرعة.

وكان الماء في القنينة بارداً بشكل سحري، لكنه لم يكن يصبّ أكثر من جرعة واحدة في كلّ مرة. كان مزهواً لأنه يشرب قدراً ضئيلاً. وكان يأمل في أن يجعله ذلك في وضع جيد، إذا ضاع ذات مرة في السهب. كان يريد أن يصبح إحدى مخلوقات الصحراء، كالسحلية.

وفوق البيت الريفي تماماً، كان يقوم سدّ من الحجارة يبلغ حجمه اثني عشر قدماً مربعاً، يتم ملؤه بمضخّة تعمل بالريح،

ويزوّد البيت والحديقة بالماء. وفي أحد الأيام الحارة أنزل هو وأخوه حوض حمام حديدي إلى السدّ، وتسلقاه متعثرين، وراحا يجذفان به ذهاباً وإياباً عبر سطح الماء.

كان يخاف من الماء، واعتبر هذه المغامرة وسيلة للتغلّب على خوفه. وأخذ مركبهما يهتز ويتمايل في وسط السدّ. ومن المياه الملونة كانت تنعكس أعمدة من وميض الضوء، ولم يكن يسمع شيء سوى صوت طنين حشرة السيكادا الممتلئة البطن. ولم يكن يفصله عن الموت سوى صفيحة رقيقة من المعدن. ورغم ذلك كان يشعر بأمان شديد، إلى حد أنه كاد يغفو. لكنها المزرعة التي لم يكن من الممكن أن يحدث فيها مكروه.

لم يركب قارباً من قبل سوى مرة واحدة، عندما كان في الرابعة من العمر. وكان هناك رجل (من هو؟ حاول أن يتذّكر، لكنه لم يستطع) يجذف في البحيرة في خليج بليتينبيرج. وكان من المفترض أن تكون نزهة ممتعة، لكنه كان طوال الوقت جالساً لا يتحرك، مثبتاً عينيه على الشاطئ البعيد. ويذكر أنه ألقى نظرة إلى جانبه مرة واحدة فقط. كانت أعشاب الماء تطفو وتتموج قليلاً في الماء تحتهم. وبدا أن الخوف تملكه، وأحس بدوار في رأسه. وكانت الألواح الهشة تلك التي كانت تصدر أنيناً مع كلّ ضربة بالمجذاف كما لو كانت على وشك أن تتصدّع هي التي حمته من أن يلقى حتفه. تمسّك بإحكام وبقوة أكبر وأغمض عينيه محاولاً أن يتغلب على الرعب في داخله.

كانت تعيش عائلتان ملوّنتان في فولفونتاين، وكان لكلّ عائلة منهما بيت خاص بها. وكان ينتصب كذلك بالقرب من جدار السدّ البيت الذي كان يعيش فيه أوتا ياب، الذي زال عنه السقف الآن. وكان أوتا ياب يعيش في المزرعة قبل جدّه، ويتذكّر أوتا ياب ذلك الرجل الهرم ذو المقلتين البيضاوين بياض الحليب واللتين

لاتريان، وذو اللثة الخالية من الأسنان واليدين المليئتين بالعقد والبثور، يجلس في مقعد تحت أشعة الشمس، المقعد الذي جلبوه له قبل أن يموت، ربما ليباركه، لكنه لم يكن متأكداً من ذلك. ومع أن أوتا ياب ذهب الآن فإن اسمه مايزال يُذكر بإجلال واحترام. ومع ذلك عندما كان يسأل ما الذي يجعل أوتا ياب مميّزاً، كانت الأجوبة تأتي عادية تماماً. فقد قالوا له إن أوتا ياب كان ينتمي إلى تلك الأيام التي لم تكن توجد فيها أسيجة تحول دون تسلل الثعالب، الأيام التي كان فيها الراعي، الذي يأخذ خرافه لترعى في أحد المعسكرات البعيدة، يتوقّع أن يعيش مع قطيعه ويحرسه لأسابيعٍ طويلة. لقد كان أوتا ياب ينتمي إلى ذلك الجيل الذي اندثر. هذا كلّ ما في الأمر.

إلا أنه كان يشعر بما كان يكمن وراء هذه الكلمات. فقد كان أوتا ياب جزءاً من المزرعة، ومع أن جدّه هو الذي اشتراها وأصبح مالكها القانوني، فإن أوتا ياب جاء معها، وكان يعرفها ويعرف أغنامها والسهب والطقس أكثر مما كان يعرفه القادم الجديد. ولذلك كانت كلمة أوتا ياب مسموعة، كما لم تكن مسألة التخلّص من روس ابن أوتا ياب واردة، الذي أصبح الآن في منتصف العمر، رغم أنه لم يكن عاملاً ممتازاً، ولا يمكن الاعتماد عليه، وكان ينحو لارتكاب أخطاء.

كان من المفهوم أن روس سيعيش وسيموت في المزرعة ثم يخلفه أحد أبنائه. أما فريك، المستأجر الآخر، فكان أصغر سناً وأكثر نشاطاً من روس، وأسرع في تنفيذ أعماله ويمكن الاعتماد عليه بشكل أكبر. ورغم ذلك فلم يكن ينتمي إلى المزرعة ولن يبقى فيها بالضرورة.

آتياً من ووستر حيث لا يحصل الملونون على أي شيء إلا بالاستجداء، كان يشعر بالراحة في المزرعة لأن العلاقات بين عمّه

والأفريكانيين كانت جيدة ورسمية. ففي صباح كلّ يوم كان عمّه يتشاور مع رجاله حول الأعمال التي كان يتوجب عليهم القيام بها في ذلك اليوم، ولم يكن يعطيهم أوامر، بل كان يقترح عليهم الأعمال التي يجب أن يقوموا بها، الواحدة تلو الأخرى، كما لو كان يرمي بجميع أوراقه على الطاولة، ويرمي كل رجل من رجاله أوراقه أيضا. وكان يتخلل ذلك فترات من الصمت والتفكير لا يحدث خلالها شيء. وفجأة، وعلى نحو غامض، كان يبدو أن العمل كله قد أنجز: من سيذهب إلى أين، ومن سيعمل ماذا. «لننطلق!» ويضع روس وفريك قبعتيهما وينطلقان بسرعة.

وكان الشيء نفسه يحدث في المطبخ. فقد كانت امرأتان تعملان في المطبخ: ترين زوجة روس، وابنته لينتجي من زوجة أخرى. وكانتا تصلان في الصباح عند الفطور وتغادران بعد انتهاء وجبة الطعام عند الظهر، وجبة الطعام الرئيسية في اليوم، وهي الوجبة التي كانت تدعى العشاء هنا. وكانت لينتجي شديدة الخجل من الغرباء، فكانت تخفي وجهها وتضحك عندما كان يكلمها أحد. وكان يقف عند باب المطبخ يستمع إلى الحديث الدائر بين عمّته والمرأتين بصوت خفيض، الحديث الذي كان يحبّ أن يتنصت عليه: الثرثرة النسائية الناعمة المريحة، قصص تنتقل من أذن إلى أذن. ولم تكن القصص تتناول ما كان يجري في المزرعة فقط، بل كذلك قصص القرية الواقعة على طريق فراسيربيرغ والأماكن الواقعة خارج القرية، وجميع المزارع الأخرى في المنطقة أيضاً: شبكة بيضاء ناعمة من الثرثرة تحاك حول الماضي والحاضر، شبكة تحاك في اللحظة ذاتها في المطابخ الأخرى أيضاً، مطبخ آل فان رينسبيرغ، ومطبخ آل ألبرت، ومطبخ آل نيجريني، وشتى مطابخ بوتيس: من سيتزوّج من، حماة من ستجري عملية ولأي سبب، ابن من متفوق في المدرسة، وابنة من واقعة في ورطة، ومن زار من، ومن تلبس ماذا ومتى.

إلا أنه كان يهتم بروس وفريك أكثر. كان يتحرق لمعرفة كيف كانا يعيشان. هل يرتديان صداري وملابس داخلية مثل البيض؟ هل كان يوجد لكلّ منهما سرير؟ هل كانا ينامان عاريين أم بملابس عملهما، أم يرتديان بيجامة؟ هل كانا يتناولان وجبات طعام ملائمة؟ هل كانا يجلسان إلى المائدة ويتناولان طعامهما بالشوكة والسكين؟

لم تكن ثمة طريقة للإجابة عن كلّ هذه الأسئلة، لأنه لم يكن يُشجع على زيارتهما في بيتيهما. فقد قالوا له إنه ليس من اللائق أن يزورهما لأن ذلك سيحرجهما.

وكان يريد أن يسألهم إن لم يكن من المحرج أن تقوم زوجة روس وابنته بالعمل عندهم في البيت، تطهيان وجبات الطعام، وتغسلان الثياب، وترتبان الأسرّة؟ فلماذا يشعرون بالإحراج إذا قام بزيارتهم في بيتهم؟

وكان يعرف أنها حجّة، لكن ثمة عيب فيها. فقد كان يشعر بالحرج من عمل ترين لينتجي عندهم في البيت. ولم يكن يشعر بالراحة عندما كان يمر بالقرب من لينتجي في البهو، فتتظاهر أنها لم تره، وكان يتظاهر بأنها لم تكن هناك. ولم يكن يعجبه أن يرى ترين جاثية على ركبتيها أمام حوض الغيسل وهي تغسل ثيابه. ولم يكن يعرف كيف يجيبها عندما كانت تحدثه بصيغة الشخص الثالث، وتدعوه «kleinbaas» «السيد الصغير»، كما لو كان غير موجود. كان يشعر بحرج شديد.

أما بالنسبة لروس وفريك، فكان الأمر أسهل بكثير. ومع ذلك فقد كان يتعين عليه أن يبذل جهداً كبيراً ويلوي عنق الجمل والعبارات ليتفادى أن يقول لهم «jy» عندما يخاطبونه بكلمة «kleinbaas». ولم يكن متأكّداً إن كان عليه أن يعتبر فريك رجلاً أم صبياً، لأنه كان من الحمق أن يعامل فريك كرجل. فلم يكن يعرف

متى يتوقف الناس الملوّنون بشكل عام، وسكان كارو بشكل خاص، متى يتوقّفون عن كونهم أطفالاً ويصبحون رجالاً أو نساء. وقد بدا له أن هذا يحدث في وقت مبكّر جداً وبشكل مفاجئ: ففي يوم يلعبون، وفي اليوم التالي يخرجون مع الرجال يعملون، أو يغسلون الصحون في مطبخ أحدهم.

وكان فريك لطيفاً ومعسول الكلام. وكانت عنده دراجة ذات عجلات غليظة وغيتار. وفي المساء كان يجلس خارج غرفته ويعزف غيتاره، ترتسم على وجهه ابتسامة ساهمة. وفي عصر أيام السبت كان يذهب إلى مكان يقع على طريق فراسيربيرغ ويبقى هناك حتى مساء يوم الأحد. وكان يعود بعد حلول الظلام بفترة طويلة: ومن على أميال عديدة، كان يمكنهم رؤية النقطة الصغيرة المتردّدة المنبعثة من مصباح دراجته. وكان يبدو له أن قطع تلك المسافة الكبيرة على دراجته عمل بطولي. ولو ترك الأمر له لاعتبر فريك بطلاً.

كان فريك مستأجراً، يدفع لهم إيجاراً، وكان يمكن أن يُقدم له إشعار في أية لحظة فيحزم أمتعته ويرحل. بيد أن رؤية فريك وهو جالس على ردفيه، وغليونه في فمه، محدقاً بعيداً في السهب، كان يجعله يفكر في أن فريك ينتمي إلى هذا المكان أكثر مما كان ينتمي إليه آل كويتزي ـ إن لم يكن آل فولفونتاين وكارو كذلك. ـ فكارو هي بلد فريك، بيته، أما آل كويتزي، فلم يكونوا يفعلون شيئاً سوى احتساء الشاي والثرثرة وهم جالسون على شرفة البيت الريفي، مثل طيور السنونو، موسميّين، اليوم هنا، وغداً يذهبون، بل مثل عصافير الدوري، تزقزق، تنتقل بسرعة، وتعيش لفترات قصيرة.

كان الصيد أجمل شيء في المزرعة، أفضل من كلّ شيء. وكان لدى عمّه بندقية واحدة فقط، بندقية ثقيلة من طراز لي إنفيلد 303 تطلق طلقة كبيرة جداً بالنسبة لأية طريدة (وذات مرة

رمى أبوه أرنباً برياً بها ولم تبق منه سوى أشلاء دامية). لذلك كان عندما يزور المزرعة كانوا يستعيرون من أحد الجيران بندقية قديمة من عيار 22. وكانت تطلق خرطوشة واحدة، وتُعبأ في المغلاق مباشرة. وعندما كانت الطلقة تحيد عن هدفها كانت تحدث دوياً في أذنيه يستمر ساعات طويلة. ولم يكن بإمكانه أن يصطاد بهذه البندقية شيئاً إلا بعض الضفادع عند السدّ، وبعض العصافير في البستان. ومع ذلك، كان يشعر بالإثارة في أيام الصباح المبكّرة عندما كان ينطلق هو وأبوه ببندقيتيهما بحثاً عن صيد: ظباء وبط وأرانب برية.

كان هو وأبوه يأتيان إلى المزرعة للصيد بعد كانون الأول. وكانا يستقلان القطار - لا قطار كارو السريع أو القطار السريع البرتقالي، إن لم يكن القطار الأزرق، وكانت جميعها مرتفعة الثمن، ولم تكن تتوقف في فراسيربيرغ رود - بل كانا يستقلان قطار المسافرين العادي، القطار الذي كان يتوقّف في جميع المحطات، حتى غير المعروفة منها، الذي كان يتوقف أحياناً عند التحويلات وينتظر حتى يمرّ القطار السريع بسرعة كبيرة. كان يحبّ هذا القطار البطيء. كان يحبّ أن ينام بهدوء تحت الأغطية البيضاء الهشّة والبطانيات الزرقاء الداكنة التي كان يجلبها المشرف على عربات النوم، وكان يحبّ أن يستيقظ في الليل عند محطة هادئة في وسط مكان مجهول، يسمع فحيح المحرّك وهو يخلد للراحة، وطرطقة مطرقة رئيس العمال وهو يختبر العجلات. وعند الفجر عندما كانا يصلان إلى فراسيربيرغ رود يكون العمّ صن بانتظارهما، وترتسم على وجهه ابتسامته الواسعة، وهو يعتمر قبعته الملطخة بالزيت، ويقول: «لقد بدأت تكبر!» ويصفّر عبر أسنانه، ويضعون حقائبهم في سيارة ستوديبيكر وينطلقون في رحلة طويلة.

كان يقبل بدون تردد التنوع في الصيد في فولفونتاين. وكان

يقبل أنهم حققوا صيداً جيداً إذا بدؤوا بأرنب بري واحد أو سمعوا صوت غرغرة ظبيين من بعيد. وكان ذلك يشكل قصة كافية يروونها إلى باقي أفراد العائلة، حيث كانوا يجلسون على الشرفة يحتسون القهوة بعد عودتهم، والشمس ماتزال في كبد السماء. وفي معظم الصباحات لم يكن ثمة شيء يتكلمون عنه، لا شيء البتة.

ولم يكن ثمة سبب يجعلهم يخرجون إلى الصيد تحت لهيب قيظ النهار، عندما تكون الحيوانات التي يريدون اقتناصها تغفو في الظلّ. أما في وقت متأخر من بعد الظهر، فكانوا يخرجون أحياناً لاستطلاع طرق المزرعة في ستوديبيكر، وكان عمه صن يقود السيارة ويجلس أبوه في المقعد بجانبه حاملاً بندقية 303، أما هو وروس فكانا يجلسان في المقعد الخلفي.

وكانت مهمة روس أن يقفز خارجاً، ويفتح باب المعسكر للسيارة، وينتظر حتى تمر السيارة ليغلق الباب وراءه، بوابة بعد أخرى. أما في رحلات الصيد تلك فقد كان فتح البوابة أحد الامتيازات الممنوحة له، بينما كان روس يراقبه ويهز رأسه موافقاً.

كانوا يصطادون حيوان باو الأسطوري. لكن بما أن هذا الحيوان لم يكن يظهر إلا مرّة أو مرّتين في السنة فقط فقد كان نادر الوجود حقاً، وكانت تُفرض غرامة قدرها خمسون جنيهاً على من يطلق النار عليه. لذلك، كانوا حتى لو شاهدوه حقاً يكتفون باصطياد الظباء. وكانوا يصطحبون معهم روس إلى الصيد، لأنهم كانوا يعتقدون أنه كان حادّ النظر لمجرد أنه كان من سكان الأدغال.

وبالفعل كان روس أول من يرى الطريدة. ونقرة واحدة على سقف السيارة كانت تعني أنه رأى طير كورهان: وهو طير بني رمادي اللون بحجم دجاجة صغيرة، تراه يخّب بين الأحراش في

مجموعات من طيرين أو ثلاثة طيور. فتتوقف السيارة، ويسند أبوه البندقية من عيار 303 على النافذة ويسدد؛ ثم يتردد صدى الطلقة في السهب. وكانت الطيور في بعض الأحيان تطير فزعاً، وكانت تبدأ في معظم الأحيان تخبّ بسرعة أكبر، ويعلو صوت الغرغرة الذي تتميز به فتحدث مزيداً من الضوضاء. ولم يحالف أبوه الحظ أبداً في إصابة واحد من تلك الطيور. لذلك لم يتمكن من رؤية أحد تلك الطيور عن كثب التي يعرّفها قاموس اللغة الأفريكانية الإنكليزية بأنها «دجاجة أجمة برية».

فقد كان أبوه جندياً في سلاح المدفعية في الحرب، وكان أحد أفراد أطقم مدافع بوفورس المضادة للطائرات المخصصة لإسقاط الطائرات الألمانية والإيطالية. وكان يتساءل دائماً إن كان قد أسقط طائرة واحدة في حياته: وبالطبع لم يكن يتبجّح بذلك. كيف أصبح مدفعياً؟ وخاصة أنه لم يكن يملك موهبة في ذلك. هل كان يُكلف الجنود بتنفيذ المهمات عشوائياً؟

وكان الصيد في الليل السبيل الوحيد ليصيبا بعض النجاح، لكنه سرعان ما كان يكتشف سبب ذلك، وكان أمراً يدعو إلى الخجل ولم يكن بوسعه أن يتفاخر به. وكانت الطريقة في غاية البساطة، فقد كانوا يستقلون السيارة من طراز ستوديبيكر بعد العشاء، وكان العمّ صن يقود السيارة في الظلام عبر حقول الفصة. وعند نقطة محددة كان يتوقّف ويشعل الأضواء الأمامية. وعلى مسافة لا تبعد ثلاثين ياردة كان يقف ظبي جامداً في مكانه، وتتوجه أذناه نحوهم، وكانت عيناه المتلألئتان تنعكسان في ضوء السيارة.
- skiet - يقول عمّه لكي لا يصدروا صوتاً، ويطلق أبوه الطلقة فيتهاوى الظبي.

كانوا يقولون لأنفسهم إن الصيد بهذه الطريقة مقبول لأن الظبي آفة، يتناول الفصة التي من المفروض أن ترعاها الأغنام.

لكنه عندما كان يرى كم كان الظبي المقتول صغيراً جداً، لا يتجاوز حجمه حجم كلب البودل، كان يتبين له أن عذرهم واه. كانوا يصطادون في الليل لأنهم لم يكونوا يجيدون إصابة أيّ حيوان في النهار.

ومن الناحية الأخرى، كان لحم الغزال، الذي يُنثر عليه الخلّ ثم يُشوى (كان يراقب عمّته وهي تحدث شقوقاً في اللحم الداكن وتحشوه بالقرنفل والثوم)، ألذ من لحم الحمل. منعشاً وطرياً، طرياً جداً إلى درجة أنه كان يذوب في الفم. كان كلّ شيء في كارو لذيذاً، الخوخ، والبطيخ، والقرع، ولحم الضأن، كما لو كان كلّ ما يقتات عليه في هذه الأرض مباركاً.

لم يكونوا صيّادين جيدين. ومع ذلك كان يحبّ ثقل البندقية في يده، وصوت وقع أقدامهم وهم يطوّون الرمل النهري الرمادي اللون، والصمت الذي كان يخيم ثقيلاً كغيمة عندما يتوقفون. ودائماً المشهد الطبيعي المحيط بهم، المشهد الطبيعي الرائع من التربة الحمراء والصفراء والرمادية والخضراء بلون الزيتون.

وفي اليوم الأخير من الزيارة، وحسب الطقوس المتبعة، كان يسمح له أن يطلق ما تبقى معه من طلقات. 22 طلقة تقبع في علبة من القصدير فوق عمود السياج. كان وقتاً عصيباً بالنسبة له، إذ لم تكن البندقية المستعارة جيدة، ولم يكن رامياً جيداً. وعندما كانت الأسرة تراقبه من الشرفة يبدأ بإطلاق طلقاته بسرعة، ولم يكن يصيب الهدف في معظم الأحيان.

وفي صباح أحد الأيام، وفيما كان يصطاد الظباء وحيداً عند قاع النهر تعطلت بندقيته. ولم يتمكن من إخراج علبة الطلقات التي علقت في المغلاق. فأعاد البندقية إلى البيت، إلا أن العمّ صن وأباه كانا ما يزالان في الحقل. فأشارت عليه أمّه أن يسأل روس أو فريك. راح يبحث عن فريك في الإسطبل، لكن فريك رفض أن يلمس

البندقية، وكذلك فعل روس عندما وجده. ورغم أنهما لم يبديا رغبة في ذلك بدا له أنه كان يتملكهما رعب مقدس من البنادق. فاضطر أن ينتظر عمّه حتى يعود ويفتح علبة الطلقات بمطواته. وعندما قال متذمراً: «لقد طلبت من روس وفريك أن يفتحاها، لكنهما رفضا مساعدتي»، هزّ عمّه رأسه وقال: «يجب ألا تطلب منهما أن يلمسا السلاح، وهما يعرفان أنه يجب عليهما ألا يمسّاه».

يجب ألا يمسا السلاح. لم لا؟ لم يقل له أحد. لكنه يتفكر كثيراً في كلمة «must'nt»، «يجب ألا» التي كان يسمعها في المزرعة أكثر بكثير مما كان يسمعها في أي مكان آخر، حتى أكثر مما كان يسمعها في ووستر. يا لها من كلمة غريبة، ومن السهل أن تخطئ في تهجئتها بسبب حرف «t» الصامت المستتر وسط الكلمة. «يجب ألا تمسّ هذا». «يجب ألا تأكل ذاك». هل سيكون هو الثمن إذا أراد أن لا يذهب إلى المدرسة، ويتوسل أن يعيش هنا في المزرعة، أن يتوقّف عن طرح أسئلة، أن يطيع كلّ عبارة تبدأ بـ «يجب ألا»، نفذّ فقط ما يطلب منك؟ هل سيكون على استعداد لأن يذعن ويدفع ذلك الثمن؟ ألا توجد طريقة للعيش في كارو، المكان الوحيد في العالم الذي يريد أن يكون فيه ـ كما كان يريد أن يعيش: دون أن ينتمي إلى عائلة؟

كانت المزرعة ضخمة، ضخمة إلى حد أن الدهشة اعترته عندما وصل هو وأبوه إلى سياج عبر قاع النهر في إحدى جولات الصيد، قال أبوه إنهما وصلا إلى الحدود الفاصلة بين فولفونتاين والمزرعة المجاورة. فقد كانت فولفونتاين في مخيلته مملكة بحد ذاتها، ولم يكن يوجد وقت كاف في حياة المرء لكي يتعرف عليها كلها، لكي يتعرف على كلّ حجرة وأجمة فيها. إذ لا يوجد وقت كاف لدى المرء عندما يقع في غرام مكان مثل هذا الحبّ العارم.

لكنه كان يعرف فولفونتاين على نحو أفضل في الصيف، عندما تنبسط الأرض أمامه تحت أشعة الشمس الساطعة الساقطة من السماء المبهرة للبصر. ومع ذلك كان لفولفونتاين أسرارها أيضاً، أسرار لا تعود إلى الليل والظلّ فقط، بل تعود كذلك إلى أوقات العصر القائظ عندما يتراقص السراب في الأفق، ويعصف الهواء في أذنيه. وعندما كان يحين موعد القيلولة ويخلد الجميع إلى النوم بسبب حرارة الشمس القائظة، كان يتسلل على أطراف أصابعه ويخرج من البيت ويتسلّق التلّ إلى متاهة الحظائر ذات الجدران الحجرية التي تعود إلى أيام زمان، عندما كانت تساق الخراف بالآلاف من السهب لعدّها أو جزّ صوفها أو تبليلها بالماء. وكانت سماكة جدران الحظيرة المشيدة من أحجار رمادية منبسطة، تبلغ قدمين، وكانت أعلى من رأسه، وكانت تنقل بعربة يجرها حمار. وكان يحاول أن يتخيّل قطعان الأغنام التي نفقت جميعها ولم يعد منها شيء الآن، وهي تحتمي من أشعة الشمس اللاهبة في ظلال هذه الجدران. يحاول أن يتصور فولفونتاين كما يجب أن تكون عندما كان البيت الكبير وأبنيته الإضافية وحظائره ماتزال في طور البناء: موقع عمل دؤوب كأسراب النمل، سنة بعد سنة. أما الآن فقد أبيدت بنات آوى التي كانت تفترس الخراف، التي أطلقت عليها النار أو أنها سمّمت، وبدأت الحظائر، التي لم تعد تستخدم، تتهاوى وتصبح خراباً.

كانت جدران الحظيرة تتهاوى على مسافة أميال في أعلى سفح التل وأسفله. ولم يعد ثمة شيء ينمو هنا: فقد أصبحت الأرض مستوية بسبب انخفاضها وأصبحت بوراً. ولم يكن يعرف كيف أصبحت كذلك، فقد أصبح لونها أصفر على نحو غير طبيعي. وما أن يصبح داخل الجدران حتى كان ينقطع عن كلّ شيء في العالم سوى السماء. وكانوا قد حذروه بعدم المجئ إلى هذا المكان بسبب الأفاعي، وذلك لأن أحداً لن يسمعه إذا صرخ طالباً

المساعدة. وقالو له إن الأفاعي تعربد في أوقات العصر القائظة كهذا: تخرج من جحورها ـ وهي سامة جداً ـ لتستمتع بدفء الشمس، كي تدفئ دمها البارد.

ومع أنه لم يكن قد رأى حتى الآن أفعى في الحظائر، كان يحذر في كلّ خطوة يخطوها.

وكان فريك قد عثر على حية خلف المطبخ، حيث تعلّق النساء غسيلهن. ضربها بعصا حتى ماتت ثم سحب الجسد الأصفر الطويل إلى الأحراش. ولأسابيع عديدة كانت النسوة يرفضن الذهاب إلى هناك. وقد سمع ترين تقول إن الأفاعي تتزوّج مدى الحياة، لذلك ما أن تقتل الذكر حتى تأتي الأنثى لتنتقم.

وكان الربيع الذي يحل في شهر أيلول أفضل فترة لزيارة كارو، رغم قصر العطلة الدراسية التي لم تكن تتجاوز أسبوعاً واحداً. وفي شهر أيلول من إحدى السنوات كانوا في المزرعة عندما وصل جزازو الصوف. ظهروا فجأة، رجال شرسون جاؤوا على دراجات عادية محمّلة بفرش وقدور.

وسرعان ما اكتشف أن جزازي الصوف أناس يتمتعون بخاصية شديدة. وأن مجيئهم إلى المزرعة كان ينطوي على حظ جيد. وكانوا يختارون كبشاً مخصياً سميناً وينحرونه. وكانوا يقيمون في الإسطبل القديم، الذي كانوا يحولونه إلى ثكنة لهم، ويوقدون النار في وقت متأخر من الليل، وهم يستمتعون بوقتهم.

استمع إلى مناقشة طويلة بين العمّ صن وزعيم الجزازين، الذي كان رجلاً داكن اللون وعنيفاً جداً، ربما كان ينتمي إلى السكان الأصليين، ذا لحية مدبّبة وبنطال مشدود بحبل. كانا يتحدثان عن الطقس، وعن المراعي في منطقة الأمير ألبرت وفي منطقة بيوفورت وفي منطقة فراسيربيرغ، وعن الأجر. لغة الجزازين الأفريكانيين فظة للغاية، مليئة بتعابير غريبة لا تكاد

تفهمها. من أين يأتون؟ هل هناك ريف أعمق من ريف فولفونتاين، أرض أكثر عزلة عن العالم؟

وفي صباح اليوم التالي، وقبل الفجر بساعة، استيقظ على أصوات حوافر الخراف التي كانت الدفعات الأولى منها تُساق أمام البيت لإدخالها إلى الحظائر بجانب سقيفة الجزّ. وبدأت العائلة تصحو. فقد كانت تسمع حركة في المطبخ، وفاحت رائحة القهوة. ومع انبعاث أول ضوء ارتدى ثيابه بحماس ليتناول طعامه أيضاً.

كُلف بمهمة. فقد كُلِّف بأن يمسك كوباً من الصفيح مليئاً بحبات الفاصولياء المجفّفة. فما أن كان الجزاز ينتهي من جزّ خروف، حتى كان يطلقه بصفعة على إليته، ويرمي الفروة المجزوزة على طاولة للفرز. وكان الخروف الوردي العاري، الذي كان ينزف من الأماكن التي قرضه فيها المقصّ، يجري خبباً وبعصبية إلى الحظيرة الثانية، وفي كلّ مرة كان الجزاز يأخذ حبة فاصولياء من الكوب. ويومئ ويقول بأدب «شكراً».

وعندما كان يناله التعب من الإمساك بالكوب، (كان الجزازون يأخذون حبات الفاصولياء هم أنفسهم، ولأنهم كانوا ريفيين فلم يسمعوا كثيراً عن الغش)، وكان هو وأخوه يساعدان في تعبئة البالات، فيتقافزان فوق كتل الصوف السميكة الحارة والزيتية. وكانت تنضم إليهما ابنة عمه أغنيس أيضاً، وأختها اللتان تأتيان من سكيبِرسكلوف. وكانوا يتعثرون هم الأربعة فيسقط أحدهم فوق الآخر، يضحكون ويثبون كما لو كانوا فوق فراش ضخم محشو بالريش.

وكانت أغنيس تشغل مكانة خاصة في حياته لم يكن يفهمها هو نفسه. فقد وقعت عيناه عليها لأول مرة عندما كان في السابعة من عمره. فبعد أن وجهت لهم دعوة لزيارتهم في سكيبِرسكلوف، وصلوا في وقت متأخر من بعد ظهر أحد الأيام بعد رحلة طويلة

بالقطار. كانت الغيوم تتناثر في السماء، ولم تكن الشمس تشيع الدفء. وفي نور النهار الشتوي البارد كان السهب يمتد بلون أزرق يشوبه لون أحمر داكن دون أثر للون الأخضر. حتى أن البيت الريفي كان يبعث على الكدر. فقد كان مستطيلاً شديد البياض ذا سقف منحدر من الزنك. ولم يكن يشبه البيت في فولفونتاين على الإطلاق، ولم يرغب في البقاء هناك.

وأصبحت أغنيس، التي كانت تكبره ببضعة أشهر، رفيقته. فأخذت ترافقه في نزهات يقومان بها إلى السهب. وكانت تمشي حافية القدمين، حتى أنها لم تكن تمتلك حذاءً. وفي ذات يوم غابا هما الاثنان وابتعدا عن البيت، ووصلا إلى وسط مكان مجهول. كانا يتحدثان. كان لها ضفائر، وكانت تلثغ، وهذا ما أحبه فيها. ففقد تحفظه، ونسي لغته وهو يتحدث إليها: إذ انقلبت الأفكار إلى كلمات في داخله، كلمات شفّافة.

لم يعد يتذكر ما قاله لأغنيس بعد ظهر ذلك اليوم. لكنه أخبرها كلّ شيء، كلّ شيء كان قد فعله، كلّ شيء كان يعرفه، كلّ شيء كان يتمناه. أما هي فقد استوعبت كلّ ذلك بصمت. حتى عندما كان يتكلّم كان يعرف أن ذلك اليوم كان خاصّاً بسببها.

بدأت الشمس تميل نحو الغروب بلون قرمزي ناري، ومع ذلك كان الجو شديد البرودة. أصبحت الغيوم داكنة، وازدادت حدة الريح التي أخذت تخترق ثيابه. ولم تكن أغنيس ترتدي شيئاً سوى ثوب قطني رقيق، وقد أصبحت قدماها زرقاوين من شدة البرودة.

«أين كنتما؟ ماذا كنتما تفعلان؟»، سألهما الكبار عندما عادا إلى البيت، فلم تجب أغنيس بشيء.

أما هنا في فولفونتاين فلم يكن يسمح لأغنيس بالذهاب إلى الصيد، لكنها كانت حرّة في أن تتجول معه في السهب، أو تصطاد معه الضفادع عند السدّ الترابي الكبير. وكانت مرافقته لها تختلف

عن مرافقته لأصدقائه في المدرسة، وذلك بسبب رقتها، واستعدادها للإنصات له، وكذلك بسبب ساقيها السمراوين الممشوقتين، وقدميها الحافيتين، والطريقة التي كانت ترقص فيها وهي تتقافز من حجرة إلى أخرى. فقد كان ذكياً، وكان الأول في صفه، وكان يعرف أنها ذكية أيضاً. وكانا يتجولان ويتحدثان عن أشياء يهّز الكبار رؤوسهم عليها: إن كان للكون بداية، وماذا يقبع وراء كوكب بلوتو، الكوكب المظلم حيث يوجد الله، إن كان موجوداً.

لماذا كان يستطيع أن يتكلّم بهذه السهولة مع أغنيس؟ هل لأنها كانت فتاة؟ وكانت ترد على كلّ ما يقوله بدون تحفّظ، برقة، وبسرعة. وبما أنها كانت ابنة عمه فلا يمكن لأحدهما أن يحبّ ويتزوج الآخر. وبشكل ما، فقد أشعره هذا بالراحة، لأنه أحسّ بالحرية في أن يكون صديقها، يفتح لها قلبه. إلا أنه رغم كلّ ذلك كان يحبها. هل هذا هو الحبّ؟ هذا الكرم السابغ، هذا الإحساس بأن أحداً يفهمه، وأنه لم يكن عليه أن يتظاهر ويتصّنع؟

استمر الجزّازون في عملهم طوال اليوم، وطوال اليوم التالي، وكانوا قلما يتوقّفون لتناول الطعام، وكانوا يتحدون بعضهم لإثبات من هو الأسرع. وفي مساء اليوم التالي، كانوا قد أنجزوا عملهم كله، وتم جزّ جميع الأغنام في المزرعة. عندها أحضر العمّ صن كيساً من الخيش مليئاً بالأوراق المالية والقطع النقدية، وأعطى كلاً منهم أجره حسب عدد حبات الفاصولياء. ثم أوقدت نار أخرى، وأقيم احتفال آخر. وفي صباح اليوم التالي غادروا وعادت المزرعة إلى سابق عهدها ببطء.

كانت بالات الصوف كثيرة جداً إلى درجة أنها بدأت تطفح من الحظيرة. وراح العمّ صن يتنقل من كيس لآخر حاملاً زجاجة حبر وورق استنسل، واضعاً على كلّ كيس اسمه واسم المزرعة ونوعية

الصوف. وبعد عدة أيام وصلت شاحنة ضخمة (كيف اجتازت الأرض الرملية، حيث تعلق سيارات الصغيرة عادة؟) وحملت عليها البالات وانطلقت.

كان هذا المشهد يتكرر كلّ سنة. وفي كلّ سنة كان الجزازون يأتون، وفي كلّ سنة كانت تكرر هذه المغامرة والحماس. وهي لن تنتهي، وليس ثمة سبب يدعوها لأن تنتهي، طالما وجدت سنوات.

كانت كلمة الانتماء هي الكلمة السرية والمقدّسة التي تشدّه إلى المزرعة. فقد كان ينطلق في السهب وحيداً حيث يمكنه أن يردد هذه الكلمة بأعلى صوته: إني أنتمي إلى المزرعة. هذا ما كان يؤمن به حقاً لكنه لم يكن يبوح به لأحد، بل التزم به لنفسه خشية أن تبطل هذه التعويذة، كان حقاً شكلاً مختلفاً من الكلمة: أنتمي إلى المزرعة.

لم يخبر أحداً لكي لا يساء فهم هذه الكلمة بسهولة، فتقلب الأمور رأساً على عقب: إني أنتمي إلى المزرعة. لكن المزرعة لن تنتمي إليه، ولن يكون أكثر من مجرد زائر: كان يقبل ذلك. كان مجرد التفكير في العيش في فولفونتاين، والادعاء بأن البيت القديم الكبير بيته، وأنه ليس بحاجة إلى طلب إذن ليفعل ما يريد، يجعله يشعر بالدوار، فيبعد الفكرة عن رأسه. إني أنتمي إلى المزرعة: وهذا أكثر شيء يمكن أن يصل إليه، حتى في قرارة نفسه. إلا أنه كان يعرف في قرارة نفسه ما كانت تعرفه المزرعة بطريقتها أيضاً: أن فولفونتاين لا تنتمي إلى أحد. فالمزرعة أعظم من أيّ واحد منهم. فهي توجد منذ الأزل وستبقى إلى الأبد. وعندما يموتون جميعهم، وعندما يتهاوى البيت الريفي ويصبح خرائب كالحظائر على سفح التل ستبقى المزرعة قائمة هنا.

ذات يوم، عندما خرج إلى السهب وابتعد عن البيت، انحنى على الأرض وراح يفرك كفيه بالتراب كما لو كان يغسلهما. كان

شيئاً طقسياً. كان يختلق طقساً. ولم يكن يعرف بعد ماذا تعني الطقوس، لكنه كان يشعر بالراحة لأن أحداً لم يكن يراه ويشي به.

كان الانتماء إلى المزرعة قدره السري، القدر الذي خُلق معه وكان يعتنقه بسعادة. أما سرّه الآخر، الذي كان يحاربه، فكان يتمثل في أنه كان ينتمي إلى أمّه. ولم يكن يفوته أن هذين الأمرين من العبودية كانا يتضاربان. ولم يفته أيضاً أن قبضة أمّه كانت في أشد أحوالها ضعفاً عندما كانوا يقيمون في المزرعة. فتصبح عاجزة، كامرأة، عن الصيد، عاجزة حتى عن السير في السهب، لذلك كانت تصبح في موقع ضعف.

كانت توجد لديه أمّان. لقد ولد مرّتين: فقد ولدته امرأة وولدته المزرعة. أمّان بدون أبٍ.

وعلى بعد نصف ميل من البيت الريفي كان الطريق ينقسم إلى طريقين، الطريق إلى اليسار يتجه إلى ميرويفيل، والطريق إلى اليمين يتجه إلى فراسيربيرغ. وكان الطريقان يلتقيان عند المقبرة، أرض مسيّجة ذات بوابة. وكانت تقوم في وسط المقبرة شاهدة قبر جدّه الرخامية، تتحلق حولها مجموعة من القبور الأخرى، الأكثر انخفاضاً وانبساطاً، ذات شواهد من ألواح الحجر، وقد كتب على بعضها أسماء وتواريخ، ولم يكن قد كتب على بعضها الآخر أية كلمات.

كان جدّه الوحيد من عائلة كويتزي هناك، والوحيد الذي مات منذ أن انتقلت المزرعة إلى العائلة. فهنا انتهى الرجل الذي كان قد بدأ بائعاً متجولاً في بيكيتبيرج، ثم فتح دكاناً في لينجزبيرغ وأصبح عمدة البلدة، ثم اشترى الفندق الواقع في فراسيربيرغ رود. إنه يرقد تحت الثرى الآن، لكن المزرعة كانت ماتزال مزرعته. وأطفاله يجرون كالأقزام فوقه، وأحفاده، أقزام الأقزام.

وعلى الجانب الآخر من الطريق كانت توجد مقبرة ثانية بدون

سياج، تعرضت بعض تلال قبورها إلى الحت واستوت مع الأرض. حيث كان يرقد الخدم والأجراء، وتعود إلى أوتا ياب وقبله. ولم يكن يُذكر على شواهد القبور القليلة المتبقية أي أسماء أو تواريخ. ومع ذلك كان يشعر برهبة في هذا المكان أكثر مما كان يشعر بها بين أجيال بوتيس المتحلقين حول قبر جدّه. ولم يكن للأمر علاقة بالأرواح هنا. لأنه لم يكن يوجد أحد في كارو يؤمن بالأرواح. فكلّ من يموت هنا يموت بشكل ثابت ونهائي: ينهش النمل لحمه، وتبيّض عظامه بسبب الشمس، وهذا كلّ ما في الأمر. ومع ذلك كان يطأ بين هذه القبور بعصبية وتوتر، إذ كان ينبعث من الأرض صمت عميق، عميق جداً إلى درجة أنه قد يتحول إلى همهمة.

وكان يريد أن يُدفن في المزرعة عندما يموت. وإذا لم يسمحوا له بذلك فكان يريد أن يُحرق ويبعثر رماده فوقها.

أما بلويموف فهو المكان الآخر الذي كان يحجّ إليه كلّ سنة، حيث كان ينتصب البيت الريفي الأول، الذي لم يبق منه شيء الآن سوى أساسات خربة، وكان ينتصب أمامه سدّ يغذيه خزان ماء تحت الأرض. لكن الخزان كان قد جفّ منذ عهد بعيد، وأصبحت الحديقة والبستان اللذان كانا هنا أثراً بعد عين. أما بجانب الخزان فكانت تنتصب نخلة وحيدة ضخمة في هذه الأرض الجرداء. وكان النحل قد أقام في جذع هذه النخلة عشّاً. نحل أسود عنيف صغير الحجم. وكان لون الجذع قد أسوّد، بسبب دخان النيران التي دأب الناس على إشعالها هنا طوال السنين ليسرقوا عسل النحل، ورغم ذلك استمر النحل يجمع الرحيق، لا يعرف أحد من أين في هذا المشهد الطبيعي الرمادي الجاف.

كان يريد أن يعترف للنحل بأنه، عندما يأتي لزيارة المكان، كان يأتي طاهر الذيل، لا ليسرق عسله بل ليحييه ليعرب له عن احترامه وتقديره. إلا أنه ما أن كان يقترب من النخلة حتى يبدأ

النحل يئز غضباً، وينقضّ السرب كله عليه، محذراً إياه من الاقتراب. وما أن كان يولي الأدبار، ويطلق ساقيه للريح، حتى يبدأ يجري بشكل مخز في السهب والسرب خلفه يلاحقه، يجري بشكل متعرج ويلوّح بذراعيه، راجياً ألا يراه أحد ويسخر منه.

وكان يُذبح خروف كلّ يوم جمعة في المزرعة. وكان يرافق روس والعمّ صن لانتقاء الخروف الذي سيذبح. وكان يقف في مكان الذبح وراء الزريبة، بعيداً عن مرأى البيت، ويشاهد كيف يمسك فريك ساقي الخروف فيما يقوم روس، الذي لا يبدو مؤذياً، بذبحه من حنجرته بسكين صغيرة، وبعدها يمسك الرجلان الخروف الذي لم يكن يكفّ عن الركل بقوة، ويكافح وينخر فيما كان الدم يتدفق منه. وكان يستمر في المشاهدة فيما كان روس يواصل سلخ الخروف الذي كان مايزال دافئاً ويعلّق اللحم على شجرة ويشقه إلى شقين فيخرج الأحشاء ويضعها في وعاء: المعدة الزرقاء الكبيرة المليئة بالعشب، والأمعاء (وقد استخرج من الأحشاء آخر حبات الذرق التي لم يتح للخروف أن يخرجها)، والقلب، والكبد، والكلى ـ كلّ ما يوجد داخل الخروف.

وكان روس يستخدم ذات السكين التي كان يخصي بها الحملان. وكان يحب أن يشاهد ذلك أيضاً. إذ كانت تُجمع الحملان الصغيرة وأمهاتها في الحظيرة. ثم يتنقل روس بينها، وبسرعة يتناول سيقان الحملان الخلفية، واحداً تلو الآخر، ويضغطها على الأرض فيما تثغو برعب شديد، تصدر عويلاً يائساً، ويشق كيس الصفن. وبسرعة يخفّض رأسه، ويمسك الخصيتين بأسنانه ويشدهما إلى الخارج، التي كانت تبدو مثل قنديل بحر صغير تتخللها خطوط من الأوعية الدموية الزرقاء والحمراء. ثم يقوم روس بقطع الذيل أيضاً، ويرميه جانباً، ويخلّف وراءه أشلاء دامية.

وبساقيه القصيرتين، المتهدّلتين، وبنطاله الممزق تحت ركبتيه، وحذائه البيتي الصنع وقبعته الكتانية الرثّة كان روس يخطو ببطء حول الزريبة مثل مهرّج، ويختار الحملان، ويخصيها بدون رحمة. وفي نهاية العملية كانت الحملان تقف تتألم وتنزف بجانب أمهاتها، التي لم تكن تفعل شيئاً لحمايتها. ويطوي روس سكينه. فقد أنهى مهمته وارتسمت على وجهه ابتسامة صغيرة مزمومة.

لم تكن توجد طريقة يمكنه فيها أن يتحدث عما كان يشاهده. «لماذا يقطعون ذيل الحمل؟» سأل أمّه، فأجابته «لأنهم إذا لم يفعلوا ذلك، فستعيش الذبابة البيضاء تحت ذيلها وتفقّس». كان كلاهما يتظاهر، لأنهما كانا يعرفان حقاً ما كان يرمي إليه في سؤاله.

وكان روس يدعه يمسك سكينه ويريه كيف كانت تقطع شعرة بسهولة. الشعرة لا تنحني، بل تنشطر إلى قسمين ما أن يلامسها النصل. وكان روس يشحذ السكين كلّ يوم، يبصق على المشحذ، ويدفع النصل عبرها إلى الأمام والوراء، بخفة وسهولة ـ فقد بلي كثير من النصل من كلّ هذا الشحذ وكلّ هذا القطع، حتى لم يتبق منها سوى قطعة فضية ـ وكان الشيء ذاته ينطبق على المجرف الذي يستخدمه روس: فقد كان طويلاً جداً، وكان يشحذه باستمرار، بحيث لم يتبق منه سوى بوصة أو بوصتين من الفولاذ. أما القبضة الخشبية فكانت ملساء وقد اسوّدت بعد سنوات من العرق.

«يجب ألا تشاهد ذلك»، قالت أمّه بعد إحدى عمليات الذبح في يوم الجمعة.

«لماذا؟».

«يجب ألا تشاهد ذلك فقط».

«أريد ذلك».

ويتجه ليراقب روس وقد علّق الجلد وراح يرشّه بالملح الصخري.

كان يحلو له مراقبة روس وفريك وعمّه وهم منهمكون في العمل. ولاستغلال ارتفاع أسعار الصوف كان صن يريد أن يربي المزيد من الخراف في المزرعة. إلا أنه بعد سنوات من شح المطر تصحّر السهب وبدأت الأعشاب والشجيرات الصغيرة تكسو الأرض. لذلك بدأ في إعادة تسييج المزرعة كلها، مقسماً إياها إلى حظائر أصغر لكي يتم نقل الخراف من حظيرة إلى أخرى ويمنح السهب وقتا لتنمو الأعشاب فيه. ويخرج هو وروس وفريك كلّ يوم، يدقون أعمدة السياج في الأرض الصلبة، ويقيسون مسافة فرلنغ من السلك، ويسحبونه بقوة ويشدونه بإحكام.

كان العمّ صن يعامله بلطف دائماً، ومع ذلك كان يعرف أنه لم يكن يحبّه حقاً. كيف كان يعرف؟ من نظرة عيني صن المضطربتين عندما يكون بصحبتهم، والنبرة القوية في صوته. فلو كان صن يحبّه حقاً لتصرف معه بحرية وبعفوية كما كان يفعل مع روس وفريك. بل كان صن يحرص على أن يتكلم معه بالإنكليزية دائماً، رغم أنه كان يردّ عليه بالأفريكانية. لقد أصبحت مسألة شرف بالنسبة لكليهما، ولم يكونا يعرفان كيف السبيل للخروج من هذا الفخّ.

وكان يقول لنفسه إن الكراهية بينهما لم تكن شخصية، بل لأنه كان ابن أخّ صن الصغير فقط، يكبر ابن صن الذي كان مايزال طفلاً رضيعاً. إلا أنه كان يخشى أن يتعمق هذا الشعور، وأن يرفضه صن لأنه منح ولاءه لأمّه، الدخيلة، لا لأبيه، وكذلك لأنه لم يكن صادقاً، ومباشراً، وصريحاً.

ولو خُيِّر بين صن وبين أبيه كأبٍ، لاختار صن، رغم أن ذلك يعني أنه كان سيكون أفريكانياً بشكل لا رجعة فيه، وعليه أن

يمضي سنوات في عذاب مدرسة أفريكانية داخلية، كما كان حال جميع أطفال المزارع، قبل أن يُسمح له بالعودة إلى المزرعة.

ربما كان هذا هو السبب الأعمق الذي جعل صن لا يحبه: ينتابه إحساس غامض بأن هذا الطفل الغريب يتعلق به ويرفضه، مثل رجل يبعد عن نفسه طفلاً رضيعاً معلقاً به.

كان يراقب صن طوال الوقت، معجباً بمهارته في كلّ شيء كان يفعله من معالجة الحيوانات المريضة إلى تصليح المضخّة التي تعمل بالريح. وكان ينجذب إليه خاصة لأنه كان يعرف في أمور الخراف. فبمجرد إلقاء نظرة على خروف لم يكن صن يعرف عمره ونسبته ونوعية صوفه فحسب، بل كان يعرف كذلك مذاق كلّ جزء من جسمه. وكان بوسعه أن يختار الخروف للذبح إذا كان له أضلاع جيدة أو ورك ملائم للشوي.

كان يحبّ اللحم كثيراً. وكان ينتظر متلهفاً رنين الجرس في منتصف النهار للإعلان عن الوجبة الضخمة: صحون البطاطا المشوية، رزّ أصفر بالزبيب، بطاطا حلوة بصلصة الكاراميل، قرعة بالسكّر الأسمر ومكعّبات الخبز الطرية، وفاصولياء حلوة وحامضة، وسلطة الشوندر، وفي الوسط، وفي أهم مكان، كان يتوضع طبق لحم الضأن الكبير ومرق اللحم الذي يصبّ فوقه. وبعد أن كان يرى روس وهو يذبح الخراف، لم يعد يحب أن يمسك اللحم النيئ. وفي ووستر كان يفضّل ألا يذهب إلى محلات الجزّارين. محلات باك. فقد أصبحت نفسه تعاف السهولة التي يربت فيها الجزّار على قطعة اللحم ويمددها على الطاولة، ويقطّعها، ويضعها في ورقة بنية اللون، ويدوّن عليها الثمن. وعندما كان يسمع أنين المنشار الدوار وهو يقطع العظام، كان يريد أن يوقف أذنيه عن السمع. ولم يكن يمانع في النظر إلى الأكباد، ذات الوظيفة المبهمة في الجسم، لكنه كان يشيح بنظره عن القلوب المعروضة في نافذة

محل الجزار، وخاصة عن صواني أحشاء الذبيحة. وحتى في المزرعة كان يأنف من تناول أحشاء الذبيحة، مع أنها كانت طيبة المذاق.

لم يكن يفهم لماذا تقبل الخراف مصيرها، لماذا لا تثور أبداً، بل تسير طائعة وديعة إلى موتها. فإذا عرف الظبي أنه لا يوجد شيء في الأرض أسوأ من السقوط بين أيدي الرجال كان يكافح حتى النَفَس الأخير ويحاول الهرب، فلماذا كانت الخراف بهذا الغباء؟ فهي حيوانات ولديها أحاسيس الحيوانات الحادّة: لماذا لاتسمع الثغاء الأخير للضحيّة وراء الزريبة، لا تشم دمها، وتأخذ حذرها؟

وعندما كان يوجد بين الخراف أحياناً ـ عند جمعها لغسلها، كانت تحشر باكتظاظ ولا يعود باستطاعتها الإفلات ـ كانت تنتابه الرغبة في أن يهمس لها، ويحذّرها من المصير الذي ينتظرها. إلا أنه كان يرى في عيونها الصفراء لمحة من شيء كان يجعله يسكت: الاستسلام، لا المعرفة المسبقة بما سيحدث للخراف على يديّ روس وراء الزريبة فقط، بل ما كان ينتظرها في نهاية رحلة طويلة جداً وهي عطشى إلى كيب تاون في شاحنة النقل. كانت تعرف كلّ ذلك، حتى أدق التفاصيل، ومع ذلك كانت تستسلم. لقد حسبت السعر وهي مستعدة لتسديده ـ ثمن الوجود على الأرض، ثمن كونها حيّة.

12

لا تتوقف الرياح عن الهبوب في ووستر، لطيفة وباردة في الشتاء، وحارة وجافة في الصيف. وبعد أن يُمضي المرء ساعة خارج البيت يكون شعره قد اكتسى بغبار ناعم أحمر، وتسرب إلى أذنيه، وغطى لسانه.

كان مفعماً بالصحة، مليئاً بالحيوية والطاقة، ومع ذلك كان يبدو أنه مصاب بالزكام على الدوام. فقد كان يستيقظ في الصباح شاعراً بضيق في حلقه، عيناه حمراوان، يعطس ويسعل لا إرادياً، وكانت حرارة جسمه في ارتفاع وانفخاض مستمر. «أنا مريض»، يقول لأمّه ناعقاً. فتلمسه بقفا يدها على جبهته وتتنهد وتقول: «إذاً يجب أن تبقى في السرير بالتأكيد».

وكانت هناك اللحظة الأكثر صعوبة التي كان عليه أن يجتازها، اللحظة التي كان يسأل فيها أبوه: «أين جون؟» فتقول أمّه «إنه مريض»، فيشخر أبوه ويقول: «هاهو يتمارض مرة أخرى». وخلال ذلك كان يستلقي بأكبر قدر من الهدوء يمكنه إلى أن يذهب أبوه، ويذهب أخوه، وعندها يستطيع أخيراً أن يهيء نفسه ليوم من القراءة.

كان يقرأ بسرعة كبيرة وباستيعاب تام. وكانت أمّه خلال نوبات مرضه تزور المكتبة مرّتين في الأسبوع لاستعارة الكتب له: كتابان على بطاقتها، وكتابان على بطاقته. وكان يتفادى المكتبة

خشية أن تسأله أمينة المكتبة أسئلة عندما يأتي إليها بالكتب لختمها.

كان يعرف أنه إذا أراد أن يكون رجلاً عظيماً كان عليه أن يقرأ كتباً جادة. أن يكون مثل أبراهام لنكولن أو جيمس واط، يدرس على ضوء الشمعة فيما يغط الآخرون في النوم، يعلّم نفسه اللغة اللاتينية واليونانية وعلم الفلك. لم يكن يستبعد فكرة أن يصبح رجلاً عظيماً، وكان يعد نفسه بذلك بأن يبدأ القراءة الجدّية قريباً، أما الآن فكلّ ما كان يريد قراءته هو القصص.

أخذ يقرأ جميع قصص ألغاز إنيد بليتون، وجميع قصص هاردي بويز، وجميع قصص بيغليس. لكن الكتب التي أحبها أكثر فكانت قصص الفرقة الأجنبية الفرنسية بقلم ب. س. رن. «من هو أعظم كاتب في العالم؟»، سأل أباه. فأجاب أبوه شكسبير. فقال: «ولم ليس: ب. س. رن؟». لم يكن أبوه قد قرأ ب. س. رن، ورغم خلفيته العسكرية، بدا أنه لم يكن مهتماً بذلك. «لقد ألفّ ب. س. رن ستة وأربعين كتاباً. كم عدد مؤلفات شكسبير؟»، سأل أباه متحدياً، وبدأ يتلو عناوين الكتب. فقال أبوه «آه!» بأسلوب غاضب استنكاري لكنه لم يجبه.

وقرر أنه إذا كان أبوه يحبّ شكسبير فلا بد أن يكون شكسبير سيئاً. ومع ذلك بدأ يقرأ شكسبير، من الطبعة التي أخذ لونها يصفرّ وذات الحواف المهترئة التي ورثها أبوه والتي قد تساوي الكثير من المال بسبب قِدمها، محاولاً أن يعرف لماذا يعتبر الناس شكسبير عظيماً. قرأ تيتوس أندرونيكوس بسبب اسمها الروماني، ثم كوريولانوس، مغفلاً الخطابات الطويلة، كما أغفل أوصاف الطبيعة في الكتب التي كان يجلبها من المكتبة العامة.

وبالإضافة إلى شكسبير كان لدى أبيه قصائد ووردزورث وقصائد كيتس. وكانت لدى أمه قصائد روبرت بروك. وكانت

دواوين الشعر هذه تحتل الصدارة على رف المكتبة في غرفة الجلوس، مع شكسبير، قصة سان ميشيل في علبة جلدية، وكتاب بقلم كرونين عن طبيب. وحاول مرّتين أن يقرأ قصّة سان ميشيل، لكنه شعر بالسأم. ولم يستطع أن يعرف من هو أكسل مونذي، وفيما إذا كان الكتاب حقيقياً أم قصة، وفيما إذا كان يتحدث عن فتاة أو عن مكان.

دخل أبوه ذات يوم إلى غرفته حاملاً كتاب ووردزورث وقال له: «يجب أن تقرأ هذا»، وأشار إلى بعض القصائد التي وضع عليها إشارة بقلم الرصاص. وعاد بعد بضعة أيام راغباً في مناقشة القصائد معه. وقرأ أبوه: «صوت الشلال لا يفارقني مثل خلجات النفس». ثم قال «إنها قصيدة عظيمة، أليس كذلك؟»، فهمهم، ورفض أن تلتقي عيناه بعينيّ أبيه، ورفض أن يلعب معه هذه اللعبة. وسرعان ما استسلم أبوه.

لم يكن يأسف على فظاظته. ولم يكن يستطيع أن يفهم كيف كان الشعر يتلاءم مع حياة أبيه. كان يشكّ أنه كان مجرد ادعاء وتظاهر. وكان يصدق أمّه عندما كانت تقول إنها كانت تأخذ كتابها وتنسل إلى الغرفة العلوية لكي تهرب من سخرية أخواتها منها. لكنه لم يكن يستطيع أن يتصور أباه، عندما كان صبياً، وهو يقرأ الشعر، الذي لم يكن يقرأ حالياً شيئاً سوى الصحيفة. وكان كلّ ما يستطيع أن يتخيّله أن كلّ ما كان يفعله أبوه في ذلك العمر هو إطلاق النكات، والضحك، وتدخين السجائر وراء الشجيرات.

كان يراقب أباه وهو يقرأ الصحيفة. كان يقرأ بسرعة، وبعصبية. يقلّب الصفحات كما لو كان يبحث عن شيء ليس موجوداً فيها، يصدر قرقعة ويصفع الصفحات وهو يقلبّها. وعندما كان ينهي قراءته كان يطوي الصحيفة، ويتجه نحو لوحة ضيقة ويبدأ في حلّ الكلمات المتقاطعة.

كانت أمّه تكنّ احتراماً شديداً لشكسبير أيضاً. وكانت ترى أن ماكبث أعظم مسرحيات شكسبير. وكانت تتوقف وتهذر «إن كلّ عطور بلاد العرب لا تستطيع أن تغسل هذه اليد الصغيرة». وكانت ماكبث المسرحية التي درستها في المدرسة. وكان معلّمها يقف وراءها، ويقرص ذراعها حتى تنهي قراءة الخطاب كلّه. «هيا يافيرا!»، كان يحثها «هيا» ويقرصها، فتضيف بضع كلمات أخرى.

إن ما لم يستطع أن يفهمه عن أمّه هو أن لغتها الإنكليزية، رغم أنها كانت في غاية الغباء إلى درجة أنها لم تكن تستطيع مساعدته في واجبه البيتي في الصف الرابع، كانت نقية لا تشوبها أية شائبة، وخاصة عندما كانت تكتب. فقد كانت تستخدم الكلمات في موقعها الصحيح، وكانت معرفتها بالنحو لا غبار عليها. كانت تتقن اللغة، وكان هذا مجالها الأكيد. كيف حدث ذلك؟ فقد كان أبوها بيت ويهمير وهو اسم أفريكاني عادي، الذي كان يظهر في ألبوم الصور، يرتدي قميصاً بدون ياقة وقبعة ذات حواف عريضة، مثل باقي المزارعين العاديين الآخرين. ولم يكن هناك إنكليز في منطقة يونيوندال التي كانوا يقيمون فيها، وبدا أن اسم جميع جيرانهم زونداغ. أما اسم أمها فكان ماري دو بيل، تتحدر من أبوين ألمانيين، ولم تكن تجري في عروقهما قطرة دم إنكليزية واحدة. لكنها كانت عندما أنجبت أطفالاً أطلقت عليهم أسماء إنكليزية - رولاند، وينيفريد، إلين، فيرا، نورمان، لانسيلوت - وكانت تحدثهم باللغة الانكليزية في البيت. من أين تعلما اللغة الإنكليزية هي وبيت؟

أما لغة أبيه الإنكليزية فكانت في مستوى لغة أمّه تقريباً، لكن في نبرته شيء من اللكنة الأفريكانية أكثر، فقد كان يقول «thutty» بدلاً من «thirty». وكان أبوه لا يتوقف عن تقليب صفحات قاموس أكسفورد الجيب للغة الإنكليزية لحلّ كلماته المتقاطعة. وكان يبدو أنه يعرف على الأقل كلّ كلمة واردة في القاموس، وكلّ تعبير فيه

أيضاً. وكان يلفظ التعابير الإصطلاحية الأكثر غباء بتلذذ، كما لو كان يحاول أن يرسخّها في ذاكرته: «انكبّ على العمل بنشاط، فتخفق».

لم يقرأ هو نفسه أكثر من كوريولانوس في كتاب شكسبير. إلا أنه باستثناء صفحة الرياضة وقصص الرسوم المتحركة كانت الصحيفة تدخل إلى نفسه الملل. وعندما لم يكن ثمة شيء آخر يقرؤه، كان يقرأ الكتب الخضراء. «أحضري لي كتاباً أخضر!»، ينادي أمّه من سرير مرضه. والكتب الخضراء هي «موسوعة الأطفال» لآرثر مي، التي كانت ترحل معهم منذ نعومة أظافره. وكان قد قرأها عشرات المرات. وعندما كان طفلاً صغيراً مزّق بعض صفحاتها، وخربش فوقها بأقلام التلوين، وجعل صفحاتها تفلت، لذلك أصبح يتعين عليه الآن أن يتناولها بحذر.

لم يكن يقرأ في الواقع الكتب الخضراء. فقد كان النثر فيها يضجره إلى درجة كبيرة. إذ كان متدفقاً وطفولياً للغاية، باستثناء النصف الثاني من المجلد العاشر، الدليل المليء بالمعلومات الواقعية. لكنه كان يحدّق في الصور، وخاصة صور المنحوتات الرخامية، رجال ونساء عراة تلتف حول خصورهم حزم من القماش. وكانت الفتيات الرخاميات الرشيقات الملساوات يملأن أحلامه الجنسية.

كان ما يثير الاستغراب في إصابته بالزكام، شفاؤه السريع منه، أو أنه كان يبدو أنه يتلاشى بسرعة كبيرة. ففي الساعة الحادية عشرة صباحاً كان يتوقف عن السعال ويزول الاحتقان من رأسه، ويشعر بالارتياح. ويكون قد نال ما ناله من بيجامته التي تبللت بالعرق وأصبحت رائحتها كريهة، والشراشف المبللة، والفراش المترهل، والمناديل المبللة في كل مكان. كان ينهض من السرير لكنه لم يكن يرتدي ثيابه: فقد كان ذلك يعني أنه يغامر

بحظّه. وكان يحرص على ألا يظهر وجهه إلى الخارج خشية أن يراه أحد الجيران أو أحد المارة ويبلّغ عنه، فيأخذ في اللعب بمجموعة الميكانو، أو يلصق طوابع في ألبومه، أو يسلّك أزراراً في خيوط أو ضفائر من بقايا شلل الصوف. فقد كان درج خزانته مليئاً بالحبال التي كان قد ضفرها، والتي لم تكن تستعمل إلا كأحزمة للثياب التي لم يكن يملكها. وعندما كانت أمّه تدخل إلى غرفته كان يحاول أن يبدو ذليلاً مسكيناً بقدر ما بوسعه، متحاملاً على نفسه لكي لا يسمع ملاحظاتها الحادة.

فمن جميع الجهات كانت تشك في أنه مخادع. ولم يكن بوسعه أبداً أن يقنع أمّه أنه كان مريضاً حقاً. وعندما كانت تذعن لتوسلاته كانت تفعل ذلك بجفاء، لأنها لم تكن تعرف كيف تقول له لا. أما زملاؤه في المدرسة فكانوا يظنون أنه ابن أمّه المدلل.

ومع أنه كان في أيام كثيرة يستيقظ في الصباح ويحاول جاهداً أن يتنفس. وكانت تعتريه نوبات من السعال للحظات طويلة، حتى يبدأ يلهث ويبكي راغباً في أن يموت، لأنه لم يكن يتصّنع نوبات الزكام تلك.

كانت القاعدة تقتضي أنه عندما يغيب تلميذ عن المدرسة كان يتعين عليه أن يحضر رسالة من والديه تبرر غيابه. وكان يحفظ الرسالة التي كانت تكتبها أمّه عادة عن ظهر قلب: «الرجاء التماس العذر لغياب جون يوم أمس. فقد كان يعاني من زكام شديد، ورأيت أنه من الأفضل ألا يبارح السرير. المخلصة لكم». وكان يسلّم هذه الرسائل التي تكتبها أمّه، والتي كانوا يعتبرونها مجرد أكاذيب والتي كانت تُقرأ على أنها أكاذيب، بقلب متوجس.

وفي نهاية السنة، عندما كان يحسب عدد أيام غيابه، يتبين له أنه كان يغيب يوماً كلّ ثلاثة أيام تقريباً. ومع ذلك كان مايزال يحتل المرتبة الأولى في الصف. والشيء الذي كان يخلص إليه هو

أن ما يجري في الصف لم يكن ذا أهمية. فقد كان بإمكانه دائماً أن يعوض عن ذلك في البيت. ولو ترك الأمر له لغاب عن المدرسة طوال السنة، ولم يأت إلا لتقديم الامتحانات.

فلم يكن هناك شيء يمكن لمعلميه أن يقولوه غير وارد في الكتب المدرسية. ولم يكن ينظر إليهم نظرة استصغار، ولا حتى إلى الأولاد الآخرين. وفي الواقع لم يكن يريد أن يعبّر أحد معلميه عن جهله في بعض الأحيان. فقد كان يستمع باهتمام كبير إلى كلّ كلمة يقولونها. لكنه كان يستمع، لا لكي يتعلّم بل لأنه كان يخشى أن يُكتشف وهو مستغرق في أحلام اليقظة («ماذا قلت للتو؟ أعد ما قلته للتو»)، لأنه كان يخشى أن يُطلب منه أن يخرج ويقف أمام الصف لتوبيخه.

كان على قناعة بأنه صبي خاص، مختلف. أما الشيء الذي لم يكن يعرفه بعد هو لماذا كان يوجد في هذا العالم. وكانت تعتريه الشكوك بأنه لن يصبح مثل آرثر أو ألكساندر، ولن يكون موقّراً في حياته، بل لن يقدّره أحد حتى بعد وفاته.

كان بانتظار أن يُدعى. وعندما يتم ذلك كان على استعداد تام. فقد كان يجيب بدون تردد، حتى لو كان ذلك يعني أنه سيذهب إلى حتفه مثل رجال فرقة الصاعقة.

وكان المثال الذي يُخضع نفسه له VC صليب فيكتوريا. فلدى الإنكليز صليب فكتوريا، أما الأمريكان فلم يكن لديهم شيء، بل ولا حتى، لإحباطه، الروس. وبالتأكيد لم يكن لدى الجنوب أفريقيين شيء مشابه.

ولم يكن يفوته أن يلاحظ أن VC هما الحرفان الأوليان من اسم أمّه.

فقد كان جنوب أفريقيا بلداً لا يوجد فيه أبطال. وكان سيعتبر ولراد، ولتيماد، بطلين لو لم يكونا يحملان هذين الاسمين

المضحكين. فالسباحة في بحر هائج مرات عديدة لإنقاذ بحارة منكودي الحظ أمر في غاية الشجاعة. لكن من يملك الشجاعة الرجل أم الحصان؟ كان التفكير بولراد، وحصان ولتيماد الأبيض وهو يندفع بشجاعة في الأمواج يجعل حنجرته تجف.

كان فيك تويل سينازل مانويل أورتيز للفوز بلقب بطل العالم في الوزن الخفيف في مباراة ستقام ليلة يوم السبت. سهر حتى ساعة متأخرة مع أبيه ليستمع إلى التعليق في المذياع. وفي الجولة الأخيرة ألقى تويل، الذي كان ينزف والخائر القوى، بنفسه على منافسه أورتيز الذي كان يترنح. كان الجمهور في هياج شديد، وكان صوت المعلّق أجشاً وهو يصيح. ويعلن القضاة قرارهم: أصبح فيكسي تويل من جنوب أفريقيا بطل العالم الجديد. يصيح هو وأبوه بانتشاء ويعانق أحدهما الآخر. لم يكن يعرف كيف يعرب عن سعادته. ولاشعورياً يمسك بشعر أبيه، ويشده بكلّ قوته. يتراجع أبوه إلى الخلف، وينظر إليه بغرابة.

ولأيام عديدة تمتلئ الصحف بصور المباراة. لقد أصبح فيكسي تويل بطلاً وطنياً. لكن سرعان ما تلاشى حماسه وخبا. فقد كان مايزال سعيداً بأن تويل هزم أورتيز، لكنه بدأ يتساءل لماذا. وماذا يشكّل تويل له؟ لماذا لا يكون حراً في الاختيار بين تويل وأورتيز في الملاكمة، كما كان حراً في الاختيار بين فريقي هاملتون والفليجير في الركبي؟ هل كان ملزماً بتأييد تويل، هذا الرجل الضئيل، القبيح، ذو الكتفين المحدّبين والأنف الكبير والعينين السوداوين الفارغتين الصغيرتين جداً، هل لأن تويل (رغم اسمه المضحك) من جنوب أفريقيا؟ هل من واجب سكان جنوب أفريقيا أن يؤيدوا مواطنين آخرين من جنوب أفريقيا آخرين، حتى لو لم يكونوا يعرفونهم؟

لم يكن يأمل في الحصول على أي مساعدة من أبيه. فلم يكن

يقول شيئاً يثير الدهشة. ولم يكن يكفّ عن التوقع بأن جنوب أفريقيا ستفوز، أو بأن فريق ويسترن بروفينس سيفوز، سواء في الركبي، أو في الكريكت، أو في أي شيء آخر. «من تظن سيربح؟»، يتحدّى أباه قبل يوم من المباراة بين ويسترن بروفينس وترانسفال. فيجيب أبوه مثل حركة الساعة «ويسترن بروفينس». ويستمعان إلى المباراة في المذياع. ويفوز ترانسفال. لا تهتز شعرة لأبيه. ويقول: «في السنة القادمة سيربح ويسترن بروفينس. فقط انتظر وسترى».

يبدو له أنه من الغباء أن يصدق أن ويسترن بروفينس سيفوز فقط لأنه من كيب تاون. ومن الأفضل أن يؤمن بأن ترانسفال سيفوز، وحينها سيشعر بمفاجأة لطيفة إذا لم يفز.

كان مايزال يحتفظ بلمسة شعر والده في يده، خشناً، قوياً. وكان مايزال تصرفه العنيف يحيّره ويزعجه. فلم يسبق له أن كان حرّاً بجسد أبيه من قبل. ولم يكن يرغب في أن يحدث ذلك مرة أخرى.

13

كان الوقت في ساعة متأخرة من الليل. وكان الجميع يغط في سبات عميق. كان مستلقياً على سريره يتذكر. وكان يتساقط على سريره إشعاع نور برتقالي اللون منبعث من أضواء الشارع التي لم تكن تطفأ طوال اللّيل في ريونيون بارك.

يتذكّر ما حدث في ذلك الصباح في أثناء الصلاة، عندما كان الطلاب المسيحيون ينشدون تراتيلهم، والطلاب من اليهود والكاثوليك يتجوّلون بحرية، حشره صبيّان كاثوليكيان يكبرانه سناً في زاوية وسألوه: «متى ستأتي لحضور دروس التعاليم؟» فرد كذباً «لا أستطيع أن أحضر الدروس، فلدي أعمال أقوم بها عادة من أجل أمّي بعد ظهر أيام الجمعة»، فأجابوه: «إذا لم تأت إلى دروس التعاليم فأنت لست كاثوليكياً»، فقال بإصرار «أنا كاثوليكي» وكذب مرة أخرى.

كان يخشى أن يحدث الأسوأ. فقد كان يخشى أن يقوم الكاهن الكاثوليكي بزيارة أمّه ويسألها عن سبب عدم حضوره إلى دروس التعاليم، أو الكابوس الآخر ـ إذا أعلن مدير المدرسة أنه يتعين على جميع الصبية من ذوي الأسماء الأفريكانية الانتقال إلى الصفوف الأفريكانية ـ فإذا أصبح الكابوس حقيقة، ولم تُترك أمامه فرصة إلا اللجوء إلى الصراخ والسباب والبكاء، وأن يتصرف كطفل كان يعرف أنه كان مايزال في داخله ملتفاً كنابض ـ

فبعد تلك العاصفة، وكملاذ أخير، سيتخذ الخطوة المستميتة ويلقي بنفسه كي يحصل على حماية أمّه، بأن يرفض العودة إلى المدرسة، ويرجوها أن تنقذه ـ وإذا كان عليه أن يتصرف بهذه الطريقة التي تشعره بالخزي تماماً، كاشفاً عن كلّ ما يعرفه هو فقط بطريقته، وأمّه بطريقتها، وربما والده بطريقته المزدرية، وهي أنه مايزال طفلاً ولن يكبر ـ إذا ما نسجت جميع القصص حوله، والتي نسجها هو نفسه، نسجتها سنوات من التصرف الطبيعي، على الأقل علناً، أن تنهار، ويظهر منه الجانب القبيح، الأسود، الجانب الطفولي الباكي ويعرضه على الجميع ويسخرون منه، فهل ستكون هناك ثمة وسيلة يمكنه أن يواصل العيش بعدها؟ ألن يصبح سيئاً كواحد من أولئك الأطفال المنغوليين المعاقين المشوّهين ذوي الأصوات الأجشة والشفاه المريلة الذين قد يكون من الأفضل إعطاؤهم حبوباً منومّة أو خنقهم؟

جميع الأسرّة في البيت قديمة ومهترئة، ونوابضها مرخية ومترهلة، وكانت تصدر صريراً لدى أدنى حركة. وكان يستلقي ساكناً بقدر استطاعته ضمن ذلك الشريط الفضي من النور المنبعث من النافذة، مدركاً جسده المكوّر إلى جانبه، وقبضتيه المثبتتين على صدره. وكان يحاول في هذا السكون أن يتصوّر موته. يلغي نفسه من كلّ شيء: من المدرسة، من البيت، من أمّه. يحاول أن يتخيّل الأيام وهي تمضي في سبيلها بدونه، لكنه لا يستطيع. فقد كان هناك دائماً شيء يخلفه وراءه، شيء صغير وأسود، كالبندقة، كحبة بلوط ملقاة في النار، جافة، رمادية، صلبة، عاجزة عن النمو، لكنها كانت تقع هناك. كان باستطاعته أن يتخيّل نفسه يموت، لكنّه لم يكن يستطيع أن يتخيّل نفسه وهو يختفي ويتلاشى. يحاول كما يشاء، لكنه لم يكن بوسعه أن يهلك آخر ماتبقى منه.

ما الذي يبقيه في هذا الوجود؟ هل الخوف من حزن أمّه، فقد كان حزن أمّه عظيماً إلى درجة أنه لم يكن يقدر على التفكير به

لأكثر من ومضة؟ (يراها تقف صامتةً في غرفة عارية، يداها تغطيان عينيها، ثم يسدل الستارة عليها، على الصورة). أم هل يوجد ثمة شيء آخر فيه يرفض أن يموت؟

يتذكّر ذلك اليوم الذي حوصر فيه في الزاوية، عندما ثبّت الولدان الأفريكانيان يديه وراء ظهره، واقتاداه إلى وراء الجدار الترابي في أحد جوانب ملعب الركبي. يتذكّر الولد الأكبر على نحو خاص، الذي كان بديناً جداً إلى حد أن طيات الشحم كانت تتهدل من على أطرافه من تحت ثيابه الضيقة ـ أحد أولئك الأغبياء، أو أشباه البلهاء الذين بإمكانهم أن يكسروا أصابعك، أو يسحقوا قصبتك الهوائية بالسهولة نفسها التي يلوون فيها رقبة طير ويبتسمون ابتسامة هادئة وهم يفعلون ذلك. كان خائفاً، ما في ذلك من شكّ، وكان قلبه يخفق بقوة. ومع ذلك، كم كان ذلك الخوف صحيحاً؟ فيما كان يتعثر في ذلك الملعب مع آسريه، ألم يكن في داخله ثمة شيء أكثر عمقاً، شيء جذل، يقول لنفسه: «لا تهتم فلن يصيبك سوء، وما هذه إلا مجرد مغامرة أخرى؟»

لن يصيبك سوء، لا يوجد ثمة شيء لا يمكنك أن تفعله. هذان هما الشيئان اللذان يتعلقان به، الشيئان اللذان هما حقاً شيء واحد، الشيء الصحيح عنه، والشيء الزائف عنه في الوقت نفسه. هذا الشيء الذي هو شيئان يعني أنه لن يموت مهما كان من أمر. لكن ألا يعني ذلك أيضاً أنه لن يعيش؟

كان طفلاً. ترفعه أمّه، وجهه إلى الأمام، تمسك به من تحت ذراعيه. ساقاه متدليتان، رأسه مدلّى، كان عارياً. لكن أمّه تضمه إليها، تتقدّم نحو العالم. لم تكن بحاجة لأن ترى إلى أين هي ذاهبة، لا تحتاج إلا أن تسير فقط. وأمامه، وفي تقدمها، يتحول كل شيء إلى حجارة وشظايا. كان مجرد طفل ذي بطن كبيرة ورأس مدلى يتأرجح، لكنه كان يمتلك هذه القوّة.

ثم راح يغط في النوم.

14

جاءت مكالمة هاتفية من كيب تاون تقول إن الخالة آني وقعت على درجات السلم في شقتها في روزبانك وإنها نقلت إلى المستشفى وإن وركها مكسور، وينبغي لأحدهم أن يأتي ويتخذ الترتيبات من أجلها.

كان الوقت منتصف تموز، منتصف الشتاء، عندما تكتسي ويسترن كاب بغلالة من البرد والمطر. استقل هو وأمّه وأخوه قطار الصباح إلى كيب تاون، ثم استقلوا حافلة من شارع كلوف إلى فولكشوسبيتال. كانت الخالة آني الضئيلة الحجم مثل طفل صغير وهي في ثوب نومها المزهّر، في جناح النساء. كان الجناح مكتظاً بنساء عجائز ذوات وجوه متغضنة مشدودة، يتنقلن بأردية نومهن القصيرة، يهسهسن إلى أنفسهن، ونساء بدينات ذوات وجوه منتفخة ساهمة يجلسن على حافات أسرّتهن، وأثداؤهن منسفحة إلى الخارج بدون اكتراث. وكان يقبع في الركن مكبّر صوت ينقل إذاعة سبرينغبوك. كانت الساعة الثالثة، وكان يذاع برنامج ما يطلبه المستمعون الذي يذاع عصراً. وكانت تعلو أغنية «عندما تبتسم العيون الإيرلندية»، التي يغنيها نيلسون ريدل وفرقته الموسيقية.

تأخذ الخالة آني ذراع أمّه بقبضتها الذاوية، وتهمس لها بصوت أجش: «أريد أن أغادر هذا المكان يا فيرا. فهو مكان لايناسبني».

تربت أمّه على يدها، تحاول تهدئتها. وعلى المنضدة بجانب السرير يوجد كوب من الماء تضع فيه أسنانها، وإنجيلاً.

قالت لهم الأخت المسؤولة عن الجناح إنه تم تجبير الورك المكسور. وإنه على الخالة آني أن تمضي شهراً آخر في السرير حتى يلتئم العظم. «لم تعد شابة، وهذا يستغرق وقتاً». وبعد ذلك يجب أن تستعمل عكازاً.

واستدركت الأخت قائلة إن أظافر قدميّ الخالة آني كانت طويلة وسوداء مثل مخالب الطير عندما أُحضرت إلى المشفى.

انتاب أخوه شعور بالضجر، فبدأ يئن ويشتكي ويقول إنه عطشان. أوقفت أمّه ممرضة وطلبت منها كوباً من الماء فشعر بالحرج وأشاح بوجهه بعيداً.

توجهوا إلى مكتب موظف الخدمات الاجتماعية في نهاية الممر. «هل أنتم أقرباؤها؟» سأل موظف الخدمات الاجتماعية، «هلّ بإمكانكم أن توفروا لها بيتاً؟».

زمّت أمّه شفتيها. وهزت رأسها.

«لماذا لا تستطيع أن تعود إلى شقّتها؟»، سأل أمّه بعد ذلك.

«لأنها لا تستطيع أن تصعد الدرج. لا يمكنها أن تذهب إلى الحوانيت».

«لا أريدها أن تعيش معنا».

«إنها لن تأتي لتعيش معنا».

انتهت ساعة الزيارة، وحان وقت الوداع. الدموع تغرورق في عيني الخالة آني. تتمسك بذراع أمّه بقوة إلى درجة أنه كان يتعين عليها أن تفكّ أصابعها بقوة.

«أريد أن أذهب إلى البيت يا فيرا».

«أيام قليلة أخرى فقط يا خالة آني، إلى أن تتمكني من المشي ثانية»، تقول أمّه بأعذب صوت يسمعه منها.

لم ير من قبل هذا الجانب منها: إنها خيانة.

ثم أتى دوره. مدّت الخالة آني يدها. الخالة آني هي خالة أمّه وعرّابته. وكانت توجد لها صورة في الألبوم وهي تحمل طفلاً رضيعاً بين ذراعيها يقال إنه هو. كانت ترتدي ثوباً أسود يصل إلى كاحليها وقبعة سوداء من طراز قديم، وكانت تنتصب كنيسة في الخلفية. ولكونها عرّابته، كانت تعتقد أن لديها علاقة خاصّة به. ويبدو أنها لم تكن تشعر بالنفور الذي كان يشعره نحوها. كانت ترقد في سريرها في المستشفى قبيحة والتجاعيد تملأ وجهها. أحس بالنفور من هذا الجناح كله المليء بالنساء القبيحات. وحاول جاهداً ألا يظهر نفوره واشمئزازه. كان قلبه يحترق بالخزي والخجل. تحمّل اليد الملقاة على ذراعه، لكنه كان يريد أن يذهب، أن يخرج من هذا المكان وألا يعود إليه أبداً.

«إنك في غاية الذكاء»، قالت الخالة آني بصوتها الأجش الخفيض الذي يعرفه عنها منذ أن يتذكّرها. «لقد كبرت وأصبحت رجلاً، وأمّك تعتمد عليك. يجب أن تحبّها وأن تكون سنداً لها وأن تحبّ أخاك الصغير أيضاً».

سنداً لأمّه؟ ما هذا الهراء. إذ إن أمّه مثل صخرة، مثل عمود حجري. ليس هو الذي يجب أن يكون سنداً لها، بل هي التي يجب أن تكون سنداً له! لماذا كانت الخالة آني تقول هذه الأشياء على أية حال؟ فقد كانت تدّعي بأنّها ستموت في حين كانت مشكلتها الوحيدة أن وركها كان مكسوراً.

يهزّ رأسه، يحاول أن يبدو جدّياً وفطناً ومطيعاً بينما ينتظرها في سريرته أن تفلت يده. وتبتسم تلك الابتسامة ذات المغزى التي تعني أنها دلالة على وجود صلة خاصة تربطها بابن

فيرا البكر، صلة لم يكن يحسّ بها على الإطلاق، لم يكن يعترف بها. كانت عيناها منبسطتين، لونهما أزرق شاحب، ممتقعتا اللون. كانت تبلغ الثمانين من العمر وتكاد تكون عمياء. وحتى بالنظارات لم تكن تستطيع أن تقرأ الإنجيل جيداً، بل كانت تضعه في حضنها وتغمغم الكلمات ذاتها.

ترخي قبضتها. تدمدم شيئاً وتتراجع.

جاء دور أخيه. استسلم أخوه لقبلاتها. «إلى اللقاء يا عزيزتي فيرا»، تنعق الخالة آني. «ليباركك الله أنت وأطفالك».

يبدأ الظلام يهبط في الساعة الخامسة. وفي غمرة الحركة النشطة الغريبة في ساعة الازدحام في المدينة يستقلون القطار إلى روزبانك. كانوا سيقضون الليلة في شقّة الخالة آني: ملأه هذا الشيء بالغمّ.

لم يكن لدى الخالة آني ثلاجة. لم يكن يوجد في خزانتها شيء سوى بضع تفاحات ذابلات، متعفنات، ونصف رغيف من الخبز يعلوه العفن، ومرطبان من معجون السمك لم تثق أمّه بصلاحيته. بعثت به إلى المحل الهندي، حيث اشترى خبزاً ومربّى وشاياً للعشاء.

كان لون حوض المرحاض بنياً بسبب الأوساخ. اضطربت معدته عندما تذكر المرأة العجوز ذات أظافر القدمين الطويلة السوداء وهي تقرفص فوقه. أنفت نفسه من استعماله.

سأل أمّه: «لماذا يتوجب علينا أن نبقى هنا؟ لماذا يتوجب علينا أن نمكث هنا؟». يردّد أخوه. «لأن»، تجيب أمّه متجهمة.

كانت الخالة آني تستخدم لمبات بقوة أربعين واطاً لكي تقتصد في الكهرباء. وعلى الضوء الأصفر الخافت في غرفة النوم بدأت أمّه تعبىء ملابس الخالة آني في صناديق كرتونية. لم يدخل

إلى غرفة نوم الخالة آني من قبل. صور معلقة على الجدران، صور مؤطرة لرجال ونساء ذوي نظرات جامدة متجهمة: آل بريتشيرس، آل دي بيلس، أسلافه.

«لماذا لا تذهب وتعيش مع العمّ ألبرت؟».

«لأن كيتي لا تستطيع أن تعتني بعجوزين مريضين».

«أنا لا أريد أن تعيش معنا».

«لن تعيش معنا».

«أين ستعيش إذن؟».

«سنجد لها داراً».

«ماذا تقصدين داراً؟».

«دار، دار، دار للمسنين».

كان المخزن الغرفة الوحيدة التي أحبها في شقّة الخالة آني. فقد كانت تتكدس فيه صحف قديمة وعلب كرتون تصل إلى السقف. وكانت فيه رفوف مليئة بالكتب: كتاب سميك وصغير بغلاف أحمر، مطبوع على ورق خشن سميك يُستعمل لطباعة الكتب الأفريكانية التي كانت تبدو مثل ورق النشاف وعليه بقع من الأوساخ وبراز ذباب. وكان العنوان على طرف الكتاب «Ewige Genesing»، وعلى الغلاف الأمامي يقرأ العنوان الكامل للكتاب: «Deur ’n gevaarlike krankheid tot ewige genesing» «من الداء الخطير إلى الشفاء الأبدي». وكان مؤلف الكتاب والد جدّه، والد الخالة آني، التي ـ كان قد سمع القصة كثيراً ـ كرّست معظم حياتها له. ففي البداية ترجمت المخطوط من الألمانية إلى الأفريكانية، ثم أنفقت كلّ مدّخراتها لتدفعها إلى إحدى المطابع في ستيلينبوش لطباعة مئات النسخ منه، وجهاز تجليد لتجليد بعضها، ثم أخذت تطوف على مكتبات كيب تاون لتوزيعه. وعندما لم تتمكن من إقناع

المكتبات ببيع الكتاب، أخذت تطرق الأبواب باباً باباً بنفسها. وكانت النسخ المتبقية ماتزال مركونة على الرفوف في المخزن، وكانت الصناديق تضم صفحات مطبوعة منه، لكنها لم تكن مجلّدة.

حاول أن يقرأ «Ewige Genesing»، لكنه وجده مملاً للغاية. فما أن كان بالثازار دو بيل يمضي برواية قصته عن أيام صباه في ألمانيا حتى يقطع ذلك بتقارير طويلة عن الأنوار المشعة في السماء، وأصوات تكلمه من السماء. ويبدو أن الكتاب كلّه كان على هذا المنوال، مقاطع قصيرة عنه، تليها رواية طويلة عمّا قالت له تلك الأصوات. وكان هو وأبوه يحكيان نكات طويلة عن الخالة آني وأبيها بالثازار دو بيل. وكانا يرددان عنوان كتابه بإسلوب غنائي يمطّان فيها الأحرف الصوتية.

«هل كان والد الخالة آني مجنوناً؟»، يسأل أمّه.

«نعم، أظن أنه كان مجنوناً».

«إذاً لماذا أنفقت كلّ ما تملكه من مال على طباعة كتابه؟».

«من المؤكد أنها كانت تخشاه. كان ألمانياً فظاً وقاسياً واستبدادياً للغاية. وكان جميع أولاده يخافونه».

«لكن ألم يكن قد مات؟».

«نعم، كان قد مات، لكن لا بد أنها كانت تشعر بالواجب تجاهه».

لم تكن تريد أن تنتقد الخالة آني وإحساسها بالواجب نحو الرجل العجوز المجنون.

وكان أفضل شيء في المخزن مطبعة كتب حديدية، ثقيلة وصلبة مثل عجلة قاطرة. وتمكن من إقناع أخيه أن يضع ذراعيه في مهد الطابعة، ثم أخذ يدوّر البرغي الكبير إلى أن ثبتت ذراعاه ولم يعد يستطيع تحريكهما. ثم تناوبا مكانيهما وفعل أخوه له الشيء ذاته:

قال لنفسه دورة واحدة أو دورتان وتنسحق العظام. ما الشيء الذي كان يجعلهما يتحملان ذلك، هما الاثنان؟

في الأشهر الأولى من إقامتهم في ووستر وجهت إليهم دعوة لزيارة إحدى المزارع التي تزود شركة التعليب بالفاكهة. وفيما كان الكبار يحتسون الشاي، راح هو وأخوه يجوبان المزرعة، فعثرا على ماكينة طحن ذرة. وتمكن من إقناع أخيه بأن يضع يده في أسفل القمع حيث تلقى عرانيس الذرة، ثم أدار المقبض. لوهلة، وقبل أن يتوقّف، أحسّ أن عظام الأصابع الرفيعة تُسحق. وقف أخوه ويده عالقة في الماكينة، شاحباً ومتألماً، وعلى وجهه نظرة تساؤل مشوّشة.

نقلوهما أصحاب المزرعة بسرعة إلى المستشفى، حيث بتر الطبيب نصف الإصبع الأوسط من يد أخيه اليسرى. وراح يمشي لفترة من الزمن ويده مضمّدة وذراعه معلقة بحاملة. ثم وضع كيساً جلدياً أسود صغيراً على جذع أصبعه. كان في السادسة من العمر. ومع أن أحداً لم يزعم أن إصبعه كانت ستنمو ثانية فلم يتذمر أو يشتكي.

لم يعتذر لأخيه أبداً، ولم يُؤنب على فعلته تلك. غير أن الذاكرة تجثم ثقيلة عليه، ذاكرة ضعف مقاومة اللحم والعظم، ومن ثم الهرس.

«يمكنك على الأقل أن تكون فخوراً بأن شخصاً في عائلتك قد أنجز شيئاً في حياته، خلّف شيئاً وراءه»، تقول أمّه.

«قلتِ إنه كان رجلاً عجوزاً فظيعاً. قلتِ إنه كان فظاً وقاسياً».

«نعم، لكنه حقق شيئاً في حياته».

في الصورة الموجودة في غرفة نوم الخالة آني، كان بالثازار دي بيل منقبض الوجه وعيناه تحدقان بقوة، وفمه مشدود وقاس. وكانت تقف بجانبه زوجته التي بدت مرهقة ومتجهمة. وكان

بالثازار دي بيل قد التقى بها، ابنة مبشّر آخر، عندما جاء إلى جنوب أفريقيا لتبشير الوثنيين بالدين المسيحي. وعندما سافر بعد ذلك إلى أمريكا ليبشر بالإنجيل أخذها هي وأطفالها الثلاثة معه. وعلى إحدى السفن البخارية في الميسيسيبي، قدم أحدهم تفاحة لابنته آني التي جلبتها لتريها له. فأنّبها لأنها تحدثت إلى شخص غريب. تلك كانت الحقائق القليلة التي يعرفها عن بالثازار، بالإضافة إلى ما يضمه الكتاب الأحمر الأخرق الذي تتوافر منه نسخ في العالم أكثر مما يحتاجه العالم.

وكان لبالثازار ثلاثة أطفال هم: آني، ولويزا ـ أمّ والدته ـ وألبرت، الموجودون في الصور في غرفة نوم الخالة آني. وكانت تبدو على وجه ألبرت نظرات مليئة بالخوف وهو يرتدي بزّة بحّار. وألبرت الذي هو الآن العمّ ألبرت، ذلك الرجل العجوز المحني الظهر، ذو اللحم الأبيض العجيني كالفطر، والذي كان يرتعش طوال الوقت، ويحتاج إلى المساعده عندما يمشي. ولم يحصل العمّ ألبرت في حياته كلها على راتب جيد. فقد أمضى حياته وهو يؤلّف كتباً وقصصاً، وكانت زوجته هي التي تخرج وتعمل.

سأل أمّه عن كتب العم ألبرت. فقالت إنها كانت قد قرأت إحداها منذ زمن بعيد، لكنها لم تعد تتذكره الآن. «كانوا أناساً من الطراز القديم، ولم يعد الناس يقرؤون كتباً كتلك».

يجد كتابين من تأليف العم ألبرت في المخزن، مطبوعين على الورق السميك نفسه مثل كتاب «Ewige Genesing»، لكنهما كانا مجلدين بأغلفة بنية، ذلك اللون البني الذي تطلى فيه عادة المقاعد في محطات سكة الحديد. وكان عنوان أحد الكتابين «قابيل»، والعنوان الآخر «آثام الآباء». «هل يمكنني أن آخذهما؟»، سأل أمّه فقالت: «إني متأكّدة أنه بإمكانك ان تأخذهما لأنه لن يفتقدهما أحد».

حاول أن يقرأ «آثام الآباء»، لكنه لم يتمكن من تجاوز الصفحة العاشرة، فقد كان مملاً للغاية.

«يجب أن تحبّ أمّك وأن تكون سنداً لها». يفكّر في تعليمات الخالة آني. الحبّ: كلمة تلفظها الأفواه بنفور. حتى أمّه تعلّمت ألا تقول له أحبّك، مع أنها كانت تزلّ منها كلمة «حبيبي» بين الحين والآخر برقة عندما كانت تقول له طابت ليلتك.

لم يكن يرى أي معنى في الحبّ. فعندما كان الرجال يقبّلون النساء في الأفلام، ويبدأ الكمان يعزف بصوت منخفض وعلى نحو رومانسي في الخلفية، يبدأ يتلوّى في مقعده، ويقسم أنه لن يكون هكذا: ناعماً، طرياً، مفرطاً في العاطفة.

ولم يكن يسمح لأحد أن يقبّله سوى عماته، اللاتي كان يستثنيهن لأنه كان من عادتهن أن يفعلن ذلك، ولم يكن يستطعن فهم شيء آخر. فقد كان التقبيل جزءاً من الثمن الذي كان يدفعه لقاء ذهابه إلى المزرعة: ملامسة سريعة من شفتيه على شفاههن، التي تكون دائماً جافة لحسن الحظ. أما عائلة أمّه فلم تكن تقبّل أحداً. ولم ير أمّه وأباه يقبّل أحدهما الآخر قبلة حقيقية على الإطلاق. لكنهما كانا يتظاهران في بعض الأحيان، بوجود أناس آخرين، فكان أبوه يقبّل أمّه على خدها. وكانت تقدّم له خدّها على مضض، بتردّد، كما لو كانت مرغمة على ذلك، فتأتي قبلته خفيفة وسريعة ومتوترة.

لم ير عضو أبيه الجنسي سوى مرة واحدة فقط. كان ذلك في العام 1945، عندما عاد أبوه من الحرب، وكان جميع أفراد العائلة مجتمعين في فولفونتاين. وكان أبوه واثنان من أعمامه قد خرجوا للصيد، واصطحبوه معهم. كان يوماً حاراً. وعندما وصلوا إلى أحد السدود قرّروا أن يسبحوا. وعندما عرف أنهم كانوا سيسبحون عراة حاول أن ينسحب، لكنهم لم يدعوه يفعل ذلك.

كانوا في غاية المرح وراحوا يطلقون حفنة من النكات. وأرادوه أن يخلع ثيابه ويسبح معهم أيضاً، لكنه رفض. وهكذا رأى قضبان الرجال الثلاثة جميعها، وكان أكثرها وضوحاً قضيب أبيه، بدا أبيض شاحباً. ويذكر جيداً كيف أنه شعر بالاستياء لأنه اضطر للنظر إليه.

كان والداه ينامان في سريرين منفصلين. ولم يكن لديهما سرير عريض أبداً. والسرير العريض الوحيد الذي رآه في المزرعة كان في غرفة النوم الرئيسية، حيث كان جدّه وجدته ينامان. وكان يعتبر أن الأسرّة العريضة قديمة الطراز، وتعود إلى تلك الأيام التي كانت فيها الزوجات ينجبن طفلاً كلّ سنة، كالنعاج أو الخنزيرات. وشكر ربه أن والديه انتهيا من ذلك قبل أن يعرف عن هذا الأمر.

وكان مستعداً لأن يصدق أن أباه وأمّه كانا يحبان بعضهما منذ عهد بعيد، في فيكتوريا ويست، وقبل أن يولد، لأن الحبّ كان يبدو أنه أحد شروط الزواج. فقد شاهد صوراً في الألبوم تثبت ذلك: فقد كان أحدهما يجلس بقرب الآخر مثلاً وهما في نزهة. إلا أن كلّ ذلك لا بدّ أنه توقّف منذ سنوات، وكان يرى أن هذا أفضل.

أما بالنسبة له، فما علاقة العاطفة العنيفة والغاضبة التي كان يشعر بها تجاه أمّه بفقدان الوعي؟ فقد كانت أمّه تحبّه، وكان يقرّ بذلك، إلا أن المشكلة تكمن هنا، هنا يكمن الخطأ، لا الصواب، بموقفها تجاهه. وكان حبّها يتجلى في سهرها عليه وحدبها عليه، واستعدادها للانقضاض وإنقاذه حالما يتعرض إلى الخطر. ولو كان الاختيار يتوقف عليه (لكنه لن يفعل ذلك مطلقاً)، لأمكنه أن يسترخي في رعايتها ويجعلها تحمله طوال حياته. ومع أنه كان واثقاً من رعايتها له، كان يحذر منها، ولم يكن يشعر بالراحة والاسترخاء معها أبداً، ولم يكن يمنحها الفرصة لذلك على الإطلاق.

كان يتوق للتخلص من شدة اهتمامها به ورعايتها له. ولكي

يحقق ذلك ربما أتى وقت تعين عليه أن يثبت نفسه، أن يرفضها بقسوة شديدة بحيث تشعر بالصدمة وتتراجع وتفك قيوده. ومع ذلك لم يكن يفكر إلا في تلك اللحظة، يتخيّل نظرتها المندهشة، يشعر أنه جرح مشاعرها، ويغمره شعور عارم بالذنب. كان سيفعل أيّ شيء ليخفف من وطأة الصدمة: يواسيها، يعدها بأنه لن يبتعد عنها.

كان يشعر بحميمية تجاهها كما لو كان جزءاً منها، وهي جزء منه، وكان يعرف أنه عالق في فخّ ولا يستطيع التملص منه. خطأ من؟ ينحي باللائمة عليها، كان يشعر بالحنق عليها، لكنه كان يشعر بالخجل من جحوده لها أيضاً. الحبّ: هذا هو الحبّ حقاً، هذا القفص الذي يتأرجح فيه ذهاباً وإياباً، مرة بعد أخرى، مثل قرد بابون تتملكه الحيرة. ماذا يمكن للخالة آني البريئة الجاهلة أن تعرف عن الحبّ؟ فقد كان يعرف عن العالم أكثر مما كانت تعرفه بألف مرة، تستعبد حياتها من أجل مخطوطة أبيها المجنون. كان قلبه هرماً، مظلماً وقاسياً. كان قلباً من حجر. كان ذاك هو سرّه الوضيع.

15

أمضت أمّه سنة في الجامعة قبل أن تفسح المجال لإخوتها الأصغر سناً. وكان أبوه محامياً مؤهّلاً، يعمل في شركة ستاندرد للتعليب، لأن فتح مكتب محاماة خاص به (هذا ما كانت تقوله أمّه له) سيكلفهم مالاً أكثر مما يملكونه. ومع أنه كان ينحي باللائمة على أبويه لأنهما لم يربيّاه كطفل طبيعي، كان فخوراً بمستوييهما التعليمي.

وكان يعتبر نفسه إنكليزياً، لأنهما كانا يتكلّمان الانكليزية في البيت، ولأنه كان يحتل دائماً المرتبة الأولى باللغة الإنكليزية في المدرسة. ومع أن اسم عائلته كان أفريكانياً، ومع أن أباه كان أفريكانياً أكثر منه إنكليزياً، ومع أنه كان هو نفسه يتكلّم الأفريكانية بدون لكنة إنكليزية، لم يكن يعتبر نفسه للحظة واحدة أفريكانياً. فقد كان نطاق إجادته للغة الأفريكانية هزيلاً، ثمة عالم كثيف كامل من اللغة العامية والإيحاءات التي كان يتقنها الفتيان الأفريكان - والتي تعتبر البذاءة أحد أجزائها - لم يتمكن من الوصول إليه.

وكانت تجمع بين الأفريكانيين سمات عامة أيضاً هي: التجهم والعبوس والعناد، وليس بعيداً عنها، التهديد باستخدام القوة الجسدية (كان يعتبرهم أشبه بحيوانات الكركدن، ضخمة، تمشي

بتثاقل، قوية، يرتطم أحدها بالآخر وهي تسير) لم يكن يشاطرهم إياها، بل كان في الواقع يأنف منها ويزدريها. وكانوا يلوّحون بلغتهم مثل هراوة ضد أعدائهم. وكان يفضلّ أن يتجنب تجمعاتهم في الشوارع، حتى لو كانوا منفردين، لأن الرغبة في التهديد والمشاكسة لم تكن تفارقهم. وعندما كانت تتراصف الصفوف في شكل رباعي الأضلاع عند الصباح كان يدقق في صفوف الفتيان الأفريكان لعله يجد شخصاً مختلفاً فيه لمسة من الرقة، لكنه لم يكن يجد أحداً. وكان يحاول المستحيل كي لا يقع في قبضتهم: إذ كانوا سيسحقونه، ويقتلون الروح فيه.

ومع ذلك، ولمفاجأته، وجد نفسه لا يرغب في التنازل عن اللغة الأفريكانية لهم. وتذكّر أول زيارة له إلى فولفونتاين، عندما كان في الرابعة أو الخامسة من العمر، ولم يكن بإمكانه التحدث باللغة الأفريكانية بعد. وبقي أخوه الذي كان مايزال طفلاً صغيراً في الداخل لاتقاء الشمس. ولم يكن هناك أحد يلعب معهم سوى الأطفال الملوّنين. فقد كان يصنع مراكب معهم من أغلفة البذور ويجعلونها تطوف في مجاري أقنية الريّ. لكنه كان أشبه بمخلوق صامت، وكان كلّ شيء يتم بحركات صامتة. وكان يشعر أحياناً بأنه سينفجر بسبب الأشياء التي لم يكن يستطيع أن يقولها. وذات يوم فتح فمه فجأة، ووجد أنه يستطيع أن يتحدث، يتحدث بسهولة وبطلاقة وبدون توقف حتى يفكر بالكلمات. وكان مايزال يتذكّر كيف فاجأ أمّه وصاح: «اسمعي! فأنا أستطيع أن أتحدث اللغة الأفريكانية!».

وعندما بدأ يتحدث اللغة الأفريكانية بدا له أن جميع تعقيدات الحياة بدأت تتلاشى على حين غرة. فقد كانت اللغة الأفريكانية أشبه بغلاف شبحي يرافقه في كل مكان، وأنه كان حراً في أن

ينزلق فيها، ويصبح فجأة شخصاً آخر أكثر مرحاً وبساطة، وأكثر خفة وهو يطأ الأرض.

وكان ثمة شيء عن الإنكليز كان يجعله يشعر بخيبة الأمل، والذي لم يشأ أن يقلّده، هو احتقارهم للأفريكانية. فعندما كانوا يرفعون حواجبهم ويخطئون في لفظ كلمات أفريكانية على نحو متغطرس، كما لو أن كلمة veld التي تُلفظ بحرف v تدل على أنه رجل محترم، كان ينسحب منهم: كانوا مخطئين، بل والأسوأ كان شيئاً يثير السخرية. ولم يكن يقدّم أية تنازلات، حتى بين الإنكليز: فكان يلفظ الكلمات الأفريكانية تماماً كما كان يجب أن تُلفظ، بكلّ حروفها الساكنة القاسية وأحرفها الصوتية الصعبة.

وكان في صفه العديد من الصبية، بالإضافة إليه، يحملون أسماء كنية أفريكانية. أما في الصفوف الأفريكانية، من الناحية الأخرى، فلم يكن هناك صبية يحملون أسماء كنية إنكليزية. ففي المدرسة الثانوية فولفونتاين كان يعرف أفريكانياً واحداً يدعى سميث، الذي قد يكون سميت، وهذا كلّ ما في الأمر. كان أمراً يدعو للرثاء، لكنه كان مفهوماً: فما الذي كان يريده الرجل الإنكليزي من الزواج بامرأة أفريكانية، وأن تصبح لديه أسرة أفريكانية وجميع النساء الأفريكانيات إما ضخمات وبدينات ذوات أثداء منفوخة ورقاب تشبه الضفدع الأمريكي، أو ضامرات وممسوخات الصدر؟

كان يشكر ربه لأن أمّه كانت تتحدث الإنكليزية. إلا أن الشك كان مايزال يخامره حول والده، رغم شكسبير ووردزورث ولعبة الكلمات المتقاطعة في صحيفة كاب تايمز. فلم يكن يرى سبباً يجعل أباه يستمرّ في بذل جهوده لأن يكون إنكليزياً هنا في ووستر، بينما يسهل عليه كثيراً أن يعود ليصبح أفريكانياً. فقد كانت الطفولة في برينس ألبرت التي يسمع أباه ينكّت عنها مع

إخوته تعقد لسانه دهشة، لأنها لم تكن تختلف عن الحياة الأفريكانية في ووستر. فقد كانت تتركز على الضرب والتعرية، وعلى وظائف جسدية تمارس أمام أولاد آخرين، وعدم الاكتراث بالخصوصية بطريقة حيوانية.

وكانت فكرة أن يصبح فتى أفريكانياً، برأس حليق وبدون حذاء، تجعل قلبه يرتجف. كان أشبه بالدخول إلى السجن، بالدخول إلى حياة لا توجد فيها خصوصية، بينما لم يكن يستطيع أن يعيش بدون خصوصية. فلو كان أفريكانياً لعاش كلّ دقيقة وكلّ يوم وليلة برفقة الآخرين، وهو توقع لم يكن يستطيع أن يتصوره.

راح يتذكّر الأيام الثلاثة في مخيم الكشافة، يتذكّر تعاسته وشهوته اللتين كانتا تنتهيان دائماً بالفشل، فينسل عائداً إلى الخيمة ويقرأ كتابه وحيداً.

أرسله أبوه ذات يوم سبت لشراء سجائر. وكان أمامه خيار بين أن يذهب بالدراجة ويقطع الطريق كله إلى وسط البلدة حيث توجد دكاكين جيدة ذات واجهات زجاجية، أو يذهب إلى دكان أفريكاني صغير بالقرب من تقاطع السكة الحديدية، الذي كان عبارة عن غرفة واحدة تقع في مؤخرة بيت، وفيها منضدة مطلية باللون البني الداكن، حيث كادت الرفوف تكون خاوية. فاختار الأقرب.

كان عصر يوم حار. وكانت شرائط من لحم القديد تتدلى من سقف الدكان، والذباب يعج فيه. وكان على وشك أن يقول للصبي الواقف وراء المنضدة ـ أفريكاني يكبره سناً ـ بأنه يريد عشرين قطعة من لحم الغزال عندما دخلت ذبابة إلى فمه. فبصقها باشمئزاز، وسقطت الذبابة فوق المنضدة أمامه، تحاول التملص من بركة اللعاب.

«سيس!»، قال أحد الزبائن الآخرين.

أراد أن يحتج: «ماذا يجب أن أفعل؟ هل كان عليّ ألا أبصق؟ هل كان عليّ أن أبتلع الذبابة؟ فأنا مجرّد طفل!»، لكن التبريرات لم تكن تعني شيئاً لهؤلاء الناس الأفظاظ. مسح البصاق عن المنضدة بيده، ووسط رفض صامت، سدد ثمن السجائر.

عادت إلى ذاكرته أيام زمان في المزرعة، عندما كان أبوه وأعمامه يعودون إلى إثارة موضوع والدهم فيقولون: «كان عجوزاً محترماً حقيقياً». وكانوا يكرّرون عبارتهم عنه ويضحكون: «مزارع ورجل محترم ـ هذا ما كان يريد أن يكتبه على شاهدة قبره. وأكثر ما كان يضحكهم أن أباهم كان مايزال يرتدي حذاء ركوب الخيل الطويل، بينما كان الآخرون في المزرعة ينتعلون حذاء جلدياً من نوع velskoen.

وكانت أمّه تنصت إليهم وتقول بازدراء: لا تنسوا كم كنتم تخشونه. كنتم تخافون أن تدخنوا أمامه، حتى بعد أن أصبحتم رجالاً».

عندها كانوا يشعرون بالخجل، ولا يجيبوها. فمن الواضح أنها ضربتهم على الوتر الحساس.

ولم يكن جدّه، ذو الادعاءات النبيلة، يمتلك ذات يوم المزرعة ونصف حصة من الفندق ومخزناً عاماً للتجارة في فراسيربيرغ رود فقط، بل كان يمتلك أيضاً منزلاً في ميرويفيل وكانت تنتصب أمامه سارية علم يرفرف عليها العلم البريطاني في عيد ميلاد الملك.

«متعصب قومي حقيقي»، كان يضيف الإخوة ويضحكون مرة أخرى.

كانت أمّه محقّة. فقد كانوا يبدون كالأطفال عندما يتفوهون كلاماً بذيئاً من وراء ظهر أبيهم. لكنهم بأي حقّ كانوا يسخرون من أبيهم؟ وبالنسبة له لم يكونوا يتكلمون اللغة الانكليزية على الإطلاق: بل كانوا مثل جيرانهم من آل بوتي وآل نيجريني، أغبياء وثقلاء، لايعرفون شيئاً يتحدثون عنه سوى الأغنام والطقس. وعلى الأقل كان يسمع، عندما يلتئم شمل العائلة، سيلاً من النكات والضحكات في خليط من الألسنة، أما عندما كانت تأتي عائلة نيجريني أو بوتي لزيارتهم، فكان الجو يتغير فجأة ويصبح متجهّماً وثقيلاً ومملاً في الحال. ـ Janee ـ، يقول بوتي متنهداً. ـ Ja ـ nee ـ يرد كويتزي، ويبتهل بأن يغادر ضيوفهم بسرعة.

لكن ماذا عنه هو نفسه. فإذا كان الجدّ الذي يحترمه متعصباً قومياً، فهل كان هو متعصباً قومياً أيضاً؟ هل يمكن للطفل أن يكون متعصباً قومياً؟ فقد كان يقف باستعداد دائماً عندما يُعزف نشيد «فليحفظ الله الملك» في المذياع ويرفرف العلم البريطاني. إذ كانت موسيقى القرب تبعث رعشة في أسفل عموده الفقري، كما كانت تفعل كلمات مثل نصير وشجاع. هل ينبغي له أن يحتفظ بهذا السر، ارتباطه هذا بإنكلترا؟

ولم يكن يفهم سبب كراهية الكثير من الناس حوله لإنكلترا. إنكلترا دنكيرك، ومعركة بريطانيا. إنكلترا التي تقوم بواجبها وتقبل مصيرها بهدوء وبدون صعوبة. إنكلترا الصبي في معركة غوتلاند، الذي وقف إلى جانب مدافعه وهو يتجاوز السطح. إنكلترا السير لانسيلوت أوف لايك وريتشارد قلب الأسد وروبن هود. ماذا لدى الأفريكانين ليقارنوا أنفسهم بهم؟ ديركي أيس الذي امتطى حصانه حتى نفق؟ بيت ريتيف الذي سخر منه دينجان؟ وثم الفورتريكيرس الذي انتقم بإطلاق النار على آلاف الزولو العزّل من السلاح، وهم يفتخرون بذلك.

وكانت توجد كنيسة في ووستر تابعة للكنيسة الإنكليزية، فيها كاهن أشيب الشعر وكان يدخن غليوناً ويرأس فريق الكشافة، الذي كان بعض الأولاد الإنكليز في صفه - إنكليز حقيقيون، ذوو أسماء وبيوت إنكليزية تقع في الجزء القديم المحاط بالأشجار في ووستر - يشيرون إليه بطريقة حميمة ويدعونه الخوري. وعندما كان الإنكليزي يتكلم هكذا كان يلبث صامتاً. فهاهي اللغة الإنكليزية التي يجيدها بسهولة. وهناك إنكلترا وكلّ شيء تعنيه إنكلترا، التي كان يعتقد أنه كان موالياً لها. لكن من الواضح أنه سيُطلب منه المزيد، فقبل أن يُقبل المرء كإنكليزي حقاً كان يجب عليه أن يمر في اختبارات عديدة، كان يعرف أنه لن يجتاز بعضاً منها.

16

كان قد رُتِّب كلّ شيء على الهاتف. لم يكن يعرف ما هو لكنه كان يجعله يشعر بالقلق. لم يحبّ الابتسامة الخفية السعيدة التي كانت ترتسم على شفتي أمّه، الابتسامة التي كانت تعني أنها تتدخل في شؤونه.

كانت في تلك الأيام الأخيرة قبل أن يغادروا ووستر، وكانت كذلك أجمل أيام السنة الدراسية. فقد انتهت الامتحانات، ولم يكن لديه شيء يفعله سوى مساعدة المعلّم في ملء سجل علاماته.

كان السيد غووس يقرأ قوائم العلامات، ثم يقوم الصبية بجمعها، موضوعاً موضوعاً، ثم يحسبون النسبة المئوية، ويتسابقون من سيكون الأول ويرفع يده. وكانت اللعبة تكمن في تخمين علامات أي تلميذ. وكان بوسعه عادة أن يعرف علاماته عندما يرتفع التسلسل إلى التسعينات والمئات في مادة الحساب، وتتضاءل إلى السبعينات في مادتي التاريخ والجغرافية.

لم يكن يحرز علامات جيدة في مادتي التاريخ والجغرافيا لأنه كان يكره الحفظ عن ظهر قلب. ومن شدة كراهيته لهاتين المادتين كان يؤجّل دراستهما للامتحانات حتى آخر لحظة، حتى الليلة التي كانت تسبق الامتحان أو حتى إلى صباح يوم الامتحان. كان يكره رؤية كتاب منهاج التاريخ، وغلافه الصلب البني بلون الشوكولاته، وقوائمه الطويلة المملّة عن أسباب الأشياء (أسباب حروب نابليون،

وأسباب النزوح العظيم)، لمؤلفيه تيجارد وشويمان. وكان يتخيّل تيجارد نحيفاً وجافاً، وشويمان بديناً وأصلعاً ذا نظّارات، ويجلسان قبالة بعضهما إلى الطاولة في غرفة في بارل، يكتبان صفحات بمزاج سيئ ويمررها أحدهما إلى الآخر. ولم يكن يستطيع أن يتصوّر لماذا كان عليهما أن يؤلفا كتابهما هذا باللغة الإنكليزية إلا لتلقين الأطفال الإنكليز درساً.

أما الجغرافيا فلم تكن أحسن حالاً: قوائم طويلة بالمدن، وقوائم بالأنهار، وقوائم بالمنتجات. وعندما كان يُطلب منه أن يعدّد منتجات بلد ما، كان ينتهي دائماً بقائمته عن الجلود والجلود المدبوغة ويتمنّى لو أنه لم يكن مخطئاً. ولم يكن يعرف الفرق بين الجلد والجلد المدبوغ، شأنه شأن الآخرين.

أما بالنسبة إلى الامتحانات الباقية فلم يكن يترقبها، ومع ذلك عندما يقترب وقتها كان ينكّب عليها برغبة شديدة. فقد كان يحب الامتحانات، فإذا لم تكن هناك امتحانات يحبها فلن يكون ثمة شيء يتميّز به. فالامتحانات تخلق فيه حالة من الاندفاع والرعشة فتجعله يكتب بسرعة وثقة. لكنه لم يكن يحبّ الحالة بحد ذاتها، إلا أنها كانت تجعله يشعر بالإطمئنان لأنه يعرف أنها موجودة.

وكان في بعض الأحيان يحكّ حجرتين ببعضهما ويتنشقهما، فيستعيد تلك الحالة، تلك الرائحة، ذلك الطعم: البارود، الحديد، الحرارة. وتجري في عروقه خفقات مستمرة.

ثم انكشف السرّ وراء المكالمة الهاتفية، ووراء ابتسامة أمّه، أثناء استراحة منتصف النهار، عندما أشار إليه السيد غووس بأن يبقى بعد أن يغادر التلاميذ. ثمة مظهر زائف في السيد غووس، تودّد جعله يرتاب فيه.

قال له السيد غووس إنه يريد أن يزوره في بيته لاحتساء الشاي، فهز رأسه دون أن ينبس بكلمة، وحفظ العنوان.

كان شيئاً لم يكن يرغب به. لم تكن المسألة في أنه لم يكن يحبّ السيد غووس. فإذا لم يكن يثق به كما كان يثق بالسيدة ساندرسن معلّمة الصف الرابع، فكان ذلك لسبب واحد وهو أن السيد غووس كان رجلاً، أول معلّم ذكر يعلّمه، وكان يتوجس من شيء يتنفّسه جميع الرجال: التململ، والفظاظة اللتان قلما يتم كبحهما، تلميح بالمتعة بوحشية وقسوة. لم يكن يعرف كيف يتصرّف مع السيد غووس أو مع الرجال عامة. فإما كان عليه ألا يبدي أية مقاومة ويتودد إليهم للحصول على موافقتهم، أو أن يقيم حاجزاً من التصلب بينه وبينهم. أما النساء فكن أكثر سلاسة وسهولة لأنهن كن أكثر لطفاً ودماثة. أما السيد غووس - لا يستطيع أن ينكر ذلك - فكان مهذباً. وكان يجيد اللغة الإنكليزية، ولم يبدُ أنه كان يكنّ أية ضغينة أو عداوة للإنكليز أو للأولاد من العائلات الأفريكانية التي كانت تفضّل أن تكون إنكليزية. وخلال غياباته الكثيرة عن المدرسة، كان السيد غووس يدرّس إعراب متممات المسند. وكانت مشكلته تكمن في اللحاق بزملائه في الصف في فهم متممات المسند. فإذا لم يصبح لمتمم المسند أي معنى، كالتعابير الاصطلاحية، لواجه الأولاد الآخرون مشكلة معها أيضاً. إلا أن الأولاد الآخرين أو معظمهم، كان يبدو أنهم يعرفون متممات المسند جيداً. ولم يكن ثمة مهرب من النتيجة: وهي أن السيد غووس كان يعرف في قواعد اللغة الإنكليزية شيئاً لم يكن يعرفه هو.

كان السيد غووس يستعمل العصا مثل أيّ معلّم آخر. إلا أن عقابه المفضّل، عندما كان التلاميذ يحدثون ضجيجاً وصخباً لفترة طويلة في الصف، يتمثل في أن يأمرهم بأن يضعوا أقلامهم، ويغلقوا كتبهم، ويشبكوا أيديهم وراء رؤوسهم، ويغمضوا عيونهم، ويجلسوا بدون حركة على الإطلاق.

وفيما عدا وقع أقدام السيد غووس وهو يذرع غرفة الصف ذهاباً وإياباً، كان يخيم على غرفة الصف صمت مطبق. وكانت تُسمع من أشجار الكالبتوس في الخارج أصوات هديل الحمام الهادئة. كان ذلك عقاباً يمكنه أن يتحمّله إلى الأبد، بذلك الوقار والرصانة: الحَمَام، صوت تنفّس الأولاد الناعم حوله.

وكان السيد غووس يقطن في شارع ديسا رود، الذي يقع كذلك في منطقة ريونيون بارك، في الامتداد الشمالي الجديد للبلدة التي لم يستكشفها من قبل. ولم يكن السيد غووس الوحيد الذي كان يعيش في منطقة ريونيون بارك، وكان يأتي إلى المدرسة على دراجة ذات عجلات سميكة. وكانت لديه زوجة، امرأة متوسطة الجمال، داكنة اللون، والمفاجأة الأكبر بالنسبة له أنه كان لديه طفلان صغيران. هذا ما يكتشفه في غرفة جلوس البيت رقم 11 في ديسا رود، عندما وضعت على المنضدة بعض الكعكات وإبريق من الشاي، حيث تُرِكَ مع السيد غووس وحده، كما كان يخشى، لإجراء حديث زائف ميؤوس منه.

وازداد الأمر سوءاً. فقد قام السيد غووس بخلع ربطة عنقه وسترته، وارتدى سروالاً قصيراً وجوارب كاكية اللون ـ محاولاً أن يبدي له أن السنة الدراسية قد انتهت، وأنه على وشك أن يغادر ووستر الآن، وأنهما يمكنهما أن يكونا صديقين ـ وفي الواقع كان يحاول أن يوحي أنهما كانا صديقين طوال العام: المعلّم وأذكى تلميذ في الصف الذي كان يحتل المرتبة الأولى على الدوام.

شعر بالارتباك والتشنج. قدم له السيد غووس كعكة ثانية، لكنه رفضها. «هيا!» قال السيد غووس وابتسم، ووضعها في صحنه. راودته رغبة شديدة في الذهاب.

كان يريد أن يغادر ووستر، وكلّ شيء فيها على ما يرام. وكان مستعداً لأن يمنح السيد غووس حيزاً في ذاكرته إلى جانب

السيدة ساندرسن. لا معها تماماً، بل قريباً منها. لكن السيد غووس أفسد ذلك الآن. تمنى ألا يفعل ذلك.

كانت الكعكة الثانية تقبع في صحنه كما هي. لم يشأ أن يتظاهر أكثر من ذلك: ازداد صمتاً وعناداً. «هل يجب أن تذهب؟»، سأله السيد غووس. هز رأسه. نهض السيد غووس ورافقه إلى الباب، في شارع 12 - جادة شجرة الحور، تئنّ المفصلات على الإيقاع العالي ذاته.

على الأقل ينتاب السيد غووس إحساس يجعله لا يصافحه، أو أن يفعل شيئاً آخر أحمق.

كان لقرار مغادرة ووستر علاقة بشركة ستاندرد للتعليب. فقد قرّر أبوه أن مستقبله لم يعد في هذه الشركة، التي كانت، حسب قوله، في طريقها إلى الانحدار. وأن يعود إلى ممارسة المحاماة.

أقيم حفل وداع في المكتب الذي عاد منه والده حاملاً ساعة جديدة. وبعد فترة قصيرة توجه إلى كيب تاون وحده، تاركاً أمّه لتشرف على عملية الانتقال.

اتصلت بمقاول يدعى ريتيف. اتفقا على أن يقوم بنقل الأثاث، وأن ينقلهم هم الثلاثة أيضاً في سيارته لقاء خمسة عشر جنيهاً.

حمّل رجال ريتيف أمتعتهم وأثاثهم في الشاحنة، وصعدت أمّه وأخوه إلى السيارة. أجرى جولة أخيرة سريعة حول البيت الفارغ وقال الوداع. كان يقبع وراء الباب الأمامي مشجب لوضع المظلات، كانت توضع عليه عادة مضارب الغولف وعكاز، وقد أصبح خاوياً الآن. صاح: «لقد نسوا مشجب المظلات!». لكن أمّه نادته وقالت: «هيا! انس مشجب المظلات القديم ذاك!». صاح «لا!»، وقال إنه لن يغادر حتى يحضر الرجال مشجب المظلات. دمدم ريتيف متذمراً وقال: «إنه مجرد أنبوب قديم».

وهكذا يعرف أن ما كان يظنه مشجباً للمظلات لم يكن سوى أنبوب خرساني للمجاري كانت قد أحضرته أمّه وطلته باللون الأخضر. وكان ما أخذوه معهم إلى كيب تاون: الوسادة المكسوة بشعرات الكلب التي كان كوساك ينام عليها، والشبك الملفوف من قفص الدجاج، والجهاز الذي يرمي كرات الكريكت، والعصا الخشبية المحفور عليها رموز المورس. وبينما راحت الشاحنة تصعد في طريق كلوف باين، أحسّ بأن شاحنة ريتيف أشبه بسفينة نوح، تنقذ عصي وأحجار حياتهم القديمة.

كانوا يدفعون اثني عشر جنيهاً في الشهر إيجاراً لبيتهم في منطقة ريونيون بارك. أما المنزل الذي استأجره أبوه في بلومستيد فكانت أجرته تبلغ خمسة وعشرين جنيهاً. وكان يقع على طرف بلومستيد، أمامه منطقة فسيحة من الرمال مسيجة بالشجيرات، حيث عثرت الشرطة بعد أسبوع واحد من وصولهم على رضيع ميت ملفوف في صرة ورقية بنية اللون. وكانت محطة سكة حديد بلومستيد تقع على بعد مسيرة نصف ساعة في الاتجاه الآخر. وكان البيت نفسه حديث البناء، مثل جميع البيوت في إفريموند رود، حيث كانت الشبابيك مزخرفة، والأرضية مرصوفة بالخشب. وكانت الأبواب ملتوية ومنحرفة، والأقفال لا تقفل، وكانت كومة من النفايات ملقاة في الفناء الخلفي.

وكان يقطن في البيت المجاور رجل وامرأة كانا قد وصلا حديثاً من إنكلترا. ولم يكن الرجل يتوقف عن غسل سيارته. أما المرأة فكانت ترتدي سروالاً قصيراً أحمر وتضع نظارات شمسية، وكانت تمضي أيامها مضطجعة على كرسي طويل نقال، لكي تجعل ساقيها البيضاوين الطويلتين سمراوان.

وكان عليهم إيجاد مدارس له ولأخيه. ولم تكن كيب تاون مثل

ووستر، حيث يذهب جميع الصبية إلى مدرسة للصبيان، والفتيات إلى مدرسة للفتيات. بل كان بوسع المرء أن يختار المدرسة التي يريدها في كيب تاون. إلا أنه لكي تتمكن من الدخول إلى مدرسة جيدة كنت تحتاج إلى اتصالات ومعارف، ولم تكن لديهم اتصالات كثيرة.

وبنفوذ من خاله لانس، تمكنوا من أجراء مقابلة في مدرسة رونديبوش الثانوية للصبيان. فقد ارتدى بأناقة سرواله القصير وقميصه وربطة عنقه وسترته الزرقاء ـ الزرقاء الداكنة المثبّت على جيب الصدر فيها شارة مدرسة ووستر الابتدائية. وجلس هو وأمّه على مقعد خارج مكتب المدير ينتظران. وعندما جاء دورهما دخلا إلى غرفة مكسوة بألواح خشبية ومليئة بصور فرق الكريكت والركبي. وتوجّه المدير بأسئلته جميعها إلى أمّه: أين يقيمون، ماذا يعمل والده. ثم أتت اللحظة التي كان ينتظرها. فأخرجت من حقيبة يدها التقرير الذي يثبت أنه كان الأول في صفه وأن ذلك كان يجب أن يفتح له جميع الأبواب.

وضع المدير نظارات القراءة على عينيه وقال: «هكذا إذاً، فقد كنت الأول في صفك»، ثم أضاف: «جيد، جيد! لكنك لن تجد الأمور سهلة جداً هنا».

كان يوّد أن يُجرى له اختبار: أن يُسأل عن تاريخ معركة نهر الدم، بل أن يعطوه مسائل في الحساب الذهني. لكن كان ذلك كلّ شيء. فقد انتهت المقابلة. وقال المدير: «لن أعدكم بشيء، سنضع اسمه في قائمة الانتظار. ثم يجب أن نأمل في أن ينسحب أحد التلاميذ».

وأدرج اسمه في قوائم انتظار ثلاث مدارس، دون جدوى. وتبين له أن شغله المرتبة الأولى في ووستر لم يكن كافياً في مدارس كيب تاون.

وكانت مدرسة القديس يوسف الكاثوليكية الملاذ الأخير. إذ لم يكن في مدرسة القديس يوسف قائمة انتظار، بل كانوا يقبلون أي تلميذ مستعد لدفع الرسوم، التي كانت تبلغ اثني عشر جنيهاً وربع الجنيه للطلاب من غير الكاثوليك.

وتبيّن له ولأمّه أن مختلف طبقات الناس في كيب تاون كانت تحضر مدارس مختلفة. أما مدرسة القديس يوسف، فإنها لم تكن تحتوي على أدنى طبقات الناس، لكنها كانت تضم الناس من الطبقة الأدنى الثانية. وإن عدم تمكنها من تسجيله في مدرسة أفضل جعل أمّه تشعر بالمرارة. إلا أن ذلك لم يزعجه على الإطلاق. فلم يكن يعرف تماماً إلى أي طبقة ينتمون، وأين يقع مكانهم الملائم. لقد كان راضياً في الوقت الحالي على سير الأمور بهذه الطريقة. فقد تلاشى التهديد بأن يرسل إلى مدرسة أفريكانية، وأن يخضع إلى أسلوب الحياة الأفريكانية - وكان هذا هو المهم. فقد أصبح بإمكانه أن يشعر بالارتياح الآن، ولم يعد يتعين عليه مواصلة الإدّعاء بأنه كاثوليكي.

ولم يكن الإنكليز الحقيقيون يذهبون إلى مدارس مثل مدرسة القديس يوسف. لكنه كان يراهم في شارع روندیبوش، وهم في طريقهم إلى مدارسهم أو عائدين منها كلّ يوم، وكان يُعجب بشعرهم الأشقر المسترسل، وبشرتهم الذهبية، وثيابهم التي لم تكن بالضيقة جداً أو الواسعة جداً عليهم، وثقتهم الهادئة بنفسهم. وكان أحدهم يمازح الآخر (كلمة عرفها من قصص المدرسة العامة التي كان يقرأها) ببساطة، بدون الخشونة والفظاظة التي اعتاد عليها. لم يكن يطمح في الانضمام إليهم، لكنه كان يراقب ويحاول أن يتعلم.

أما الأولاد في كلية الأبرشية، الأكثر إنكليزية من بين الجميع، فكانوا لا يتنازلون حتى بلعب مباراة بالركبي أو الكريكت ضد

مدرسة القديس يوسف، وكانوا يعيشون في مناطق معينة التي، لكونها بعيدة عن خطّ السكة الحديدية، كان يسمع عنها، لكنه لم يرها أبداً: بيشوبسكورت، وفيرنوود، وكونستانتيا. وكان عندهم أخوات يذهبن إلى مدارس مثل هيرشيل والقديس سايبريان، وكانوا يقومون بحراستهن وحمايتهن بلطف. أما في ووستر فقلما وقعت عيناه على فتاة: فقد كان يبدو أن لأصدقائه إخوة دائماً ولم تكن لديهم أخوات. أما الآن فقد أصبح يرى للمرة الأولى أخوات الإنكليز، ذوات الشعر الأشقر الذهبي، اللاتي كن في غاية الجمال، إلى حد أنه لم يكن يصدق أنهن من هذه الأرض.

ولكي يصل إلى المدرسة في الساعة 8.30، كان يتعين عليه أن يخرج من البيت في الساعة 7.30. يمشي نصف ساعة إلى المحطة، ويستقل القطار الذي تستغرق رحلته مدة خمس عشرة دقيقة، ثم يسير مدة خمس دقائق من المحطة إلى المدرسة، ويعطي نفسه عشر دقائق في حال حدوث تأخير. ولأنه كان يخشى التأخير كان يخرج من البيت في الساعة السابعة ويصل إلى المدرسة في الثامنة. وكان يجلس في قاعة الصف التي يكون قد فتحها البوّاب لتوه، في مقعده ورأسه مستند إلى ذراعيه وينتظر.

وكان ينتابه دائماً هاجس أن يخطئ في قراءة ساعته، أو أن يفوّت القطار، أو أن يسلك الطريق الخطأ. كان يبكي في كوابيسه بيأس عاجز.

وكان الولدان الوحيدان اللذان كانا يصلان إلى المدرسة قبله هما الأخوان دي فريتاس، اللذان كان يوصلهما أبوهما، البقال، عند الفجر بشاحنته الزرقاء المهلهلة، وهو في طريقه إلى سوق الخضار في سولت ريفر.

وكان المعلمون في مدرسة القديس يوسف ينتمون إلى أخوية

المريميين. وكان يعتبر هؤلاء الأخوة، في ثيابهم الكهنوتية الشديدة السواد وشالاتهم البيضاء المنشّاة، أناساً خاصّين. وكان اللغز الذي كان يحيط بهم يثير إعجابه: لغز من أين أتوا، ولغز أسمائهم التي تخلّوا عنها. ولم يكن يحبّ الأخ أوغسطين، مدرب الكريكت، عندما كان يأتي للتدريب مرتدياً قميصاً أبيض وبنطالاً أسود وحذاء الكريكت مثل أي شخص عادي آخر. ولم يكن يحبه خاصة عندما يأخذ دوراً لرمي الكرة بالمضرب.

ولم يكن يعرف ماذا يفعل هؤلاء الأخوة عندما لا يدرّسون. إذ كان يحظر على الآخرين الاقتراب من جناح مبنى المدرسة حيث كانوا ينامون ويأكلون ويعيشون حياتهم الخاصة، ولم تكن تراوده الرغبة في اختراقه. وكان يريد أن يفكّر بأنهم كانوا يعيشون حياة صارمة هناك، ينهضون في الساعة الرابعة صباحاً، ويمضون ساعات عديدة وهم يصلون، ويأكلون قليلاً، ويرفون جواربهم بأنفسهم. وعندما كانوا يسيؤون التصرف كان يبذل ما بوسعه ليجد لهم الأعذار. فعندما كان يفسو مثلاً الأخ أليكسيس البدين وغير الحليق، على نحو سمج وينام في صف اللغة الأفريكانية، كان يعلل ذلك لنفسه بالقول إن الأخ أليكسيس رجل ذكي يجد التعليم تحته. وعندما أعفي الأخ جان بيير فجأة من مهامه في بيت الطلبة الصغار في غمرة قصص أشيعت عنه بأنه يفعل أشياء للصبية الصغار، حاول أن ينسى بكل بساطة هذه القصص. إذ لم يكن يتصور أن يكون للأخوة رغبات جنسية لا يمكنهم مقاومتها.

وبما أن عدداً قليلاً من الأخوة كان يتحدث اللغة الانكليزية كلغة أولى، فقد وظفّوا رجلاً عادياً كاثوليكياً لتدريس الصفوف الإنكليزية، وهو السيد ويلان الإيرلندي، الذي كان يكره الإنكليز ولم يكن يخفي كراهيته للبروتستانت. كما لم يكن يبذل أي جهد ليلفظ الأسماء الأفريكانية بشكل صحيح، بل كان يلفظها بشفاه مزمومة كما لو كانت أشياء تافهة وثنية مقيتة.

وكانوا يمضون جلّ وقتهم في صفوف الدروس الإنكليزية في دراسة يوليوس قيصر لشكسبير، وكانت طريقة السيد ويلان في التدريس تكمن في أن يحدد دوراً لكل فتى، ويقرأ كل فتى دوره بصوت جهوري. وكانوا كذلك يقومون بحلّ تمارين من كتاب القواعد المدرسي، وكانوا يكتبون مقالاً مرة في كلّ إسبوع. وكانت تعطى لهم مدة ثلاثين دقيقة لكتابة المقال قبل تسليمها. وكان السيد ويلان يقرأ المقالات في الدقائق العشر المتبقية، ويعطيها علامات، لأنه لم يكن يؤمن بأن يأخذ الوظائف إلى البيت.

وفي ووستر كان يذهب إلى المدرسة يتملكه الخوف، لكنه كان متحمساً أيضاً. فصحيح أنه كان من الممكن أن يفتضح أمره بأنه كذّاب، والعواقب الفظيعة التي كانت ستنجم عن ذلك، كانت المدرسة رغم ذلك تفتنه: فقد بدا له أن كل يوم كان يجلب معه مفاجآت جديدة من القسوة والألم والكراهية الغاضبة، تحت السطح اليومي للأشياء. وكان يعرف أن ما يجري خطأ، وأنه لم يكن يجب عليه أن يسمح بحدوثه. وكان صغيراً، طفلاً وهشاً للغاية، لا يتحمل ما كان يتعرّض له. غير أن بهجة وغضب تلك الأيام كانت تستحوذ عليه. كان مدهوشاً ومصدوماً لكنه كان طمّاعاً كذلك راغباً في أن يرى المزيد، أن يرى كلّ ما كان يمكن رؤيته.

وبعكس ذلك، سرعان ما بدأ يشعر في كيب تاون بأنه يضيّع وقته. فلم تعد المدرسة مكاناً تنبعث منها عواطف جياشة. كان عالماً صغيراً منكمشاً على نفسه، يكاد يكون سجناً حميداً يمكن أن ينسج فيه سلالاً وهو يجتاز رتابة قاعات الدروس. ولم تجعله كيب تاون أذكى، بل زادته غباء. وكانت معرفة ذلك تسبّب له رعباً متزايداً. فأياً كان هو في الحقيقة، وأياً كانت «الأنا» الحقيقية التي تبرز من رماد طفولته لم يكن يسمح لها بأن تولد، وبقيت ضئيلة ومتقزمة.

كانت تراوده هذه المشاعر بقنوط عندما كان يحضر صفوف السيد ويلان. إذ كان بوسعه أن يكتب أكثر مما كان يسمح به السيد ويلان بكثير. ولم تكن الكتابة للسيد ويلان تعني أنه كان يفرد أجنحته، بل على العكس، كانت تعني أن يتكوّر، ويجعل نفسه صغيراً وغير مزعج بقدر ما يستطيع.

لم يكن يرغب في الكتابة عن الرياضة والرجال أو سلامة الطرق المملّة جداً إلى حد أنه كان يتعين عليه أن يخرج الكلمات قسراً. ولم يكن يريد أن يكتب عن قطاع الطرق: فقد كان لديه إحساس بأن الانطباع الذي كان يحدثه شعاع ضوء القمر الذي يتساقط على وجوههم، وأيديهم البيضاء التي تمسك بأعقاب مسدساتهم، مهما كان مؤقتاً، لم تكن انطباعاته، بل كانت تأتي من مكان آخر وتذوي وتتلاشى. إن ما سيكتبه لو استطاع ذلك، لو لم يكن السيد ويلان هو الذي كان سيقرأه، لكان شيئاً أكثر حلكة، شيئاً ما أن يبدأ يتدفق من قلمه حتى يملأ الصفحة دون إرادة منه، أشبه بحبر مندلق، مثل ظلال تتسابق فوق سطح ماء راكد، كالبرق الذي يشق السماء.

وكان السيد ويلان مكلَّفاً أيضاً بالإشراف على الصبية في الصف السادس ممن هم غير كاثوليك، بينما ينهمك الصبية الكاثوليك في دروسهم الدينية، وكان يفترض أن يقرأ لهم إنجيل القديس لوقا. وعوضاً عن ذلك كانوا يستمعون مراراً وتكراراً عن بارنيل وروجر كايسمنت، وعن غدر الإنكليز. وكان السيد ويلان يأتي إلى الصف في بعض الأيام وبيده صحيفة كاب تايمز، وهو يتميز غضباً بسبب آخر أخبار الفظائع التي ارتكبها الروس في الدول التابعة لهم، ويقول مجلجلاً: «لقد أقاموا صفوفاً في مدارسهم تعلّم الإلحاد، ويُرغم الأطفال فيها على أن يبصقوا على الصليب»، ويضيف: «أما الذين يحافظون على إخلاصهم وإيمانهم

فيرسلون إلى معسكرات اعتقال سيئة السمعة. هذه هي حقيقة الشيوعية التي تطلق على نفسها بكلّ صفاقة (دين الإنسان)».

وكانوا يستمعون من الأخ أوتو إلى اضطهاد المسيحيين في الصين. إلا أن الأخ أوتو لم يكن مثل السيد ويلان. بل كان هادئاً، سريع الخجل، وكان يجب أن تلاطفه لكي يروي قصصاً. إلا أن لقصصه مصداقية أكبر لأنه زار الصين في الواقع.

«نعم، لقد رأيتها بأمّ عينيّ»، كان يقول بلغته الإنكليزية المتعثّرة: «يُسجن الناس في زنازين صغيرة للغاية تحشر فيها أعداد كبيرة لايستطيعون أن يتنفّسوا فيها، ويموتون. لقد رأيت ذلك».

وكان الصبية يطلقون على الأخ أوتو من وراء ظهره اسم تشينغ تشونغ الصيني. ولم يكن ما يرويه لهم الأخ أوتو عن الصين، أو السيد ويلان عن روسيا، حقيقياً أكثر من جان فان ريبيك أو النزوح الكبير. وبما أن يان فان ريبيك أو النزوح الكبير كانا مقررين في المنهاج المدرسي ولم تكن الشيوعية مقررة، كان بإمكانهم إهمال ما كان يجري في الصين وفي روسيا. فلم تكن الصين وروسيا إلا أعذاراً لكي يستمر السيد ويلان أو الأخ أوتو في الكلام.

أما هو فكان ينتابه الاضطراب. إذ كان يعرف جيداً أن روايات معلميه كاذبة، لكن لم تكن لديه الوسائل التي تمكّنه من إثبات ذلك. وكان يشعر بالسخط لأنه كان مضطراً للجلوس والاستماع إليهما، لكنه كان شديد الحرص على ألا يحتجّ أو يعترض. فقد كان يقرأ صحيفة كاب تايمز، وكان يعرف ما كان يحدث لرفاق السفر. وكان يتمنى أن يُندد ويُشجب ويُنبذ.

ومع أن السيد ويلان لم يكن شديد الحماس لتعليم الكتاب

المقدّس للكاثوليك، فلم يكن يستطيع أن يهمل الإنجيل كله. «من ضربك على الخدّ الأيمن فدر له الأيسر»، يقرأ من إنجيل لوقا. «ماذا يقصد السيد المسيح؟ هل يقصد أننا يجب أن نرفض أن ننهض وندافع عن أنفسنا؟ هل يعني أننا يجب أن نكون جبناء؟ بالطبع لا. لكن إذا جاءك شخص شرس وطلب منك الشجار فهنا يقول السيد المسيح: لا تجعله يستفزك. فثمة سبل لتسوية الخلافات أفضل من التلاكم بالقبضات».

«فإن من له سيعطى ويزاد. وأما من ليس له فالذي عنده سيؤخذ منه. ماذا يعني السيد المسيح؟ هل يعني أن السبيل الوحيد للوصول إلى الخلاص هو أن نعطي كلّ ما عندنا؟ لا. فإذا كان السيد المسيح يريدنا أن نمشي في أسمال بالية، لكان قد قال لنا ذلك. إن المسيح يضرب أمثالاً. إنه يقول إن من آمن منّا حقاً فسيكافأ بالجنة، أما الذين لا يؤمنون فمصيرهم عقاب أبدي في الجحيم».

كان يتساءل إن كان السيد ويلان يدقق مع الأخوة ـ وخاصة الأخ أوديلو، أمين الصندوق المسؤول عن تحصيل الرسوم الدراسية ـ قبل أن يعظ هذه العقائد لغير الكاثوليك. فمن الواضح أن السيد ويلان، المعلّم الذي لم يكن كاهناً، يؤمن بأن كلّ شخص غير كاثوليكي كافر، ملعون. في حين كان الأخوة أنفسهم، من الناحية الأخرى، متسامحين للغاية.

كانت مقاومته لدروس الكتاب المقدّس التي كان السيد ويلان يلقيها تترسخ في أعماقه. فقد كان واثقاً أن السيد ويلان لم يكن يعرف شيئاً عما تعنيه أمثال السيد المسيح. ومع أنه كان ملحداً هو نفسه، وظل دائما هكذا، كان يشعر أنه يفهم المسيح أفضل مما كان يفهمه السيد ويلان. فهو لا يحبّ المسيح ـ فالمسيح يغضب بسهولة كبيرة ـ لكنه كان مستعداً لأن يتحمله. على الأقل لم يدّعِ المسيح أنه

هو الله، ومات قبل أن يصبح أباً. تلك هي قوّة المسيح، وبهذه الطريقة يحافظ المسيح على قوّته.

لكنه لم يكن يحب أن يستمع إلى مقطع في إنجيل لوقا. وعندما كانوا يصلون إلى هذا المقطع كان يتصلب ويتشنج ويسدّ أذنيه. («وأتت النساء الى القبر حاملات الحنوط الذي أعددنه ليُدهن به جسد يسوع، فلم يجدن جسد يسوع. بل يرين ملاكين اثنين. قالا لهنّ: لماذا تطلبن الحي بين الاموات؟ فهو ليس ههنا لكنه قام»). إذا تعين عليه أن يفتح أذنيه ويترك الكلمات تسري في جسده، كان يعرف أنه سيقف على مقعده ويصيح منتصراً. لا بد أن يكون أحمق إلى الأبد.

ولم يكن يشعر بأنّ السيد ويلان كان يضمر له الشرّ شخصياً.

ورغم ذلك كانت أعلى علامة يحصل عليها في امتحان اللغة الإنكليزية هي 70 علامة. وبعلامة الـ 70 لم يكن يستطيع أن يحتل المرتبة الأولى في اللغة الإنكليزية: فقد كان بوسع الأولاد ذوي الحظوة أن يهزموه بسهولة. كما لم يكن يحصل على علامات جيدة في مادتي التاريخ والجغرافيا، اللتين كانتا تجعلانه يشعر بالملل أكثر من أي شيء آخر. ولم يكن يحرز علامات عالية إلا في الرياضيات، واللغة اللاتينية التي كانت تجعل اسمه يتصدر القائمة بصعوبة، قبل أوليفير ماتر، الولد السويسري الذي كان أذكى تلميذ في الصف قبل وصوله.

أما الآن فقد أصبح يواجه منافساً جديراً مع أوليفير، وأصبح القَسم القديم الذي قطعه على نفسه بأن يحصل على المركز الأول دائماً مسألة شرف خاصة وحامية الوطيس. ومع أنه لم يكن يقول شيئاً عن ذلك لأمّه، فقد كان يستعدّ لليوم الذي لن يستطيع فيه مواجهته، اليوم الذي سيخبرها بأنه احتل المرتبة الثانية.

وكان أوليفير ماتر صبياً لطيفاً، مبتسماً، وذا وجه يشبه

القمر، وكان يبدو أنه لم يكن يمانع في أن يشغل المرتبة الثانية مثله. فقد كان يتنافس هو وأوليفير يومياً في مسابقة الجواب السريع التي يجريها الأخ غابرييل. إذ يصفّ الأولاد في نسق، ويسير إلى بداية الرتل ونهايته ويسأل أسئلة يجب أن يجاب عنها خلال خمس ثواني، ويرسل من لا يجيب إلى آخر الرتل. وفي نهاية الجولة يكون دائماً هو أو أوليفير في المقدمة.

وفجأة توقف أوليفير عن المجيء إلى المدرسة. وبعد شهر قال الأخ غابرييل إن أوليفير مصاب باللوكيميا ويقبع في المستشفى، ويجب على الجميع أن يصلّوا من أجله. وبرؤوس محنية راح الأولاد يصلون. وبما أنه لم يكن يؤمن بالله فلم يصلٍّ، بل راح يحرك شفتيه، وقال لنفسه: سيظن الجميع أني أريد أن يموت أوليفير لكي أحتل المرتبة الأولى.

لم يعد أوليفير أبداً، فقد مات في المستشفى. وأجرى الأولاد الكاثوليك قدّاساً لراحة روحه.

لقد تلاشى التهديد. وأصبح الآن يتنفّس بسهولة أكثر، إلا أن متعته القديمة في أن يحتل المرتبة الأولى فسدت.

17

كانت الحياة في كيب تاون أقل تنوعاً مما كانت عليه الحياة في ووستر. فخلال عطل نهاية الأسبوع خاصة لم يكن يوجد لديه شيء يفعله سوى أن يقرأ مجلة Reader's Digest «المختار» أو أن يستمع إلى المذياع، أو أن يلعب بقذف كرة كريكت. ولم يعد يقوم بجولات على دراجته، لعدم وجود مكان يمكن الذهاب إليه في بلومستيد، التي كانت عبارة عن صفوف طويلة من البيوت تمتد أميالاً في كلّ اتّجاه، كما كان قد كبر على ركوب دراجة سميث التي بدأت تبدو مثل دراجة للأطفال.

وبدأ ركوب الدراجة في الشوارع يبدو سخيفاً. كما فقدت الأشياء الأخرى التي كانت تشغله في السابق سحرها: تركيب نماذج الميكانو وجمع الطوابع. ولم يستطع أن يفهم لماذا أضاع وقته على تلك الأشياء. وكان يمضي ساعات في الحمّام، يتفحص نفسه في المرآة، ولم يكن يحبّ ما يراه. فقد كان يكفّ عن الابتسام، ووجهه يتجهم.

أما الرغبة الوحيدة التي لم تخبُ فكانت عشقه للكريكت. ولم يكن يعرف أحداً شديد الولع بالكريكت مثله. فقد كان يلعب الكريكت في المدرسة، إلا أن ذلك لم يكن كافياً على الإطلاق. وكانت في البيت في بلومستيد شرفة ذات أرضية من لوح الأوردواز، حيث كان يلعب فيها وحده، يمسك المضرب بيده اليسرى ويرمي الكرة

على الحائط بيده اليمنى فترتد إليه لمتخيّلاً أنها الملعب. وكان يمضي ساعات طوالاً وهو يقذف الكرة على الحائط. وكان الجيران يشتكون إلى أمّه بسبب الضوضاء التي كان يحدثها، لكنه لم يكن يعير ذلك أي اهتمام.

وانكب على دراسة كتب تعليم هذه اللعبة، وأصبح يعرف مختلف الضربات عن ظهر قلب، وكان بوسعه أن ينفذها بحركات صحيحة. لكنه كان في حقيقة الأمر يفضّل أن يلعب منفرداً في الشرفة على أن يلعب الكريكت في الواقع. وكان توقع قذف الكرة بالمضرب في ملعب حقيقي يثير شجونه، لكنها كانت تملأه بالخوف أيضاً. وكان يخشى خاصة رماة الكرة السريعين: فقد كان يخاف أن تصيبه الكرة، كما كان يخاف من الألم. وكان عليه أن يركّز كلّ طاقاته على ألا يتراجع، ألا يستسلم، عندما يلعب الكريكت في الواقع.

وكان نادراً ما يتمكن من إحراز هدف. وإذا لم يتمكن من إحراز هدف في الحال كان يستمر في قذف الكرة بالمضرب مدة نصف ساعة أحياناً دون أن يحرز شيئاً، فكان يثير حفيظة الجميع، بمن فيهم أعضاء فريقه. وكان يبدو أنه يدخل في غيبوبة من السلبية والاستسلام تجعله يتحاشى الكرة فقط. وعندما كان يتذكر حالات الفشل تلك، كان يعزي نفسه بقصص ألعاب الكركيت التي تقام في ملاعب الكريكت الوعرة، التي يقوم فيها شخص بقذف الكرة، عادة ما يكون رجلاً من يوركشاير، مرهقاً، مزموم الشفتين، يشق طريقه، وتتداعى حوله جميع النصيبات.

وعندما بدأ برمي الكرة بالمضرب ضد فريق بينيلاندس المؤلف من صبية دون الثالثة عشرة من العمر في عصر أحد أيام الجمعة، وجد نفسه في مواجهة فتى طويل نحيف، راح يندفع بتشجيع من فريقه بسرعة وبشراسة كبيرتين. فطارت الكرة في

المكان، تحاشاها وتحاشى أحياناً حارس النصيبة: وكان نادراً ما يحتاج إلى استعمال مضربه.

وفي الجولة الثالثة وقعت الكرة في الطين خارج الحصيرة، ورمى كرته فأصابت صدغه. فقال لنفسه بغضب: «هذا شيء كثير! لقد تجاوز الحد كثيراً». وكان يدرك أن اللاعبين ينظرون إليه بغرابة. وكان مايزال يسمع صوت الكرة ترتطم بعظمه: صوت قرقعة كتيم، بدون صدى. بعدها لم يعد يشعر بشيء وسقط على الأرض.

كان مستلقياً على جانب الملعب. وجهه وشعره مبللان. تطلع حوله بحثاً عن مضربه لكنه لم يره.

قال له الأخ أوغسطين: «استلق واسترح قليلاً من الوقت». كانت في صوته نبرة من الفرح. «فقد أُصبت بضربة».

فرد مغمغماً: «أريد أن أرمي الكرة بالمضرب»، وانتصب في جلسته. كان يعرف صحة ما قاله، مما يثبت أنه لم يكن جباناً، لكنه لم يستطع أن يقذف الكرة، ففقد دوره، وحلّ مكانه شخص آخر وأخذ يرمي الكرة بالمضرب بدلاً عنه.

كان يأمل في أن يكون تصرفهم أفضل من ذلك. فقد توقّع أن يوجه تأنيب إلى رامي الكرة الخطر. لكن اللعبة استمرت، وكان أداء فريقه رائعاً. «هل أنت على ما يرام؟ هل تؤلمك؟» سأله أحد أعضاء فريقه، ثم كاد يستمع إلى إجابته. جلس على الحافة وراح يراقب بقيّة الرميات. ثم نزل إلى الملعب. كان يريد أن يصيبه صداع، أن يفقد بصره، أو أن يغمى عليه، أو أن يفعل شيئاً مثيراً آخر. لكنه شعر بأنه كان على ما يرام. لمس صدغه. كانت هناك بقعة طرية. تمنّى أن تتورم وتزرقّ قبل الغد ليثبت أنه أصيب حقاً.

ومثل أي تلميذ آخر في المدرسة، كان يلعب الركبي أيضاً. حتى أن صبياً يدعى شيبارد كان ذراعه الايسر ذاوياً بسبب

إصابته بشلل الأطفال، كان يلعب. وكانت قد أعطيت لهم مواقع في الفريق اعتباطياً. إذ أسند إليه مركز السند في فريق الصبيان دون الـ 13 باء. وكانوا يلعبون في أيام السبت صباحاً. وكان المطر يهطل دائماً أيام السبت. كان الجو بارداً ورطباً وبائساً، وكان يجري بتثاقل على العشب المبلّل من جانب لآخر، وكان يدفعه الأولاد الأضخم حجماً. ولأنه كان السند فلم يكن يمرّر له أحد الكرة، وكان يشعر بالامتنان لذلك، لأنه كان يخاف أن يصاب. فقد كانت الكرة، المطلية بدهن الحصان لحماية الجلد، زلقة عندما يمسك بها المرء.

ولولا وجود أربعة عشر لاعباً في الفريق لكان قد تمارض في أيام السبت تلك. وكان عدم الذهاب إلى مباراة الركبي أسوأ بكثير من عدم الذهاب إلى المدرسة.

وكان فريق الصبية دون الـ 13 باء يخسر في جميع المباريات. وكان الفريق دون الـ 13 ألف يخسر كذلك في معظم الأحيان. وفي الواقع كانت معظم الفرق في مدرسة القديس يوسف تخسر في أكثر الأحيان. ولم يكن يفهم لماذا كان يتعين على المدرسة أن تلعب الركبي. وبالتأكيد لم يكن الأخوة، الذين كانوا نمساويين أو إيرلنديين، وراء هذا. فقد كان يبدو عليهم الارتباك في المناسبات القليلة التي يأتون فيها للمشاهدة، ولم يكونوا يفهمون ما كان يجري.

كانت أمّه تحتفظ تحت الدرج في الأسفل بكتاب ذي غلاف أسود بعنوان «الزواج المثالي». كان كتاباً عن الجنس، ويعرف عنه منذ سنوات. وفي أحد الأيام أخذه معه إلى المدرسة. وقد سبّب ذلك إرباكاً بين أصدقائه، فقد بدا أنه الصبي الوحيد الذي يوجد لدى والديه كتاب كهذا.

ومع أن قراءة الكتاب شكلت إحباطاً له ـ فقد كانت فيه رسوم عن الأعضاء التناسلية بدت مثل الرسوم التوضيحية في الكتب العلمية ـ وحتى في الفصل الذي يتحدث عن الأوضاع، لم يجد شيئاً مثيراً (إذ بدا أن إيلاج عضو الذكر في المهبل يشبه إيلاج حقنة شرجية)، وراح الصبية الآخرون يتصفحونه وانكبوا فوقه بشره وتعطّش، وطلبوا منه أن يعيرهم إياه.

وخلال درس الكيمياء ترك الكتاب في درجه. وعندما عاد كانت تبدو على وجه الأخ غابرييل، الذي كان مرحاً عادة، نظرة جامدة. وقد عرف أن الأخ غابرييل فتح درجه وشاهد الكتاب. فأخذ قلبه يزداد خفقاناً منتظراً الإعلان عن ذلك والشعور بالخزي الذي سيعقبه. إلا أنه لم يحدث شيء من هذا القبيل، لكنه كان يجد في كلّ ملاحظة يبديها له الأخ غابرييل إشارة خفية إلى الشرّ الذي جلبه هذا الصبي غير الكاثوليكي إلى المدرسة. وفسدت الأمور بين الأخ غابرييل وبينه. وأحس بالأسف الشديد لأنه أحضر الكتاب. وأعاده إلى البيت، ووضعه في مكانه في الدرج، ولم ينظر إليه مرة أخرى.

واستمر هو وأصدقاؤه لفترة من الزمن الالتقاء في إحدى زوايا الملعب الرياضي أثناء الاستراحة، حيث يتحدثون عن الجنس. وكان يساهم في هذه المناقشات بشذرات كان قد جمعها من الكتاب. إلا أنه كان من الواضح أن ما كان يقوله لم يعد يثير اهتماماً كافياً، وسرعان ما بدأ الأولاد الأكبر سناً ينفصلون عن الآخرين وبدأت تدور بينهم أحاديث خاصة بهم إلى درجة أنهم كانوا يخفضون أصواتهم فجأة ويتهامسون، ثم كانت تتعالى قهقهات. وكان بيلي أوينز موضوع هذه الأحاديث، الذي كان في الرابعة عشرة من عمره، وكانت لديه أخت في السادسة عشرة، وكان يعرف عدة فتيات، وكانت لديه سترة من الجلد كان يرتديها عندما كان يذهب إلى حفلات الرقص، بل لعله مارس الجنس أيضاً.

وصادق ثيو ستافروبولوس، الذي كان يشاع أنه كان شاذاً جنسياً، لكنه لم يكن على استعداد لتصديق هذه الإشاعات. وكان يحبّ هيئة ثيو، وبشرته الناعمة، وتصفيفة شعره الجميلة، وثيابه الأنيقة. وحتى سترته المدرسية، بأشرطتها العمودية السخيفة، كانت تبدو جميلة عليه.

وكان والد ثيو يمتلك مصنعاً. ولم يكن أحد يعرف تماماً ماذا ينتج ذلك المصنع، لكنه كان يعرف أن لعمله علاقة بالسمك. وكانت أسرته تعيش في بيت كبير في أغنى حيّ من رونديبوش. وكانوا يملكون مالاً كثيراً، وكان باستطاعتهم إرسال أولادهم إلى كلية الأبرشية، ولأنهم كانوا يونانيين، ويحملون اسماً أجنبياً، كان عليهم ان يذهبوا إلى مدرسة القديس يوسف، الذي أصبح يعتبرها الآن شيئاً يشبه السلة التي يوضع فيها الأولاد الذين لا يجدون مكاناً آخر يذهبون إليه.

ولمح والد ثيو مرة واحدة فقط. كان رجلاً طويلاً، يرتدي ثياباً أنيقة ويضع نظارات سوداء. لكنه كان يرى أمّه أكثر، التي كانت ضئيلة الحجم وضعيفة وداكنة اللون، تدخّن سجائر، وتقود سيارة بويك زرقاء يقال إنها كانت السيارة الوحيدة في كيب تاون، بل ربما في جنوب أفريقيا ـ ذات التروس الآلية. ولديه أيضاً أخت تكبره في السن، وكانت في غاية الجمال، متعلّمة، وفي سنّ الزواج، إلى حد أنه لم يكن يُسمح لها بأن تظهر أمام أصدقاء ثيو.

وكان ولدا ستافروبولوس يأتيان إلى المدرسة في الصباح بسيارة البويك الزرقاء، التي كانت تقودها أمّهما أحياناً، إلا أنه كان يقودها في أغلب الأحيان سائق يرتدي بدلة رسمية سوداء، ويضع قبعة مستدقة الطرف. وكانت سيارة البويك تنساب بجلال داخل المدرسة، ويترجل منها ثيو وأخوه، ثم تعود البويك أدراجها. ولم يكن يستطيع أن يفهم لماذا كان ثيو يسمح بذلك. فلو كان في

مكانه لطلب أن ينزل قبل شارع من المدرسة. لكن ثيو كان يواجه النكات والسخريات برصانة واتزان.

وفي أحد الأيام دعاه ثيو إلى بيته بعد المدرسة. وعندما وصلا إلى البيت تبين له أنهما سيتناولان طعام الغداء. وفي الساعة الثالثة من بعد الظهر، جلسا إلى المائدة ـ طاولة عليها ملاعق وشوك وسكاكين فضّية، ومناديل نظيفة ـ وقدّم لهما المشرف، الذي كان يرتدي بدلة بيضاء، شرائح من اللحم ورقائق البطاطا ولبث واقفاً وراء كرسي ثيو فيما كانا يتناولان طعامهما، بانتظار أوامرهما.

وقد بذل كلّ ما بوسعه ليخفي دهشته. فقد كان يعرف أنه يوجد أناس يقوم على خدمتهم خدم، لكنه لم يكن يدرك أنه يمكن أن يكون للأطفال خدم أيضاً.

ثم سافر والدا ثيو وأخته إلى الخارج ـ فقد أشيع أن الأخت ستتزوج باروناً إنكليزياً ـ وأصبح ثيو وأخوه تلميذين داخليين. وتوقع أن التجربة ستسحق ثيو، بسبب حسد التلاميذ الداخليين الآخرين وحقدهم عليهما، وبسبب الطعام السيء الذي كان يقدم لهما، وبسبب مهانة الحياة التي كانت تخلو من الخصوصية. وتوقع أيضاً أن ثيو كان سيستسلم لحلاقة الشعر التي تجرى على الآخرين. إلا أن ثيو حافظ بطريقة ما على قصة شعره الأنيقة. ورغم اسمه، ورغم أنه كان لا يجيد الرياضة، ورغم أنه كان يشاع عنه أنه كان شاذاً، لم يتخلَ عن ابتسامته الوديعة، ولم يتذمر على الإطلاق، ولم يشعر بالمهانة أبداً.

اندس ثيو في مقعده، تحت صورة المسيح وهو يفتح صدره ليكشف قلباً ياقوتياً متوهجاً. وكان يفترض أنهما كانا يراجعان درس التاريخ. لكن كان يوجد أمامهما كتاب قواعد صغير، كان

ثيو يتعلم منه اللغة اليونانية القديمة. اللغة اليونانية القديمة بأحرف يونانية حديثة.

شنّف الأخ غابرييل أذنيه وسأل: «ماذا تفعل ياستافروبولوس؟».

«إني أعلّمه اللغة اليونانية، أيها الأخّ»، ردّ ثيو على نحو واثق ولطيف.

«اذهب واجلس في مقعدك».

ابتسم ثيو وعاد إلى مقعده.

لم يكن الأخوة يحبّون ثيو. فقد كانت غطرسته تزعجهم. وكانوا يشاركون الأولاد تحيّزهم ضده بسبب ماله. كان هذا الظلم يجعله يشعر بالغضب. كان يريد أن يقاتل من أجل ثيو.

18

عادت أمّه إلى التعليم ريثما يبدأ مكتب أبيه الجديد يدّر دخلاً. وكانت أمّه قد استأجرت خادمة تدعى سيليا للقيام بالأعمال المنزلية. كانت امرأة هزيلة ضامرة، قلما وجدت سناً واحداً في فمها. وكانت ترافق سيليا أحياناً أختها الأصغر. وفي عصر أحد الأيام، عندما عاد إلى البيت، كانت الأختان تجلسان في المطبخ تحتسيان الشاي. ابتسمت له الأخت الصغرى، التي كانت أكثر جاذبية من سيليا. كان ثمة شيء في ابتسامتها جعله يضطرب، فلم يعد يعرف إلى أين ينظر، وتوجه على الفور إلى غرفته. ثم سمعهما تضحكان وعرف أنهما كانتا تضحكان منه.

كان ثمة شيء آخذ في التغير. فقد بدا محرجاً طوال الوقت. لم يكن يعرف إلى أيّ اتجاه يوّجه عينيه، ماذا يفعل بيده، كيف يحمل جسمه، ما التعبير الصحيح الذي كان يجب أن يرسمه على وجهه؟ كان الجميع يحدّقون فيه، يقيمّونه، يجدون أنه محتاج. كان يشعر كأنه سرطان بحري يخرج من قوقعته، وردياً ومجروحاً وبذيئاً.

في الماضي كان مفعماً بالأفكار. أفكار عن أماكن يذهب إليها، أشياء يتحدّث عنها، أشياء يقوم بها. كان دائماً يسبق الجميع بخطوة: كان هو القائد، وكان الآخرون يتبعونه. أما الآن فقد أصبح يشعر بأن الطاقة التي كان يحسّ بأنها تجري في عروقه تلاشت. وفي الثالثة عشرة من عمره بدأ يصبح فظّاً، غليظاً،

عبوساً، كئيباً. لم يكن يحبّ هذه الذات القبيحة الجديدة. كان يريد أن يتخلص منها، لكنه لم يكن يستطيع أن يفعل ذلك وحده. لكن من هو الشخص الذي كان سيقوم بذلك عنه؟

توجهوا لزيارة مكتب أبيه الجديد. كان المكتب في منطقة غوودوود، التي ترتبط بسلسلة ضواحي غوودوود بارو بيلفيل الأفريكانية: كانت نوافذه مطلية باللون الأخضر الداكن، وكتبت فوق اللون الأخضر كلمات مذهبة بروكوريور - ز كويتزي - المحامي. كان المكتب من الداخل كئيباً، أثاثه غير مريح ومنجّد بشعر الحصان وجلد أحمر. ها قد خرجت كتب القانون التي كانت ترحل معهم في جنوب أفريقيا منذ أن زاول أبوه المحاماة آخر مرة في العام 1937 من صناديقها وصُفّت على الرفّ. وراح يبحث عن كلمة اغتصاب بتكاسل. تقول الحاشية: يدخل السكان المحليون أحياناً عضوهم الذكري بين فخذي المرأة دون إيلاج. وتقع هذه الممارسة في إطار القانون العرفي، ولا تعتبر اغتصاباً. ويتساءل هل هذه هي الأشياء التي يتحدثون عنها في المحاكم، هل يتجادلون أين يذهب القضيب؟

بدا أن مكتب أبيه بدأ يزدهر. ولم يوّظف طابعاً على الآلة الكاتبة فحسب، بل وظّف كذلك كاتباً متمرساً يدعى إكستين، الذي ترك له العمل الروتيني المتمثل في إجراءات نقل الملكية والوصايا. أما هو فقد كرّس جهوده لتبرئة ساحة المتهمين. ففي كلّ يوم كان يعود إلى البيت بقصص جديدة عن أشخاص نجح في تبرئتهم، وكيف أنهم كانوا يشعرون بالامتنان له.

أما أمّه فلم تكن تبدي اهتماماً بالناس الذين كان يحصل لهم على البراءة أكثر من اهتمامها بقائمة الديون المتزايدة. وبدأ يُذكر كثيراً اسم لو رو، بائع السيارات. وكانت تلحّ على أبيه، وتقول إنه من المؤكد أنه يستطيع أن يجعل لو رو يسدد ما عليه لكونه

محامياً. وكان أبوه يردّ بأن لو رو سيسدد دينه في نهاية الشهر، لأنه وعده بذلك. إلا أن نهاية الشهر تأتي ولم يكن لو رو يسدد دينه.

لم يسدد لو رو دينه، ولم يقلل من ظهوره. بل بالعكس، راح يدعو والده لاحتساء كأس معه، ويعده بمزيد من الأعمال، ويرسم له صورة وردية عن الأموال التي سيكسبها من السيارات.

ازدادت المشاحنات في البيت تأججاً وغضباً، لكنها أصبحت في الوقت نفسه أكثر حذراً. سأل أمّه عما يجري، فقالت بمرارة إن جاك يقرض لو رو مالاً.

لم يكن بحاجة لسماع المزيد. فقد كان يعرف أباه، ويعرف حقيقة ما كان يجري. فقد كان أبوه يتوق ليحظى بالاستحسان والرضا، يفعل أيّ شيء لكي يصبح محبوباً. وفي الدوائر التي كان يتحرك فيها والده كانت هناك طريقتان اثنتان فقط تجعلانه يصل إلى ما يصبو إليه، وهما أن يقدم للآخرين مشروبات على حسابه، وأن يقرضهم المال.

ولم يكن يفترض بأن يرتاد الأطفال الحانات. إلا أنه كان هو وأخوه يجلسان في حانة فندق فراسيربيرغ رود، إلى طاولة في إحدى الزاويا، يشربان عصير البرتقال، ويراقبان أباهما وهو يشتري كؤوس البراندي والماء لغرباء، وكان قد بدأ يتعرّف على هذا الجانب الآخر منه. وهكذا عرف طيبة القلب التي كان يحدثها فيه البراندي، والتفاخر الكاذب، وصفة المبذّر الكبير.

وكان يستمع بكآبة إلى مناجاة أمّه وهي تتذمر. ومع أن حيل أبيه لم تعد تنطلي عليه، لم يكن يثق بقدرتها على مقاومته، فقد كان يرى أباه يتزلف لها أيضاً، كما كان يفعل في الماضي في أغلب الأحيان. وكان يحذّرها قائلاً: «لا تستمعي إليه، فهو لا يكفّ عن الكذب».

وأخذت المشكلة مع لو رو تزداد عمقاً. فقد بدأت تجري

مكالمات هاتفية طويلة، وبدأ اسم جديد يظهر وهو بنسوسان، الذي كانت تقول أمّه عنه أنه شخص موثوق به، ولا يشرب المشروبات الكحولية. وكان بنسوسان سينقذ جاك ويعيده إلى الطريق الصحيح.

لكن تبين له أنه لم يكن هناك لو رو فقط، بل كان هناك رجال آخرون، رفاق كأس آخرون، كان أبوه يقرضهم المال. لم يكن بوسعه أن يصدق ذلك، لم يكن يستطيع أن يفهم ذلك. من أين كان يأتي بكلّ هذا المال، بينما لا يملك أبوه سوى بزّة واحدة وحذاء واحد وكان عليه أن يستقل القطار للذهاب إلى عمله؟ هل يمكن للمرء أن يجمع الكثير من المال من تبرئة الناس وإخراجهم من السجن بسرعة؟

لم ير لو رو قط، لكنه كان يستطيع أن يتصوّره بسهولة. فقد تخيّل أن لو رو شخصاً أفريكانياً، متورّداً ذا شارب أشقر، ويرتدي بزة زرقاء وربطة عنق سوداء. ولا بد أنه كان يميل إلى البدانة قليلاً، وينضح منه الكثير من العرق، ويطلق نكاتاً بذيئة بصوت مرتفع.

وكان لو رو يجلس مع أبيه في الحانة في غوودوود. وعندما لم يكن أبوه يلاحظ ذلك، كان لو رو يغمز من وراء ظهره إلى الرجال الآخرين في الحانة. لقد اختار لو رو أباه ليمتص دمه. وكان يتحرق خجلاً بأن يكون والده على هذه الدرجة من الغباء.

وتبين له أخيراً أن المال لم يكن في واقع الأمر لأبيه، ولذلك تدخّل بنسوسان، الذي كان يعمل لصالح الجمعية القانونية. كانت المسألة خطيرة، فقد كان المال يعود إلى حساب الائتمان. «وما هو حساب الائتمان؟» سأل أمّه، فأجابته: «المال الذي يأتمنونه عليه»، فعاود وسألها: «ولماذا يأتمنه الناس على مالهم؟ لا بد أنهم مجانين»، فهزت أمّه رأسها وقالت إن لدى المحامين حسابات

ائتمان، لا يعرف أحد لماذا إلا الله. وتقول: «إن جاك مثل طفل عندما يتعلق الأمر بالمال».

وتدّخل بنسوسان من جانب الجمعية الحقوقية لأنه كان يريد أن ينقذ أباه، الذي كان يعرفه منذ أن كان مشرفاً على حسابات التأجير، قبل أن يستلم الوطنيون السلطة. وكان يحب أباه، ولم يكن يريده أن يدخل السجن. وكرمى لأيام الصداقة القديمة، ولأن لديه زوجة وأطفالاً، كان على استعداد ليغض الطرف عن بعض الأشياء، واتخاذ بعض الترتيبات. وتقرر أن يُسدد المبلغ على مدى خمس سنوات، ثم يُغلق هذا الفصل، وتطوى هذه القضية.

حصلت أمّه على مشورة قانونية. وكانت تريد أن تفصل ممتلكاتها عن ممتلكات زوجها قبل وقوع مصائب جديدة: مثل طاولة غرفة الطعام، والخزانة ذات الدروج والمرآة، والمنضدة الصغيرة التي أعطتها إياها الخالة آني. وكانت تريد أن تعدّل عقد زواجهما، بحيث لا يصبح أي منهما مسؤولاً عن ديون الآخر. لكنها اكتشفت استحالة تغيير عقود الزواج. فإذا تهاوى أبوه تهاوت أمّه أيضاً هي وأطفالها.

ومنح إكستين وطابع الآلة الكاتبة إشعاراً، وأُغلق المكتب في غوودوود. ولم يعد يرى بعد ذلك ما حدث للنافذة الخضراء ذات الخطوط الذهبية. وواصلت أمّه مهنة التعليم.

وبدأ أبوه يبحث عن عمل. وكان في تمام الساعة السابعة من صباح كلّ يوم ينطلق إلى المدينة. لكنه كان يعود بعد ساعة أو ساعتين ـ كان هذا هو سرّه ـ عندما يكون قد غادر جميع من في البيت. فكان يرتدي بيجامته ثانية ويصعد إلى السرير حاملاً صفحة الكلمات المتقاطعة من صحيفة كاب تايمز، ونصف زجاجة من البراندي وإبريق ماء.

وفي الساعة الثانية بعد الظهر، وقبل أن يعود الآخرون إلى

البيت، كان يرتدي ثيابه ويتوجه إلى ناديه، نادي وينبيرج، الذي كان في الواقع جزءاً من فندق وينبيرج. وكان أبوه يتناول العشاء ويمضي فترة المساء وهو يشرب. وكانت الضوضاء توقظه أحياناً بعد منتصف الليل ـ فلم يكن ينام بعمق ـ إذ كانت تقف سيارة أمام البيت، وُيفتح الباب الأمامي، ويعود أبوه ويتجه مباشرة إلى الحمّام. ثم كان يسمع من غرفة نوم أبويه سيلاً من الهمسات المحتدمة. وكان يرى في الصباح بقعاً صفراء داكنة على أرضية الحمّام وعلى مقعد المرحاض، ورائحة قيء.

كتب قصاصة من الورق وعلقها في الحمّام: «يرجى رفع غطاء المقعد». لكنه لم يعبأ بها. وأصبح التبوّل على مقعد المرحاض آخر عمل من أعمال التحدي الذي كان أبوه يفعله ضد زوجة وأطفال لم يعودوا يتحدثون إليه.

وذات يوم اكتشف سرّ أبيه عندما لم يذهب إلى المدرسة، فقد كان مريضاً أو متمارضاً آنئذ. ومن سريره تناهى إليه صوت حركة المفتاح في قفل الباب الأمامي، وسمع أباه يدخل إلى الغرفة المجاورة. ثم اجتاز أحدهما الآخر في الممر وكلّ منهما يشعر بالغضب والذنب.

وقبل أن يغادر البيت عند العصر، أفرغ والده صندوق البريد وأخذ بعض الرسائل وأخفاها في قعر خزانته، تحت البطانة الورقية. ثم اكتشف أنه كان يخبئ الرسائل في الخزانة ـ فواتير تعود إلى أيام غوودوود، رسائل مطالبة، ورسائل المحامي ـ وانتابت أمّه مشاعر المرارة الشديدة إزاء ذلك وقالت: «لو كنت أعرف من قبل، لكان بوسعي أن أضع خطة. أما الآن فقد دُمر كلّ شيء».

ازدادت الديون واتسعت. ولم يتوقف أشخاص عن طرق بابهم

طوال ساعات الليل والنهار. أشخاص لا يستطيع رؤيتهم. وفي كلّ مرة كان يقرع الباب الأمامي كان أبوه ينسل إلى غرفة نومه. وكانت أمّه تستقبل الزوار بصوت منخفض، وتقودهم إلى غرفة الجلوس، وتغلق الباب. ثم كان يسمعها تهمس لنفسها غاضبة في المطبخ.

دار حديث عن مدمن خمر غير معروف، وأن على أبيه أن يذهب لزيارته ليثبت حسن نواياه. لكن أباه لم يذهب.

جاء موظفون من المحكمة لجرد محتويات البيت. كان صباح يوم سبت مشمس. انسحب إلى غرفة نومه وحاول أن يقرأ، لكن الأمر لم يكن مريحاً: فقد طلب الرجال الدخول إلى غرفته، إلى جميع غرف البيت. خرج إلى الحديقة الخلفية. وتبعوه إلى هناك. كانوا يتطلعون حولهم، ويدوّنون ملاحظات في سجل معهم.

كان يتأجج غضباً. وكان يشير إلى أبيه عندما يتكلّم مع أمّه بذاك الرجل، ذاك الرجل الذي هو أباه، الذي كان يكنّ له كراهية شديدة ولم يكن يريد أن يمنحه اسماً: فلماذا يتعين عليه أن تكون لنا علاقة مع ذاك الرجل؟ لماذا لا تتركين ذاك الرجل يذهب إلى السجن؟

كان يملك خمسة وعشرين جنيهاً في حساب توفير البريد. تقسم أمّه أن أحداً لن يمس جنيهاته الخمسة والعشرين.

أُعلن عن قدوم شخص يدعى السيد غولدنغ لزيارتهم. ورغم أن السيد غولدنغ كان ملوناً فقد كان في موقع أقوى من موقع أبيه. اتخذت التحضيرات بعناية لاستقباله. وتقرر أن يستقبل السيد غولدنغ في الغرفة الأمامية، مثل الزائرين الآخرين، وأن يقدم له الشاي بطقم الشاي نفسه. ونتيجة استقباله بطريقة جيدة كانوا يأملون في ألا يرفع السيد غولدنغ دعوى قضائية ضدهم.

وصل السيد غولدنغ. كان يرتدي بزّة، وكان متجهماً. احتسى الشاي الذي قدمته له أمّه لكنه لم يعد بشيء. كان يريد أن يستعيد نقوده.

وبعد أن غادر المنزل أثير نقاش حول ما يجب عمله بكوب الشاي. فقد جرت العادة، كما يبدو، أن يهشم الكأس الذي شرب منه شخص ملّون. ويفاجأ بأن عائلة أمّه، التي لا تؤمن بشيء، تؤمن بهذا الأمر. لكن أمّه غسلت الكأس بمادة مبيّضة في نهاية الأمر.

وفي اللحظة الأخيرة جاءت العمّة غيرلي من ويليستون لإنقاذهم، من أجل شرف العائلة. ووضعت بعض الشروط، كان أحدها أن لا يزاول جاك مهنة المحاماة مرة أخرى.

وافق أبوه على الشروط، ووافق على توقيع الوثيقة. لكنه عندما حان الوقت استغرق الأمر الكثير من التملق والاسترضاء لكي يغادر سريره. وخرج أخيراً من غرفة نومه وهو يرتدي بنطالاً رمادياً فضفاضاً، وسترة بيجامته، وكان حافي القدمين. وقّع على الأوراق دون أن ينبس بكلمة، ثم عاد إلى فراشه.

وفي وقت لاحق من ذلك المساء ارتدى ثيابه وخرج. ولم يعرفوا أين أمضى تلك الليلة، ولم يعد إلا في اليوم التالي.

«ما الهدف من إرغامه على التوقيع؟»، قال متذمراً لأمّه. فإذا لم يسدد ديونه الأخرى أبداً فما الذي يجعله يسددها لغيرلي؟».

فأجابته: «لا تشغل بالك بهذا، فأنا من سيسددها لها».

«كيف؟».

«سأتدبر أمري».

كان هناك في سلوكها شيء استثنائي لم يعد بإمكانه تجاهله. فمع ظهور أيّ أمر جديد كان يبدو أنها تزداد قوة وعناداً. كانت كما لو كانت تجلب المصائب لنفسها، لا لشيء إلا لتري العالم مدى

قدرتها على التحمّل، وكانت تقول: «سأسدد كلّ ديونه، سأسددها على أقساط. سأفعل ذلك».

كان تصميمها الذي يشبه تصميم النمل يثير غضبه إلى حد أنه كان يرغب في أن يضربها. وكان هدفها واضحاً. فقد كانت تريد أن تضحي بنفسها من أجل أطفالها. تضحي بلا نهاية، وكان هو يعرف جيداً هذه الروح. لكن ماذا سينفعها أن تضحّي بنفسها تماماً، ما أن تبيع ثيابها، وتبيع أحذيتها، وتسير بقدمين تدميان؟ لم يكن يقوى على تحمل هذا الخاطر.

حلت عطلة كانون الأول وأبوه مايزال بلا عمل. كانوا أربعتهم في البيت الآن، مثل جرذان في قفص، يتفادى أحدهم الآخر، وقد توارى الجميع في غرف منفصلة. انهمك هو وأخوه في قراءة قصص الرسوم: النسر والوليمة. وكانت روفر قصته الأثيرة التي كانت تروي قصصاً عن آلف توبير، البطل الذي يعمل في مصنع في مانشستر ويعيش على السمك والبطاطا المقلية. كان يحاول أن ينسى نفسه، لكنه لم يكن يستطيع أن يمنع نفسه من تشنيف أذنيه، والاستماع إلى كلّ همسة وحركة في البيت.

وذات صباح خيم سكون غريب على البيت. كانت أمّه خارج البيت، إلا أنه كان يعرف أن الرجل كان مايزال في البيت من إحساسه بشيء في الهواء، رائحة، نسمة، ثقل. بالتأكيد لم يستطع أن يواصل نومه. هل من الممكن أن تكون قد حدثت أعجوبة العجائب، أن يكون قد انتحر؟

لكنه إذا انتحر، أليس من الأفضل أن يتظاهر بأنه لم يلحظ شيئاً، إلى أن تأخذ الحبوب المنومّة أو ما شابهها التي يكون قد تناولها وقتاً كافياً ليسري مفعولها؟ وكيف كان بإمكانه أن يمنع أخاه من أن يطلق الإنذار؟

في الحرب التي كان يشنّها على أبيه لم يكن واثقاً تماماً من دعم أخيه له. وبقدر ما كان يتذكره، فقد لاحظ الناس ذلك، فبينما كان هو يشبه أمّه، كان أخوه يشبه أباه. وكان يشك في أن أخاه كان رفيقاً بأبيه، وكان يشك في أن يكون أخاه، بوجهه الشاحب القلق، والعقدة على جفنه، رقيقاً بشكل عام.

كان من الأفضل أن يخرج من غرفته، لكي يتمكن من القول إذا ما سُئل: «كنت أتكلّم مع أخي» أو «كنت أقرأ في غرفتي». لكنه لم يستطع أن يحتوي فضوله. فأخذ يسير على أطراف أصابعه باتجاه الباب، وفتحه ونظر إلى الداخل.

كان صباحاً صيفياً دافئاً. كانت الرياح ساكنة، لذلك كان مايزال يسمع زقزقة العصافير في الخارج، واصطفاق أجنحتها. كان خصاص النافذة مغلقاً، والستائر مسدلة على آخرها. وكانت تفوح رائحة عرق رجل. وفي العتمة تبين أباه وهو مستلق على سريره. وصدرت من وراء حنجرته غرغرة ناعمة وهو يتنفّس.

تقدم أكثر. اعتادت عيناه على الضوء. كان أبوه يرتدي بنطال بيجامته وقميصاً قطنياً. ولم يكن حليق الذقن. وكان ثمة احمرار في حنجرته على شكل v حيث تتلاقى سفعة الشمس مع شحوب صدره. وكان إلى جانب السرير وعاء تطفو فيها أعقاب السجائر في البول البني. لم ير شيئاً أقبح من هذا طوال حياته.

لم تكن هناك حبوب، ولم يكن الرجل يحتضر، بل كان نائماً. فقد كان أجبن من أن يتناول حبوباً منومّة، تماماً كما أنه لم يكن يملك الشجاعة ليخرج من البيت ويبحث عن عمل.

ومنذ اليوم الذي عاد فيه والده من الحرب التي خاضها، حرب ثانية لم تتح لأبيه فرصة الانتصار فيها، لأنه لم يتوقع كيف كان عدوه عديم الرحمة وشرساً. لسبع سنوات طحنته تلك الحرب، أما

اليوم فقد انتصر. انتابه شعور الجندي الروسي الواقف على بوابة براندينبيرغ، يرفع الراية الحمراء فوق خرائب برلين.

ومع ذلك، كان يتمنّى في الوقت نفسه لو أنه لم يكن هنا، وأن يشهد هذا الخزي. فهذا ظلم! كان يريد أن يصيح: أنا مجرّد طفل! وكان يتمنّى أن يضمه أحد، امرأة، إلى ذراعيها، وتخفف من آلامه، تهدهده، وتقول له إنه ليس سوى حلم سيئ. تذكر خدّ جدته، ناعماً كالحرير وبارداً وجافاً، وهي تقدمه له كي يقبّله. كان يتمنّى أن تأتي جدته وتعيد الأمور إلى نصابها.

كرة من البلغم تعلق في حنجرة أبيه. يسعل، يستدير إلى جانبه. كانت عيناه مفتوحتين، عينا رجل صاحٍ تماماً، مدركاً تماماً أين هو. كانت العينان ترياه وهو واقف هناك، حيث يجب ألا يكون، يتجسّس. العينان بدون حكم، لكنهما بدون شفقة أيضاً.

وبتكاسل تتحرك يد الرجل إلى الأسفل وتسوّي بنطال بيجامته.

توقّع أن يقول الرجل شيئاً، كلمة «كم الساعة الآن؟» لكي يسهّل عليه الأمر. لكن الرجل لم ينبس بكلمة. ولم تكف العينان عن النظر إليه، بسلام ومن بعيد. ثم أغمضتا وغط في النوم ثانية.

عاد إلى غرفته، وأغلق الباب.

كانت الغمّة تزول أحياناً. ولم تكن السماء، التي تنوء بثقلها عادة فوق رأسه، قريبة جداً بحيث يستطيع أن يلمسها، لكنها لم تكن بعيدة كثيراً أيضاً. تفتح شقّاً، ولوهلة كان يستطيع أن يرى العالم على حقيقته. أصبح يرى نفسه في قميصه الأبيض بأكمامه المرفوعة، والبنطال الرمادي القصير الذي أوشك على أن يصغر عليه: لم يعد طفلاً، ولم يعد الآخرون يدعونه طفلاً، فقد كبر كثيراً على ذلك الآن، كبر كثيراً حتى يستخدم هذا العذر، ومع ذلك كان

مايزال غبياً ومنكمشاً على نفسه كطفل، أخرس، جاهل، متخلّف عقلياً. ففي لحظة كهذه كان يمكنه أن يرى أباه وأمّه أيضاً من الأعلى، وبدون غضب، لا كثقلين رماديين عديمي الشكل يقبعان على كتفيه، يتواطآن على تعاسته ليلاً نهاراً، بل كرجل وامرأة يعيشان حياة رتيبة ومليئة بالمشاكل. تفتح السماء، ويرى العالم على حقيقته، ثم تغلق السماء ويرى نفسه ثانية، يعيش القصة الوحيدة التي يقّر بها، قصة نفسه.

كانت أمّه تقف أمام المغسلة، في الركن الأكثر حلكة من المطبخ. كانت تقف وظهرها له، وفقاعات الصابون تنقط من يديها، تنظّف قدراً بتمهل شديد. أما هو فكان يحوم حولها، يتحدّث عن شيء لا يعرف ما هو، يتكلّم بحماسه المعهود، يتذمر.

استدارت، عيناها ترفرفان فوقه. كانت نظرة مدروسة، عينان خاليتان من المحبة. لم تره للمرة الأولى، بل رأته كما كان دائماً، وكما تعرف كيف يكون دائماً عندما لا يغلفها الوهم. كانت تراه، تتأمله، ولم تكن سعيدة. بل ملّت منه.

هذا ما كان يخشاه منها، من الشخص الذي كان يعرفه حق المعرفة في العالم كلّه، التي تمتاز عليه كثيراً بمعرفة سنواته الأولى، سنواته الأكثر عجزاً والأكثر حميمية، السنوات التي، رغم كلّ الجهود، لم يكن يتذكّر هو نفسه عنها شيئاً، التي ربما تعرفها جيداً، لكونها فضولية وشغوفة بالمعرفة ولديها مصادرها الخاصة، أسرار الحياة المدرسية التافهة. كان يخاف من حكمها، يخاف من الأفكار الباردة التي تدور في رأسها في لحظات كهذه، عندما لا توجد عاطفة تلوّنها، ولا يوجد سبب يجعل حكمها واضحاً. والأهم من كلّ ذلك كان يخاف من اللحظة، من اللحظة التي لم تأت بعد، عندما تطلق حكمها، التي ستكون مثل ومضة البرق، ولن يكون قادراً على الوقوف في وجهها. لم يكن

يريد أن يعرف. وكانت أشياء كثيرة لم يكن يريد أن يعرفها إلى درجة أنه يشعر أن يداً تدخل إلى رأسه وتسدّ أذنيه، وتحجب رؤيته. كان يفضّل أن يكون أعمى وأصمّاً ولا يعرف بماذا تفكّر. كان يفضّل أن يعيش كسلحفاة داخل قوقعتها.

لم تُجلب هذه المرأة إلى العالم لغرض واحد فقط وهو أن تحبه وتحميه وترعاه وتلبي حاجاته، بل بالعكس كان لها حياة قبل أن يأتي هو إلى الوجود، حياة لم تكن تضطر لأن توليه أدنى تفكير. وفي فترة ما من حياتها حملت به. حملت به وقرّرت أن تمنحه حبها. ولعلها اختارت أن تحبه قبل أن تحمل به، ورغم كلّ ذلك فقد اختارت أن تحبه، لذلك كان بوسعها أن تختار أن تكّف عن حبّه.

«انتظر حتى يصبح لديك أطفال»، قالت له ذات مرة وهي في أحد أمزجتها المريرة. «وعندها ستعرف». ماذا سيعرف؟ كانت صيغة طالما ترددها، صيغة تأتي كما لو كانت منبعثة من أيام زمان. ربما كان هذا ما يقوله كلّ جيل إلى الجيل التالي كتحذير، كتهديد. لكنه لم يكن يريد أن يسمعه. «انتظر حتى يصبح لديك أطفال». يا له من كلام سخيف، يا له من تناقض! كيف يمكن أن يكون عند الطفل أطفال؟ على أية حال فإن ما كان يعرفه لو كان أباً، لو كان أباه هو نفسه، فهذا تماماً ما لم يكن يريد أن يعرفه. لم يكن يقبل أن يكون كما كانت تريد أن ترغمه على أن يكون: رزيناً، محبطاً، واهماً.

19

ماتت الخالة آني. ولم تعد تمشي رغم وعود الأطباء، حتى بعكاز. ومن سريرها في مشفى فولكس، نُقلت إلى سرير في أحد دور المسنين في ستيكلاند، حيث لم يكن يتوافر لأحدهم الوقت لزيارتها، وحيث ماتت وحدها. وتقرر أن تُدفن في مقبرة ولتيماد رقم 3.

في البدء رفض أن يذهب. لأنه سمع ما يكفي من صلوات في المدرسة، وقال إنه لم يعد يريد أن يسمع المزيد منها. ولم يكن يستطيع أن يواري ازدراءه للدموع التي ستراق. وما كانت إقامة جنازة لائقة للخالة آني إلا وسيلة ليشعر أقرباؤها بالارتياح. وتقرر أن تُدفن في حفرة في حديقة دار المسنين، توفيراً للمال.

لم يكن يعني ذلك حقاً في قرارة نفسه. لكنه أحسّ بأنه عليه أن يقول مثل هذه الأشياء لأمّه، ليشاهد انقباض وجهها بالألم والغضب. كان عليه أن يقول لها المزيد قبل أن تنقض عليه وتطلب منه أن يصمت؟

لم يكن يحبّ أن يفكر بالموت. وإذا شاخ الناس وابتلوا بالمرض فكان يفضّل أن تتوقف حياتهم بكلّ بساطة ويختفوا. فلم يكن يحبّ الأجساد الهرمة البشعة، وكانت فكرة أن يخلع شخص هرم ثيابه أمامه، تجعل القشعريرة تسري في جسده. وكان يتمنّى ألا يستخدم أي شخص مسنّ الحمّام في بيتهم في بلومستيد.

أما موته هو فكان مسألة مختلفة. إذ سيكون موجوداً دائماً بشكل من الأشكال بعد موته، يطوف في المكان، يتمتّع بالحزن الذي ينتاب أولئك الذين سبّبوه له والذين يتمنّون أنه ما زال حيّاً، رغم فوات الأوان.

لكنه في النهاية ذهب مع أمّه إلى جنازة الخالة آني. ذهب لأنها رجته أن يرافقها، وكان يحبّ أن يُستجدى، يحبّ الشعور بالقوة الذي كان يمنحه له ذلك، وكذلك لأنه لم يكن قد حضر جنازة من قبل، وكان يريد أن يرى مدى عمق القبر الذي يحفرونه، وكيف يُنزل التابوت فيه.

لم تكن جنازة كبيرة على الإطلاق. فلم يتجاوز عدد المشيعين خمسة أشخاص ومعهم قس هولندي شاب من الكنيسة الإصلاحية تكسو وجهه البثور. أما الأشخاص الخمسة فكانوا: العمّ ألبرت، وزوجته وابنه، وأمّه وهو. ولم يكن قد رأى العمّ ألبرت منذ سنوات. فقد كاد يكون مطوياً على نفسه فوق عكازه، وكانت الدموع تسيل من عينيه الزرقاوين الشاحبتين، وقد برز جناحا ياقته كما لو كانت ربطة عنقه قد عقدتها له يدان أخريان.

وصلت العربة. كان الحانوتي ومساعده يرتديان ثوباً رسمياً أسود، وكانا أكثر أناقة بكثير من أي شخص منهم (فقد كان يرتدي بزّة مدرسة القديس يوسف، لأنه لم تكن لديه بزّة). وتولى القس الصلاة باللغة الأفريكانية على راحة الأخت التي غادرت هذه الدنيا. ثم عادت العربة إلى المقبرة، ووضع التابوت على عمودين فوق القبر. ولإحباطه، لم ينزل التابوت إلى القبر ـ فقد بدا أن هذا ينتظر عمّال المقبرة ـ إلا أن الحانوتي أومأ بوقار لألقاء حفنة من التراب على التابوت.

بدأت أمطار خفيفة تهمي. لقد انتهت مهمتهم، وأصبحوا أحراراً في أن يذهبوا، وأن يعودوا لممارسة حياتهم الخاصة.

وفي أثناء طريق عودتهم إلى البوابة، عبر هكتارات من القبور القديمة والجديدة راح يسير وراء أمّه وابن خالها، ابن ألبرت، اللذين كانا يتحدثان بصوت منخفض. ولاحظ أن لديهما المشية المتثاقلة ذاتها، الطريقة ذاتها في رفع ساقيهما وإنزالهما بقوة، إلى اليسار ثم إلى اليمين، كالفلاحين الذين ينتعلون القباقيب. فقد كان أل دي بيل من بوميرانيا: فلاحون من الريف، بطيئون وثقيلون جداً قياساً إلى سكان المدينة. لقد كانوا في المكان غير الملائم.

أخذ يفكّر بالخالة آني التي تركوها هنا تحت المطر، في ولتيماد المهجورة. يتذكر المخالب السوداء الطويلة التي قصّتها لها الممرضة في المستشفى، والتي لن يقصّها لها أحد بعد الآن.

«إنك تعرف الكثير»، قالت له الخالة آني ذات يوم. لم يكن مديحاً، مع أن شفتيها كانتا مزمومتين في ابتسامة، وهي تهزّ رأسها في الوقت نفسه. «صغير جداً ومع ذلك تعرف الكثير. كيف ستتمكن من الاحتفاظ بهذا كلّه في رأسك؟» ومالت عليه ونقرت جمجمته بإصبعها العظمي.

هذا الولد خاصّ، قالت الخالة آني لأمّه، وقالت له أمّه بدورها ذلك. لكنه كان خاصاً من أيّ نوع؟ لا أحد يعرف.

وصلا إلى البوابة. أخذ المطر يشتد. وحتى قبل أن يتمّكنا من اللحاق بقطاريهما، القطار المتجه إلى سولت ريفر، ثم القطار المتجه إلى بلومستيد، كان عليهما أن يمشيا تحت المطر حتى محطة ولتيماد.

تجاوزتهما العربة. لوّحت لها أمّه بيدها فتوقفت. تحدثت إلى الحانوتي. ثم قالت له: «سيوصلوننا إلى البلدة».

لذلك اضطر إلى الصعود إلى العربة وجلس محشوراً بين أمّه والحانوتي. وانطلقت العربة بخفة في شارع فورتريكير رود. لقد كرهها لذلك، وتمنى ألا يراه أحد من مدرسته.

«أظن أن السيدة معلّمة مدرسة»، قال الحانوتي. كان يتحدث بلهجة أسكوتلندية. كان مهاجراً، وماذا كان بوسعه أن يعرف عن جنوب أفريقيا، عن أناس مثل الخالة آني؟

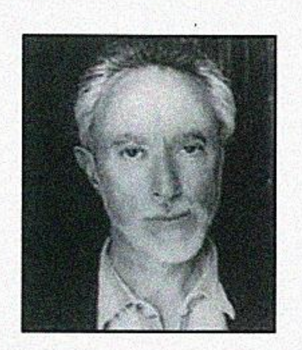
لم ير في حياته رجلاً كثيف الشعر أكثر من الحانوتي. فقد نبتت شعرات سوداء وخرجت من أنفه وأذنيه، وانتصبت في شكل خصلات من ثنية قميصه المنشاة.

«نعم»، قالت أمّه: «لقد علّمت لأكثر من أربعين سنة».

«إذاً قمت بعمل طيب»، قال الحانوتي، وأضاف: «التعليم مهنة نبيلة».

«ماذا حدث لكتب العمّة آني؟»، سأل أمّه فيما بعد، عندما أصبحا وحدهما مرة أخرى. قال الكتب، لكنه لم يكن يعني سوى «Ewige Genesing» في نسخه الكثيرة.

قالت أمّه إنها لا تعرف أو هي لم تكن تريد أن تقول. فمن الشقّة التي انكسر فيها وركها، إلى المستشفى، إلى دار المسنين في ستيكلاند، إلى مقبرة ولتيماد رقم 3، لم يفكر أحد بالكتب ربما باستثناء الخالة آني نفسها، فلن يقرأ هذه الكتب أحد أبداً. أما الخالة آني فكانت ماتزال مستلقية تحت المطر تنتظر أحداً يتاح له الوقت لكي يدفنها. لقد تُرك وحده يفكّر بذلك. كيف سيحافظ على كلّ ما يعرفه في رأسه، كلّ الكتب، كلّ الناس، كلّ القصص؟ وإذا لم يتذكرها هو فمن سيتذكرها؟





«يستحضر كويتزي كل أدواته الحِرَفية في استذكار أيام صباه، وبأسلوب مركّز ولغة محْكمة يصطحبنا إلى داخل عالمه».

صنداي تايمز

«فيها صرامة وتجهّم ساحرين. يصوغ كويتزي ذكرياته بجمل بليغة وسريعة تتدفق منها العواطف بقوة».

نيوزداي

«السيد كويتزي، يكتب كالعادة بأناقة أخاذة صور فردية مرسومة بحرَفية وجمال كبيرين.

أتلانتيك مونثلي

«بلاغة الكلمات في «أيام الصبا» هي: صلاة في الحكمة».

أتلانتا جورنال كونستيتيوشن

«لوحة شخصية واقعية وغنية عن الطفولة، تتماهى مع جنوب أفريقيا، فيها مزيج من البراءة الفطرية والعنف المفرط».

كيركوس ريفيو

«أيام الصبا تعرض الهواجس والتناقضات، الحنق ولحظات السعادة النادرة، لحياة صبي ماقبل البلوغ، بوضوح وبراءة ومباشرة الأطفال».

هيوستن كرونيكل

«أيام الصبا كتاب ساحر وسلس. إنه ذكريات نفس يَقِظة حساسة، تمتص نبضات الحياة المبكرة وتختزنها للأيام القادمة.

واشنطن بوست بوك وورلد

«استثنائية... رواية عن العرقية والتمييز العنصري والشعور بالعار، وبعض مقاطعتها ذهول مطبق».

نيويوركر